http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣١٩

وقوله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ حيلولة الحق تعالى بين المرء وقلبه هو تغطيته وحجبه عن شهود أسرار ذاته وأنوار صفاته ، بالوقوف مع الحس ، وشهود الفرق بلا جمع ، ويعبر عنه أهل الفن بفقد القلب ، فإذا قال أحدهم : فقدت قلبى ، فمعناه : أنه رجع لشهود حسه ووجود نفسه ، ووجدان القلب هو احتضاره بشهود معانى أسرار الذات وأنوار الصفات ، فيغيب عن نفسه وحسه ، وعن سائر الأكوان الحسية ، وفقدان القلب يكون بسبب سوء الأدب ، وقد يكون بلا سبب اختبارا من الحق تعالى ، هل يفزع إليه فى فقده أو يبقى مع حاله.

وقد تكلم الغزالي على القلب فقال ، فى أول شرح عجائب القلب من الإحياء : إن المطيع بالحقيقة لله هو القلب ، وهو العالم بالله ، والعامل لله ، وهو الساعي إلى اللّه ، والمتقرب إليه ، المكاشف بما عند اللّه ولديه ، وإنما الجوارح أتباع ، والقلب هو المقبول عند اللّه ، إذا سلّم من غير اللّه ، وهو المحجوب عن اللّه إذا صار مستغرقا فى غير اللّه ، وهو المطالب والمخاطب ، وهو المعاتب والمعاقب ، وهو الذي يسعد بالقرب من اللّه ، فيفلح إذا زكاه ، ويخيب ويشقى إذا دنسه ودساه. ثم قال : وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه ، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه ، وإذا جهله فقد جهل نفسه ، وإذا جهل نفسه ، جهل ربه ، ومن جهل قلبه فهو لغيره أجهل ، وأكثر الناس جاهلون بقلوبهم وأنفسهم وقد حيل بينهم وبين أنفسهم ، فإن اللّه يحول بين المرء وقلبه ، وحيلولته بأن يمنعه عن مشاهدته ومراقبته ، ومعرفة صفاته ، وكيفية تقلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إلى أعلى عليين ، ويرتقى إلى عالم الملائكة المقربين ، ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ، ويترصد ما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه ، فهو ممن قال اللّه تعالى فيهم :

نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ «١» الآية. هـ.

وقد أنشد من وجد قلبه ، وعرف ربه ، وغنى بما وجد ، فقال :

أنا القرآن والسّبع المثاني وروح الرّوح لا روح الأوانى

فؤادى عند معلوم مقيم تناجيه وعندكم لسانى

فلا تنظر بطرفك نحو جسمى وعد عن التنعم بالأوانى

فأسرارى تراءت مبهمات مستّرة بأنوار المعاني

فمن فهم الإشارة فليصنها وإلّا سوف يقتل بالسنان
كحلّاج المحبة إذ تبدّت له شمس الحقيقة بالتدانى

---

(١) الآية ١٩ من سورة الحشر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٠
ومن أسباب تشتت القلب وفقده دخول الفتنة عليه ، الذي أشار إليه بقوله :
[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٥]
وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٢٥)
قلت : دخلت النون فى (لا تصيبن) لأنه فى معنى النهى ، على حد قوله : لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ «١». انظر البيضاوي.
يقول الحق جل جلاله : وَاتَّقُوا فِتْنَةً ، إن نزلت ، لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، بل تعم الظالم وغيره ، ثم يبعث الناس على نيتهم ، وذلك كإقرار المنكر بين أظهركم ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف ، واقتراف الكبائر ، وظهور البدع ، والتكاسل فى الجهاد ، وعن الفرائض ، وغير ذلك من أنواع الذنوب ، وفى الحديث :
«لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليعمّنّكم اللّه بعذابه» «٢». أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم. قالت عائشة رضى اللّه عنه : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «نعم ، إذا كثر الخبث» «٣».
قال القشيري ، فى معنى الآية : احذروا أن ترتكبوا زلّة توجب لكم عقوبة لا تخص مرتكبها ، بل يعمّ شؤمها من تعاطاها ومن لم يتعاطاها. وغير المجرم لا يؤخذ بجرم من أذنب ، ولكن قد ينفرد واحد بجرم فيحمل أقوام من المختصين بفاعل هذا الجرم ، كأن يتعصبوا له إذا أخذ بحكم ذلك الجرم ، فبعد ألا يكونوا ظالمين يصيرون ظالمين بمعاونتهم وتعصبهم لهذا الظالم فتكون فتنة لا تختص بمن كان ظالما فى الحال ، بل تصيب أيضا ظالما فى المستقبل بسبب تعصبه لهذا الظالم ، ورضاه به. هـ. وسيأتى تمامه فى الإشارة.
وحكى الطبري أنها نزلت فى على بن أبى طالب وعمار بن ياسر وطلحة والزبير ، وأن الفتنة ما جرى لهم يوم الجمل. هـ. قال تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ لمن ارتكب معاصيه وتسبب فى فتنة غيره.
الإشارة : فى القشيري ، لما تكلم على تفسير الظاهر ، قال : وأما من جهة الإشارة فإن العبد إذا باشر

زلّة بنفسه عادت إلى القلب منها الفتنة ، وهى العقوبة المعجلة ، ونصيب النفس من الفتنة العقوبة ، والقلب إذا حصلت

---

(١) من الآية ١٨ من سورة النمل.

(٢) أخرجه بلفظ مقارب الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٣٨٨). والترمذي فى (الفتن – باب ما جاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) وحسنه. من حديث حذيفة بن اليمان. ولفظ الترمذي : «والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن اللّه أن يبعث عليكم عقابا منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم».

(٣) أخرجه البخاري فى (المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش مطولا. وفيه السائلة :

زينب ، وليست عائشة – رضى اللّه عن أزواجه نبينا الطاهرات.

منه فتنة ، وهو همه بما لا يجوز ، تعدّت فتنته إلى السر وهى الحجبة. وكذلك المقدّم فى شأنه ، إذا فعل ما لا يجوز ، انقطعت البركات التي كانت تتعدى منه إلى متّبعيه وتلامذته ، فكان انقطاع تلك البركات عنهم نصيبهم من الفتنة ، وهم لم يعملوا ذنبا ، ويقال : إن الأكابر إذا سكتوا عن التنكير على الأصاغر أصابتهم فتنة بتركهم الإنكار عليهم فيما فعلوا من الإجرام.

ثم قال : ويقال : إنّ الزاهد إذا انحط إلى رخصة الشرع فى أخذ الزيادة من الدنيا بما فوق الكفاية – وإن كانت من وجه حلال – تعدت فتنته إلى من يتخرج على يديه من المبتدئين ، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة فى الدنيا ، وترك التقلل ، فيؤديه إلى الانهماك فى أودية الغفلة فى الأشغال الدنيوية.

والعابد إذا جنح إلى سوء ترك الأوراد تعدّى ذلك إلى ما كان ينشط فى المجاهدة به ، ويتوطّن الكسل ، ثم يحمله الفراغ وترك المجاهدة على متابعة الشهوات ، فيصير كما قيل :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة»

فهذا يكون نصيبهم من الفتنة ، والعارف إذا رجع إلى ما فيه حظ له ، نظر إليه المريد فتتداخله فتنة فترة فيما هو به من صدق المنازلة ، فيكون ذلك نصيبه من فتنة العارف. وبالجملة : إذا غفل الملك ، وتشاغل عن سياسة رعيته ، تعطّل الجند والرعية ، وعظم فيهم الخلل والبليّة ، وفى معناه أنشدوا :

رعاتك ضيّعوا – بالجهل منهم غنيمات فساستها ذئاب.

انتهى كلامه رضى اللّه عنه.

ثم ذكّرهم بالنعم ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٦]

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ أي : اذكروا هذه النعمة ، حيث كنتم بمكة وأنتم قليل عددكم مع كثرة عدوكم ، مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ أي : أرض مكة ، يستضعفكم قريش ويعذبونكم ويضيقون عليكم ، تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ أي : قريش ، أو من عداهم ، فَآواكُمْ إلى المدينة ، وجعلها لكم مأوى

---

(١) البيت لأبى العتاهية .. انظر : (نهاية الأرب ٣/ ٨٠ ومعاهد التنصيص ٢/ ٨٣).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٢

تتحصنون بها من أعدائكم ، وَأَيَّدَكُمْ أي : قواكم بِنَصْرِهِ على الكفار ، أو بمظاهرة الأنصار ، أو بإمداد الملائكة يوم بدر ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من الغنائم ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ هذه النعم.

والخطاب للمهاجرين ، وقيل : للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء فى أيدي فارس والروم ، يخافون أن يتخطفهم الناس من كثرة الفتن ، فكان القوى يأكل الضعيف منهم ، فآواهم اللّه إلى الإسلام ، فحصل بينهم الأمن والأمان ، وأيدهم بنصره ، حيث نصرهم على جميع الأديان ، وأعزهم بمحمد صلّى اللّه عليه وسلّم ، ورزقهم من الطيبات ، حيث فتح عليهم البلاد ، وملكوا ملك فارس والروم ، فملكوا ديارهم وأموالهم ، ونكحوا نساءهم وبناتهم ، لعلهم يشكرون.

الإشارة : التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة ، وهم الفقراء المتوجهون إلى اللّه ، فهم قليل فى كل زمان ، مستضعفون فى كل أوان ، حتى إذا تمكنوا وتهذبوا ، وطهروا من البقايا ، منّ عليهم بالنصر والعز والتأييد ، كما وعدهم بقوله : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ... الآية «١» ، والغالب عليهم شكر هذه النعم ، لما خصهم به من كمال المعرفة. واللّه تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن الخيانة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢٧ الى ٢٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ

وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ بتضييع أوامره وارتكاب نواهيه ، وَالرَّسُولَ بمخالفة أمره وترك سنته ، أو بالغلول فى الغنائم ، أو بأن تبطنوا خلاف ما تظهرون.

قيل : نزلت فى أبى لبابة فى قصة بنى قريظة. روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم حاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا الصلح كما صالح إخوانهم بنى النّضير ، على أن يصيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من الشّام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل لنا أبا لبابة ، وكان مناصحا لهم لأنّ عياله وماله فى أيديهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا :

ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه ، أنه الذّبح ، فقال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتّى علمت أنّى قد خنت اللّه ورسوله ، فنزل وشدّ نفسه إلى سارية فى المسجد ، وقال : واللّه لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت ، أو يتوب اللّه علىّ ، فمكث سبعة أيام حتى خرّ مغشيا عليه ، ثم تاب اللّه عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحلّ نفسك ، فقال :

---

(١) الآية ٥ من سورة القصص.

لا واللّه لا أحلها حتى يكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم هو الذي يحلنى ، فجاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فحلّه ، فقال : إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى الّتى أصبت فيها الذّنب ، وأن أنخلع من مالى ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «يجزيك الثّلث أن تتصدّق به» «١».

ثم قال تعالى : وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ فيما بينكم ، أو فيما أسر الرسول إليكم من السر فتفشوه ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أن الخيانة ليست من شأن الكرام ، بل هى من شأن اللئام ، كما قال الشاعر :

لا يكتم السرّ إلا كلّ ذى ثقة فالسرّ عند خيار النّاس مكتوم

أو : وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح.

وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

لأنه سبب الوقوع فى الإثم والعقاب ، أو محنة من اللّه تعالى ليبلوكم فيهم ، فلا يحملنكم حبهم على الخيانة ، كما فعل أبو لبابة. وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

لمن آثر رضا اللّه ومحبته عليهم ، وراعي حدود اللّه فيهم ، فعلّقوا هممكم بما يؤديكم إلى أجره العظيم ، ورضاه العميم ، حتى تفوزوا بالخير الجسيم.

الإشارة : خيانة اللّه ورسوله تكون بإظهار الموافقة وإبطان المخالفة ، بحيث يكون ظاهره حسن وباطنه قبيح ، وهذا من أقبح الخيانة ، وينخرط فيه إبطان الاعتراض على المشايخ وإظهار الوفاق ، وهو من أقبح العقوق لهم ، وأما خيانة الأمانة فهى إفشاء أسرار الربوبية لغير أهلها ، فمن فعل ذلك فسيف الشريعة فوق رأسه ، إذا كان سالكا غير مجذوب ، لأن من أفشى سر الملك استحق القتل ، وكان خائنا ، ومن كان خائنا لا يؤمن على السر ، فهو حقيق أن ينزع منه ، إن لم يقتل أو يتب ، ولله در القائل :

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى «٢» ولا أنثر الدّر النفيس على البهم
فإن قدّر اللّه الكريم بلطفه ولا قيت أهلا للعلوم وللحكم
بذلت علومى واستفدت علومهم وإلّا فمخزون لدىّ ومكتتم

---

(١) أخرجه عن قتادة – مرسلا – ابن جرير فى التفسير ، وعزاه السيوطي فى الدر المنثور لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن جرير. [.....]

(٢) إذا لم يعلم الجاهل وكتمنا عنه العلم ، فما فائدة العلم إذن ..؟!

ثم دلهم على ما فيه دواء القلوب ومحو العيوب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ ، كما أمركم ، يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً نورا فى قلوبكم ، تفرقون به بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح. قال ابن جزى : وذلك دليل على أن التقوى تنور القلب ، وتشرح الصدر ، وتزيد فى العلم والمعرفة. هـ. أو : نصرا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين ، أو مخرجا من الشبهات ، أو نجاة مما تحذرون فى الدارين من المكروهات ، أو ظهورا يشهر أمركم ويثبت صيتكم ، من قولهم : سطع فرقان الصبح ، أي : نوره ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ أي : يسترها ، فلا يفضحكم يوم القيامة ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ يتجاوز عن مساوئكم ، أو يكفر صغائركم ويغفر كبائركم ، أو يكفر ما تقدم ويغفر ما تأخر ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ، ففضله أعظم من كل ذنب ، وفيه تنبيه على أن ما وعده لهم على التقوى تفضل منه وإحسان ، لا أن تقواهم أوجبت ذلك عليه ، كالسيد إذا وعد عبده أن يعطيه شيئا فى مقابلة عمل أمره به ، مع أنه واجب عليه لا محيد

له عنه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الفرقان الذي يلقيه اللّه فى قلوب المتقين من المتوجهين هو نور الواردات الإلهية ، التي ترد على القلوب من حضرة الغيوب ، وهى ثلاثة أقسام : وارد الانتباه : وهو نور يفرق به بين الغفلة واليقظة ، وبين البطالة والنهوض إلى الطاعة ، فيترك غفلته وهواه ، وينهض إلى مولاه ، ووارد الإقبال : وهو نور يفرق به بين الوقوف مع ظلمة الحجاب وبين السير إلى شهود الأحباب ، ووارد الوصال : وهو نور يفرق به بين ظلمة الأكوان ، ونور الشهود ، أو بين ظلمة سحاب الأثر وشهود شمس العرفان.

وإلى هذه الواردات الثلاثة أشار فى الحكم بقوله : «إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا ، أورد عليك الوارد ليسلمك من يد الأغيار ، ويحررك من رق الآثار ، أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك».

ثم ذكّر نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم بما فعل معه من الحفظ والرعاية من أعدائه اللئام ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٠]

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (٣٠)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر ، يا محمد ، نعمة اللّه عليك بحفظه ورعايته لك إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش ، حين اجتمعوا فى دار الندوة لِيُثْبِتُوكَ أي : يحبسوك فى الوثاق والسجن ، أَوْ يَقْتُلُوكَ بسيوفهم ، أَوْ يُخْرِجُوكَ من مكة.

وذلك أنهم لما سمعوا بإسلام الأنصار ومبايعتهم للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم ، خافوا على أنفسهم ، واجتمعوا فى دار الندوة متشاورين فى أمره ، فدخل عليهم إبليس فى صورة شيخ ، وقال : أنا من نجد ، سمعت اجتماعكم فأردت أن أحضركم ، ولن تعدموا منى رأيا ونصحا ، فقال أبو البحتري : أرى أن تحبسوه فى بيت ، وتسدوا منافذه ، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه فيها ، حتى يموت ، فقال الشيخ : بئس الرأى ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ، ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو : أرى أن تحملوه على جمل ، فتخرجوه من أرضكم ، فلا يضركم ما صنع ، فقال الشيخ :

بئس الرأى ، يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما ، وتعطوه سيفا ، فتضربوه ضربة واحدة ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإن طلبوا العقل عقلناه. فقال الشيخ : صدق هذا الفتى ، فتفرقوا على رأيه ، فأتى جبريل النبي

صلّى اللّه عليه وسلّم وأخبره الخبر ، وأمره بالهجرة ، فبيت علّيا رضى اللّه عنه على مضجعه ، وخرج مع أبى بكر إلى الغار ، ثم سافر مهاجرا إلى المدينة «١».

قال تعالى : وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ برد مكرهم عليهم ، أو مجازاتهم عليه ، أو بمعاملة الماكرين معهم ، بأن أخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم ، حتى تجرءوا على قتالهم ، فقتلوا وأسروا ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ إذ لا يؤبه بمكرهم دون مكره ، وإسناد أمثال هذا مما يحسن ، للمزاوجة ، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم. قاله البيضاوي.

الإشارة : وإذ يمكر بك أيها القلب الذين كفروا ، وهم القواطع من العلائق والحظوظ والشهوات ، ليحبسوك فى سجن الأكوان ، مسجونا بمحيطاتك ، محصورا فى هيكل ذاتك ، أو يقتلوك بالغفلة والجهل وتوارد الخواطر والأوهام ، أو يخرجوك من حضرة ربك إلى شهود نفسك ، أو من صحبة العارفين إلى مخالطة الغافلين ، أو من حصن طاعته إلى محل الهلاك من موطن معصيته ، أو من دائرة الإسلام إلى الزيغ والإلحاد ، عائذا باللّه من المحن ، واللّه خير الماكرين ، فيرد كيد الماكرين ، وينصر أولياءه المتوجهين والواصلين. وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير ، وأبو نعيم فى الدلائل (باب عصمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حين تعاهد المشركون على قتله) عن ابن عباس ، وأخرجه عبد الرزاق ، فى المصنف : (المغازي ، باب من هاجر إلى الحبشة) عن عروة بن الزبير. وأخرجه ابن سعد فى الطبقات (باب خروج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأبى بكر إلى المدينة) عن عائشة رضى اللّه عنها ..

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٦

ثم ذكر مساوئ أهل المكر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣١]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)

قلت : «إذا» : ظرفية شرطية ، خافضة لشرطها ، معمولة لجوابها ، أي : قالوا وقت تلاوة الآيات : لو نشاء ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا القرآنية قالُوا قَدْ سَمِعْنا ما تتلوه علينا ، لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : أخبارهم المسطورة أو أكاذيبهم المختلقة. قال البيضاوي : وهذا قول النّضر بن الحارث ، وإسناده إلى الجمع إسناد ما فعله رئيس القوم إليهم ، فإنه كان قاصهم ،

أي : يقص عليهم أخبار فارس والروم ، فإذا سمع القرآن يقص أخبار الأنبياء قال : لو شئت لقلت مثل هذا ، أو قول الذين ائتمروا فى شأنه : وهذا غاية مكائدهم ، وفرط عنادهم ، إذ لو استطاعوا ذلك لسارعوا إليه ، فما منعهم أن يشاوءا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ، ثم قارعهم بالسيف ، فلم يعارضوا ، مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا ، خصوصا فى باب البيان؟ هـ. بالمعنى.

الإشارة : هذه المقالة بقيت سنة فى أهل الإنكار على أهل الخصوصية ، إذا سمعوا منهم علوما لدنية ، أو أسرارا ربانية ، أو حكما قدسية ، قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا ، وهم لا يقدرون على كلمة واحدة من تلك الأسرار ، وهذا الغالب على المعاصرين لأهل الخصوصية ، دون من تأخر عنهم ، فإنهم مغرورون عنده ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا «١».

ثم ذكر استعجالهم للعذاب عنادا وعتوا ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٢]

وَإِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢)

قلت : «الحق» : خبر كان.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا الذي أتى به محمد هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ كأصحاب لوط ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ ، قيل : القائل هذا هو النّضر بن الحارث ، وهو أبلغ فى الجحود. روى أنه لما قال : «إن هذا إلا أساطير الأولين» ، قال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «ويلك إنه كلام اللّه» فقال هذه المقالة. والذي فى صحيحى البخاري ومسلم : أن القائل هو أبو جهل «١» ، وقيل : سائر قريش لمّا كذبوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم دعوا على أنفسهم ، زيادة فى تكذيبهم وعتوهم. وقال الزمخشري : ليس بدعاء ، وإنما هو جحود ، أي : إن كان هذا هو الحق فأمطر علينا ، لكنه ليس بحق فلا نستوجب عقابا. بالمعنى.

الإشارة : قد وقعت هذه المقالة لبعض المنكرين على الأولياء ، فعجلت عقوبته ، ولعل ذلك الولي لم تتسع دائرة حلمه ومعرفته ، وإلا لكان على قدم نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم حيث قال اللّه تعالى فى شأنه :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَما لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ موجود فِيهِمْ ، ونازل بين أظهرهم ، وقد جعلتك رحمة للعالمين ، خصوصا عشيرتك الأقربين ، وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ قيل : كانوا يقولون : غفرانك اللهم ، فلما تركوه عذبوا يوم بدر ، وقيل : وفيهم من يستغفر ، وهو من بقي فيهم من المؤمنين ، فلما هاجروا كلهم عذبوا ، وقيل : على الفرض والتقدير ، أي : ما كان اللّه ليعذبهم لو آمنوا واستغفروا.

قال بعض السلف : كان لنا أمانان من العذاب : النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والاستغفار ، فلما مات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذهب الأمان الواحد وبقي الآخر «٢» ، والمقصود من الآية : بيان ما كان الموجب لإمهاله لهم والتوقف على إجابة دعائهم ، وهو وجوده صلّى اللّه عليه وسلّم أو من يستغفر فيهم.

ثم قال تعالى : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ أي : وأىّ شيء يمنع من عذابهم؟ وكيف لا يعذبون وَهُمْ يَصُدُّونَ الناس عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ؟ أي : يمنعون المتقين من المسجد الحرام ، ويصدون رسوله عن

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الأنفال) ومسلم فى (صفات المنافقين ، باب فى قوله تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) من حديث أنس بن مالك رضى اللّه عنه.

(٢) رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم باق فينا بهديه وسنته ، وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٨

الوصول إليه. وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ المستحقين لولايته مع شركهم وكفرهم ، وهو ردّ لما كانوا يقولون : نحن ولاة البيت الحرام فنصد من نشاء وندخل من نشاء. قال تعالى : إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ أي : ما المستحقون لولايته إلا المتقون ، الذين يتقون الشرك والمعاصي ، ولا يعبدون فيه إلا اللّه ، ويعظمونه ، حق تعظيمه. وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن لا ولاية لهم عليه ، وإنما الولاية لأهل الإيمان ، وكأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ويعاند ، أو أراد به الكل ، كما يراد بالقلة العدم. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد جعل اللّه رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم أمانا لأمته ما دام حيّا ، فلما مات صلّى اللّه عليه

وسلّم بقيت سنته أمانا لأمته ، فإذا أميتت سنته أتاهم ما يوعدون من البلاء والفتن ، وكذلك خواص خلفائه ، وهم العارفون الكبار ، فوجودهم أمان للناس ، فقد قالوا : إن الإقليم الذي يكون فيه القطب لا يصيبه قحط ولا بلاء ، ولا هرج ولا فتن لأنه أمان لذلك الإقليم ، خلافة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تلاعبهم بالدين ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٥]

وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ صَلاتُهُمْ التي يصلونها فى بيت اللّه الحرام ، ويسمونها صلاة ، أو ما يضعون موضعها ، إِلَّا مُكاءً أي : تصفيرا بالفم ، كما يفعله الرعاة ، وَتَصْدِيَةً أي : تصفيقا باليد ، الذي هو من شأن النساء ، مأخوذ من الصدى ، وهو صوت الجبال والجدران. قال ابن جزى : كانوا يفعلون ذلك إذا صلى المسلمون ، ليخلطوا عليهم صلاتهم.

وقال البيضاوي : روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، مشبكين بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون ، وقيل : كانوا يفعلون ذلك إذا أراد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أن يصلى ، يخلطون عليه ، ويرون أنهم يصلون أيضا ، ومساق الآية : تقرير استحقاقهم العذاب المتقدم فى قوله : وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ، أو عدم ولايتهم للمسجد ، فإنها لا تليق بمن هذه صلاته. هـ.

قال تعالى : فَذُوقُوا الْعَذابَ الذي طلبتم ، وهو القتل والأسر يوم بدر ، فاللام للعهد ، والمعهود : (أو ائتنا بعذاب أليم) ، أو عذاب الآخرة ، بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أي : بسبب كفركم اعتقادا وعملا.

الإشارة : وما كان صلاة أهل الغفلة عند بيت قلوبهم إلا ملعبة للخواطر والهواجس ، وتصفيقا للوسواس والشيطان ، وذلك لخراب بواطنهم من النور ، حتى سكنتها الشياطين واستحوذت عليها ، والعياذ باللّه ، فيقال لهم :

ذوقوا عذاب الحجاب والقطيعة ، بما كنتم تكفرون بطريق الخصوص وتبعدون عنهم. واللّه تعالى أعلم.

(٣٢٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٢٩

ولما سلمت عير قريش من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ووقعت غزوة بدر ، وكان مات فيها صناديدهم ، حبس أبو سفيان ذلك المال ، وأنفقه فى حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فأنزل اللّه فى ذلك وفى غيره ، ممن أنفق فى إعانة الكفار على حرب المسلمين قوله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا بذلك عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، ويحاربون اللّه ورسوله. قيل : نزلت فى أصحاب العير فإنه لما أصيب قريش ببدر قيل لهم : أعينوا بهذا المال على حرب محمد ، لعلنا ندرك منه ثأرنا ، ففعلوا ، وقيل : فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش ، يطعم كل واحد منهم ، كل يوم ، عشر جزر ، وقيل : فى أبى سفيان ، استأجر ليوم أحد ألفين من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية.

قال تعالى : فَسَيُنْفِقُونَها بتمامها ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يتأسفون على إنفاقها من غير فائدة ، فيصير إنفاقها ندما وغما ، لفواتها من غير حصول المقصود ، وجعل ذاتها تصير حسرة ، وهى عاقبة إنفاقها مبالغة.

قال البيضاوي : ولعل الأول إخبار عن إنفاقهم فى تلك الحال ، وهو إنفاق بدر ، والثاني عن إنفاقهم فيما يستقبل ، وهو إنفاق غزوة أحد ، ويحتمل أن يراد بهما واحد ، على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ، ومساق الثاني لبيان عاقبته ، وهو لم يقع بعد. هـ. قلت : وهذا الأخير هو الأحسن.

ثم ذكر وعيدهم فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أي : الذين ثبتوا على الكفر منهم إذ أسلم بعضهم ، إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ يضمون ويساقون ، لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ الكافرين من المؤمنين ، أو الفساد من الصلاح ، أو ما أنفقه المشركون فى عداوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وما أنفقه المسلمون فى نصرته ، أي : حشرهم إليه ليفرق بين الخبيث والطيب ، وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ أي : يجمعه ، أو يضم بعضه إلى بعض ، حتى يتراكموا من فرط ازدحامهم ، فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ كله ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الكاملون فى الخسران ، لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ، والإشارة تعود على الخبيث لأنه بمعنى الفريق الخبيث ، أو على المنفقين ليصدوا عن سبيل اللّه. واللّه تعالى أعلم.

(٣٢٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣٠

الإشارة : كل من أنفق ماله فى لهو الدنيا وفرجتها ، من غير قصد حسن ، بل لمجرد الحظ والهوى ، تكون عليه حسرة وندامة ، تنقضى لذاته وتبقى تبعاته ، وهو من كفران نعمة المال ، فهو معرض للزوال ، وإن بقي فهو استدراج ، وعلامة إنفاقه فى الهوى : أنه إن أتاه فقير يسأله درهما منعه ، وينفق فى النزهة والفرجة الثلاثين والأربعين ، فهذا يكون إنفاقه حسرة عليه ، والعياذ باللّه.

ثم ندب إلى التوبة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٣٨]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا كقريش وغيرهم : إِنْ يَنْتَهُوا عن الكفر ومعاداة الرسول بالدخول فى الإسلام ، يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ من ذنوبهم ، ولو عظمت ، وَإِنْ يَعُودُوا إلى الكفر وقتاله فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ أي : مضت عادتى مع الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير والهلاك ، كعاد وثمود وأضرابهم ، وكما فعل بهم يوم بدر ، فليتوقعوا مثل ذلك ، وهو تهديد وتخويف.

الإشارة : قل للمنهمكين فى الذنوب والمعاصي : لا تقنطوا من رحمتى ، فإنى لا يتعاظمنى ذنب أغفره ، فإن تنتهوا أغفر لكم ما قد سلف. وأنشدوا :

يستوجب العفو الفتى ، إذا اعترف بما جنى ، وما أتى ، وما اقترف

لقوله : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)

وللشافعى رضى اللّه عنه :

فلمّا قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت الرّجا منّى لعفوك سلّما

تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنته بعفوك ربّى ، كان عفوك أعظما

فما زلت ذا جود وفضل ومنّة تجود وتعفو منّة وتكرّما

فإن لم ينته المنهمك فى الهوى فقد مضت سنة اللّه فيه بالطرد والإبعاد ، ويخاف عليه سوء الختام ، والعياذ باللّه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣١

ثم أمر بجهاد من لم ينته عن كفره ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وقاتلوا من لم ينته عن كفره حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ ، أي : حتى لا يوجد منهم شرك ، فهو كقوله عليه الصلاة السلام : «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا : لا إله إلّا اللّه» «١». وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق ، فَإِنِ انْتَهَوْا عن الكفر وأسلموا ، فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فيجازيهم على انتهائهم ، وقرأ يعقوب بتاء الخطاب على معنى : فإن اللّه بما

تعملون يا معشر المسلمين من الجهاد ، والدعوة إلى الإسلام ، والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، بَصِيرٌ فيجازيكم ، ويضاعف أجوركم بمن أسلم على أيديكم.

وَإِنْ تَوَلَّوْا ، ولم ينتهوا عن كفرهم ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ ناصركم ، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتهم ، نِعْمَ الْمَوْلى فلا يضيع من تولاه ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ فلا يغلب من نصره.

الإشارة : يؤمر المريد بجهاد القواطع والعلائق والخواطر ، حتى لا يبقى فى قلبه فتنة بشىء من الحس ، ويكون القلب كله لله ، فإن انتهت القواطع فإن اللّه بصير به ، يجازيه على جهاده ، ومجازاته : إدخاله الحضرة المقدسة ، مع المقربين ، وإن لم ينته فليستمر على مجاهداته وانقطاعه إلى ربه ، وليستنصر به فى مجاهدته ، فإن اللّه مولاه وناصره ، وهو نعم المولى ونعم النصير.

ثم ذكر قسم الغنائم التي تنشأ عن القتال ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤١]

وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الاعتصام – باب الاقتداء بسنن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم) ومسلم فى (الإيمان – باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا :

لا إله إلا اللّه) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣٢

قلت : (فأن لله) : مبتدأ حذف خبره ، أي : فكون خمسه لله ثابت ، أو خبر ، أي : فالواجب كون خمسه لله.

يقول الحق جل جلاله : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ مما أخذتموه من الكفار قهرا بالقتال ، لا الذي هربوا عنه بلا قتال ، فكله للإمام فىء ، يأخذ حاجته ويصرف باقيه فى مصالح المسلمين ، ولا الذي طرحه العدو خوف الغرق ، فلواجده ، بلا تخميس ، وكذا ما أخذه من كان ببلاد العرب على وجه التلصيص ، فأما ما أخذه بالقتال : فلله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ الجمهور على أن ذكر اللّه للتعظيم كقوله : وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١» ، وإنما المراد : قسم الخمس على الخمسة الباقية.

واختلف العلماء فى الخمسة ، فقال مالك : الرأى للإمام ، يلحقه ببيت الفيء ، ويعطى من ذلك البيت

لقرابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ما رءاه ، كما يعطى منه اليتامى والمساكين وغيرهم ، وإنما ذكر من ذكر على جهة التنبيه عليهم ، لأنهم من أهم ما يدفع إليهم. وقال الشافعي : يعطى للخمسة المعطوفة على (اللّه) ، ولا يجعل لله سهما مختصا ، وإنما ذكر ابتداء تعظيما ، لأن الكل ملكه ، وسهم الرسول يأخذه الإمام ، يصرفه فى المصالح ، فيعطى للأربعة المعطوفة على الرسول ، ويفضل أهل الحاجة. وقال مالك : لا يجب التعميم ، فله أن يعطى الأحوج ، وإن حرم غيره ، ومبنى الخلاف : هل اللام لبيان المصرف أو للاستحقاق ، كما فى آية الزكاة.

وقال أبو حنيفة : على ثلاثة أسهم ، لليتامى والمساكين وابن السبيل ، قال : وسقط الرسول وذوو القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام. وقال أبو العالية : يقسم على ستة ، أخذا بظاهر الآية ، ويصرف سهم اللّه إلى الكعبة ، وسهم الرسول فى مصالح المسلمين ، وسهم ذوى القربى لأهل البيت الذين لا تحل لهم الزكاة ، ثم يعطى سهم اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال البيضاوي : وذوو القربى : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، لما روى : أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قسم سهم ذوى القربى عليهما ، فقال عثمان وجبير بن مطعم : هؤلاء إخوانك بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك اللّه منهم ، أرأيت إخواننا من بنى المطّلب ، أعطيتهم وحرمتنا ، وإنّما نحن وهم بمنزلة واحدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام : «إنّهم لم يفارقونا فى جاهليّة ولا إسلام» وشبّك بين أصابعه «٢». وقيل : بنو هاشم وحدهم. قلت : وهو مشهور مذهب مالك – وقيل : جميع قريش. هـ.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الخراج – باب فى بيان مواضع قسم الخمس) وابن ماجه فى (الجهاد – باب قسمة الخمس) من حديث جبير بن مطعم. وفى البخاري بعضه ، راجع صحيح البخاري (فرض الخمس – باب : ومن الدليل على أن الخمس للإمام).

ثم قال تعالى : إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ، أي : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء ، فسلموه إليه ، واقنعوا بالأخماس الأربعة ، وَما وكذا إن كنتم آمنتم بما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم من القرآن ، فى شأن الأنفال ، ومن النصر والملائكة ، يَوْمَ الْفُرْقانِ يوم بدر ، فإنه فرّق فيه بين الحق والباطل ، يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ المسلمون والكفار ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على نصر القليل على الكثير ، بالإمداد بالملائكة ، وبلا إمداد ، ولكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والوسائط

، واللّه حكيم عليم.

الإشارة : واعلموا أنما غنمتم من شيء من العلوم اللدنية ، والمواهب القدسية ، والأسرار الربانية ، بعد مجاهدة العلائق والعوائق ، حتى صار دين القلب كله للّه ، فلله خمسه فناء ، وللرسول بقاء ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل تعظيما وآدابا. يعنى : أن العلم بالله يقتضى القيام بهذه الوظائف : الفناء فى اللّه ، بالغيبة عما سواه ، وشهود الداعي الأعظم ، وهو رسول اللّه ، والأدب مع عباد اللّه ، ليتحقق الأدب مع اللّه. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم بيّن يوم الفرقان ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

قلت : (إذ) : بدل من (يوم الفرقان) ، أو ظرف لالتقى ، أو لاذكر ، محذوفة ، والعدوة مثلث العين : شاطىء الوادي ، و(الدنيا) أي : القربى ، نعت له ، و(القصوى) : تأنيث الأقصى ، وكان قياسه : قلب الواو ياء ، كالدنيا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة ، فجاء على الأصل ، كالقود ، وسمع فيه : «القصيا» على الأصل ، وهو شاذ. و(الركب) :

مبتدأ ، و(أسفل) : ظرف خبره.

يقول الحق جل جلاله : واذكروا إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا أي : بعدوة الوادي القريبة من المدينة ، وَهُمْ أي : كفار قريش ، بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى أي : البعيدة منها ، وَالرَّكْبُ أي : العير التي قصدتكم ، أَسْفَلَ مِنْكُمْ أي : فى مكان أسفل منكم ، يعنى الساحل ، ثم جمع اللّه بينكم على غير ميعاد ، وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لهذا الجمع ، أنتم وهم للقتال ، ثم علمتم حالكم وحالهم لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ هيبة منهم لكثرتهم وقلتكم ، لتتحققوا أن ما اتفق لكم من الفتح والظفر ليس إلا صنيعا من اللّه تعالى خارقا للعادة ، فتزدادوا إيمانا وشكرا ، وَلكِنْ اللّه جمع بينكم من غير ميعاد لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا سابقا فى الأزل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه فى ذلك اليوم ، لا يتخلف عنه ساعة.

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، أي : قدّر ذلك الأمر العجيب ليموت من يموت عن بينة عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجة شاهدها ، لئلا يكون له حجة ومعذرة ، فإن وقعة بدر من الآيات الواضحة ، فكل من عاينها ولم يؤمن قامت الحجة عليه. أو ليهلك بالكفر من هلك عن بينة وحجة قائمة عليه ، ويحيى بالإيمان من حى به عن بينة من ربه ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ بكفر من كفر وإيمان من آمن ، فيجازى كلا على فعله. ولعل الجمع بين وصف السمع والعلم لاشتمال الأمرين على القول والاعتقاد.

واذكر أيضا إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا ، كان صلّى اللّه عليه وسلّم قد رأى الكفار فى نومه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه ، فقويت نفوسهم وتجرءوا على قتالهم ، وكانوا قليلا فى المعنى ، وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً فى الحس لَفَشِلْتُمْ لجبنتم ، وَلَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ فى أمر القتال ، وتفرقت آراؤكم ، وَلكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ أي : أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : يعلم ما يكون فيها من الخواطر وما يغير أحوالها.

وَاذكر أيضا إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ أي : يريكم اللّه الكفار ، إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ، حتى قال ابن مسعود لمن إلى جنبه : أتراهم سبعين؟ فقال : أراهم مائة ، تثبتا وتصديقا لرؤيا الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، حتى قال أبو جهل : إن محمدا وأصحابه أكلة جزور – بفتح الهمزة والكاف – جمع آكل – ، أي : قدر ما يكفيهم جذور فى أكلهم.

قال البيضاوي : قللهم فى أعينهم قبل التحام القتال ليجترءوا عليهم ولا يستعدوا لهم ، ثم كثّرهم حين رأوهم مثليهم لتفجأهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم ، وهذا من عظائم آيات اللّه فى تلك الوقعة ، فإن البصر ، وإن كان قد يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا ، لكن لا على هذا الوجه ولا إلى هذا الحد ، وإنما يتصور ذلك بصد اللّه الأبصار عن إبصار بعض دون بعض ، مع التساوي فى المرئي. هـ.

(٣٣٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣٥

وإنما فعل ذلك فى الجهتين لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا أي : ليظهر اللّه أمرا كان سبق به القضاء والقدر ، فكان مفعولا فى سابق العلم ، لا محيد عنه ، ومن شأن الحكمة إظهار الأسباب والعلل ، كما أن من شأن القدرة إبراز ما سبق فى الأزل ، وإنما كرره لاختلاف الفعل المعلل به لأن الأول علة لالتقائهم من غير ميعاد ، وهنا لتقليلهم فى أعين الكفرة ، أو للتنبيه على أن المطلوب من العبد هو النظر إلى سابق القدر ، ليخف عليه ما يبرز منه من الشدائد والأهوال ، ولذلك قال أثره : وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ، وإذا كانت الأمور كلها راجعة إلى اللّه تعالى فلا يسع العبد إلا الرضا والتسليم لكل ما

يبرز منها ، فكل ما يبرز من عند الحبيب حبيب. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأرواح والأسرار بالعدوة القريبة من بحر الحقائق ، ليس بينها وبينه إلا إظهار أدب العبودية ، وهو الذي بين بحر الحقيقة والشريعة ، والأنفس وسائر القواطع بالعدوة القصوى منه ، والقلب ، الذي هو الركب المتنازع فيه ، بينهما ، أسفل من الروح ، وفوق مقام النفس ، الروح تريد أن تجذبه إليها ليسكن الحضرة ، والنفس وجنودها تريد أن تميله إليها ليسكن وطن الغفلة معها ، والحرب بينهما سجال ، تارة ترد عليه الواردات الإلهية ، التي هى جند الروح ، فتنزل عليه بغتة من غير ميعاد ، فتجذبه إلى الحضرة.

وتارة ترد عليه الخواطر والهواجم الردية فتحطه إلى أرض الحظوظ بغتة ، ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا فى سابق علمه ، فإذا أراد اللّه عناية عبد قلّل عنه مدد الأغيار ، حتى يراها كلا شيء ، وقواه بمدد الأنوار حتى يغيب عنه كل شيء ، فتذهب عنه ظلمة الأغيار ، وإذا أراد اللّه خذلان عبد قطع عنه مدد الأنوار ، وقوى عليه مدد الأغيار ، حتى ينحط إلى الدرك الأسفل من النار ، والعياذ باللّه من سوء القضاء والقدر ، وإليه الإشارة بقوله : (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) الآية. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ما يقوى مدد الأنوار ، وهو الصبر والذكر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)

قلت : (بطرا ورئاء) : مصدران فى موضع الحال ، أي : بطرين ومراءين ، أو مفعول لأجله ، و(يصدّون) : عطف على (بطرا) على الوجهين ، أي : صادين ، أو للصد.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً جماعة من الكفار عند الحرب ، فَاثْبُتُوا للقائهم ، ولا تفروا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ فى تلك الحال سرا داعين له ، مستظهرين بذكره ، متوجهين لنصره ، معتمدين على حوله وقوته ، غير ذاهلين عنه بهجوم الأحوال وشدائد الأهوال إذ لا يذكر اللّه تعالى فى ذلك الحال إلا الأبطال من الرجال ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ بالظفر وعظيم النوال. قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن العبد ينبغى ألا يشغله شيء عن ذكر اللّه ، وأن يلتجيء إليه عند الشدائد ، ويقبل عليه بشراشره

«١» ، فارغ البال ، واثقا بأن لطفه لا ينفك عنه فى جميع الأحوال. هـ.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما يأمركم به وينهاكم عنه فإن الطاعة مفتاح الخيرات ، وَلا تَنازَعُوا باختلاف الآراء ، كما فعلتم فى شأن الأنفال ، فَتَفْشَلُوا وتجبنوا ، وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ أي : ريح نصركم بانقطاع دولتكم ، شبه النصر والدولة بهبوب الريح من حيث إنها تمشى على مرادها ، لا يقدر أحد أن يردها ، وقيل : المراد بها الريح حقيقة ، فإن النصرة لا تكون إلا بريح يبعثه اللّه من ناحية المنصور تذهب إلى ناحية المخذول. وفى الحديث : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدبور» «٢». وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ بالمعونة والكلاءة والنصر.

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ ، يعنى : أهل مكة ، خرجوا بَطَراً أي : فخرا وأشرا وَرِئاءَ النَّاسِ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسول أبى سفيان ، يقول لهم : ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل : لا واللّه حتى نأتى بدرا ، ونشرب بها الخمور ، وتغنى علينا القيان ، ونطعم بها من حضرنا من العرب ، فتسمع بنا سائر العرب ، فتهابنا ، فوافوها ، ولكن سقوا بها كأس المنايا ، وناحت عليهم النوائح مما نزل بهم من البلايا ، فنهى اللّه المؤمنين أن يكونوا أمثالهم بطرين مراءين ، وأمرهم أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص ، لأن النهى عن الشيء أمر بضده. وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : خرجوا ليصدوا الناس عن طريق اللّه ، باتباع طريقهم ، وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ فيجازيهم عليه.

الإشارة : خاطب اللّه المتوجهين إليه ، السائرين إلى حضرته ، وأمرهم بالثبوت ودوام السير ، وبالصبر ولزوم الذكر عند ملاقاة القواطع والشواغب ، وكل ما يصدهم عن طريق الحضرة ، وذلك بالغيبة عنه والاشتغال بالله عنه ،

---

(١) أي : بجملته ، واحده : شرشرة.

(٢) أخرجه البخاري فى (الاستسقاء – باب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «نصرت بالصبا») ومسلم فى (الاستسقاء – باب ريح الصباء والدبور).

عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

وعدم الإصغاء إلى خوضه وتكديره ، فمن صبر ظفر ، ومن دام على السير وصل ، وأمرهم أيضا بطاعة اللّه ورسوله ، ومن يدلهم على الوصول إليه ، ممن هو خليفة عنه فى أرضه ، وأمرهم بعدم المنازعة

والملاجحة ، فإن التنازع يوجب تفرق القلوب والأبدان ، ويوجب الفشل والوهن ، ويذهب بريح النصر والإعزاز ، كما أن الوفاق يوجب النصر ودوام العز.

ونهاهم عن التشبه بأهل الخوض والتكدير ، ممن أولع بالطعن والتنكير ، بل يكونون على خلافهم مخلصين فى أعمالهم وأحوالهم ، دالين على اللّه ، داعين إلى طريق اللّه ، يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، وهذه صفة أهل اللّه. نفعنا اللّه بذكرهم. آمين.

ثم ذكر الباعث على خروج الكفار لغزوة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٨]

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (٤٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ السيئة ، ومن جملتها : خروجهم إلى حربك بأن وسوس لهم ، وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ ، قيل : قال لهم ذلك مقالة نفسانية ، بأن ألقى فى روعهم ، وخيّل إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، لكثرة عددهم وعددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فى ذلك قربة مجيرة لهم من المكاره.

فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ أي : تلاقى الفريقان ، ورأى بعضهم بعضا ، نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ رجع القهقرى ، أي : بطل كيده ، وعاد ما خيل لهم أنه مجير لهم سبب هلاكهم ، وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ ، أي : تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من حالهم ، لمّا رأى إمداد المسلمين بالملائكة.

وقيل : إن هذه المقالة كانت حقيقة لسانية. روى أن قريشا ، لما اجتمعت على المسير إلى بدر ، ذكرت ما بينهم وبين بنى كنانة من العداوة ، فهموا بالرجوع عن المسير ، فمثل لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك الكناني ، وقال :

لا غالب لكم اليوم وإنى جار لكم ، وإنى مجيركم من بنى كنانة ، فلما رأى الملائكة تنزل نكص على عقبيه ، وكانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فقال له : إلى أين؟ أتخذلنا فى هذه الحالة؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون ، ودفع فى صدر الحارث ، فانطلق وانهزموا ، فلما بلغوا مكة ، قالوا : هزم النّاس سراقة ، فبلغه ذلك ، فقال : واللّه ما شعرت بسيركم حتى بلغني هزيمتكم! فلما أسلموا علموا أنه الشيطان.

(٣٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٣٨

وعلى هذا ، يحتمل أن يكون معنى قوله : إِنِّي أَخافُ اللَّهَ أي : أخاف أن يصيبنى مكروها من الملائكة

، أو يهلكني ، ويكون هذا الوقت هو الوقت الموعود ، إذ رأى فيه ما لم ير قبله. والأول : ما قاله الحسن ، واختاره ابن حجر. وقال الورتجبي : أي : إني أخاف عذاب اللّه ، وذلك بعد رؤية البأس ، ولا ينفع ذلك ، ولو كان متحققا في خوفه ما عصى اللّه طرفة عين. هـ.

وذكر ابن حجر عن البيهقي ، عن عليّ -كرم اللّه وجهه - ، قال : هبت ريح شديدة ، فلم أر مثلها ، ثم هبت ريح شديدة ، وأظنه ذكر ثالثة ، فكانت الأولى جبريل ، والثانية ميكائيل ، والثالثة إسرافيل ، وكان ميكائيل عن يمين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وفيها أبو بكر ، وإسرافيل عن يساره ، وأنا فيها.

وعن عليّ أيضا : قيل لي ولأبي بكر يوم بدر : مع أحدكما جبريل ، ومع الآخر ميكائيل ، وإسرافيل ملك عظيم يحضر الصف ويشهد القتال. انتهى.

وقوله تعالى : وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ ، يجوز أن يكون من كلام إبليس ، وأن يكون مستأنفا.

الإشارة : عادة الشيطان مع العوام أن يغريهم على الطعن والإنكار على أولياء اللّه ، وإيذائهم لهم ، فإذا رأى غيرة اللّه على أوليائه نكص على عقبيه ، وقال : إني منكم بريء إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف اللّه ، واللّه شديد العقاب.

ثم ذكر مقالة المنافقين في شأن المسلمين ، حيث خرجوا لغزوة بدر ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٤٩]

إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله : واذكروا إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ من أهل المدينة ، أو نفر من قريش كانوا أسلموا وبقوا بمكة ، فخرجوا يوم بدر مع الكفار ، منهم : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن ربيعة بن الأسود ، وعلى بن أمية بن خلف ، وَهم الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي : شك لم تطمئن قلوبهم ، بل بقي فيها شبهة ، قالوا : غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ أي : اغتر المسلمون بدينهم ، فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به ، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف. فأجابهم الحق تعالى بقوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ أي : غالب لا يذل من استجار به ، وإن قلّ ، حَكِيمٌ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ، ويعجز عن دركه الفهم.

الإشارة : إذا عظم اليقين في قلوب أهل التقى أقدموا على أمور عظام ، تستغرب العادة إدراكها ، أو يغلب العطب فيها ، فيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : غرّ هؤلاء طريقتهم ، ومن يتوكل على اللّه فإن اللّه عزيز

لا يغلب ، ولا يغلب من انتسب إليه ، وتوكل فى أموره عليه ، حكيم فلا يخرج عن حكمته وقدرته شيء ، أو عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ به ، والتجأ إلى ذّماره «١» ، حكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، قاله فى الإحياء. ثم قال : وكل ما ذكر فى القرآن من التوحيد هو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار ، والتوكل على الواحد القهار. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر عاقبة أهل النفاق والريب ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٠ الى ٥١]

وَلَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)

قلت : جواب (لو) محذوف ، أي : لرأيت أمرا عظيما ، و(الملائكة) : فاعل (يتوفى) فلا يوقف على ما قبله ، ويرجحه قراءة ابن عامر بالتاء ، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير (اللّه) ، و(الملائكة) : مبتدأ ، و(يضربون) : خبر ، والجملة : حال من (الذين كفروا) ، والرابط : ضمير الواو ، وعلى هذا فيوقف على ما قبله ، وعلى الأول (يضربون) :

حال من الملائكة ، و(ذوقوا) : عطف على (يضربون) على حذف القول ، أي : ويقولون ذوقوا.

و(ذلك) : مبتدأ ، و(بما قدمت) : خبر ، و(أن اللّه) : عطف على «ما» للدلالة على أن مقيدة بانضمامه إليه. انظر البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو يا من تصح منكم الرؤية ، حال الَّذِينَ كَفَرُوا حين تتوفاهم الْمَلائِكَةُ ببدر ، أو مطلقا ، وهم يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ، أو حين يتوفاهم اللّه ويقبض أرواحهم ، حال كونهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، أي : يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ، فيعمونهم بالضرب ، أو يضربون وجوههم وظهورهم ، أو أستاههم ، لرأيت أمرا فظيعا. وَيقولون لهم : ذُوقُوا أي :

باشروا عَذابَ الْحَرِيقِ يوم القيامة بشارة لهم بما يلقون من العذاب فى الآخرة. وقيل : تكون معهم مقامع من حديد ، كلما ضربوا التهبت النار منها ، ذلِكَ العذاب إنما وقع بكم بِما بسبب قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ أي : بما كسبتم من الكفر والمعاصي ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ حتى يعذب بلا سبب ، أو يهمل العباد بلا جزاء.

الإشارة : قد ذكر الحق جل جلاله حال الكاملين فى العصيان فى هذه الآية ، وذكر فى سورة النحل الكاملين فى الطاعة ، بقوله الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ ... الآية «٢» وسكت عن المخلطين ، ولعلهم يرون طرفا من هذا أو طرفا من هذا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الدّمار : الحوزة والحرم والأهل .. انظر : اللسان (ذمر).
(٢) الآية ٣٢ من سورة النحل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٠
ثم ذكر حال المتقدمين من الجبابرة ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٢ الى ٥٤]
كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (٥٢) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (٥٤)
قلت : (كدأب) : خبر عن مضمر ، أي : دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ، وهو عملهم وطريقتهم ، التي دأبوا فيها ، أي : داموا عليها ، (ذلك) : مبتدأ ، و(بأنّ اللّه) : خبر ، وقال سيبويه : خبر ، أي : الأمر ذلك ، والفاء سببية.
يقول الحق جل جلاله : عادة هؤلاء الكفرة العاصين المعاصرين لك ، فى استمرارهم على الكفر والمعاصي ، كعادة آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مضوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، ثم فسر دأبهم فقال : كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ الدالة على توحيده ، المنزلة على رسله ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ كما أخذ هؤلاء ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ لا يغلبه فى دفعه شيء.
ذلِكَ العذاب الذي حل بهم ، بسبب ذنوبهم وكفرهم لأن اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ فيبدلها بالنقمة ، حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ أي : حتى يبدلوا ما بأنفسهم ، من حال الشكر إلى حال الكفر ، أو من حال الطاعة إلى حال المعصية ، كتغيير قريش حالهم : من صلة الرحم ، والكف عن التعرض لإيذاء الرسول ومن تبعه ، بمعاداة الرسول ، والسعي فى إراقة دم من تبعه ، والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها ، إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما يقولون ، عَلِيمٌ بما يفعلون.
دأبهم فى ذلك التغيير كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ لمّا بدلوا وغيّروا ، ولم يشكروا ما بأيديهم من النعم ، وَكُلٌّ من الفرق المكذبة كانُوا ظالِمِينَ فأغرقنا آل فرعون ، وقتلنا صناديد قريش بظلمهم ، وما كنا ظالمين.
الإشارة : إذا أنعم اللّه على قوم بنعم ظاهرة أو باطنة ، ثم لم يشكروا اللّه عليها ، بل قابلوها بالكفران ، وبارزوا المنعم بالذنوب والعصيان ، فاعلم أن اللّه تعالى أراد أن يسلبهم تلك النعم ، ويبدلها بأضدادها

من النقم ، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها ، ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها. فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، فمن أعطى ولم

(٣٤٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤١

يشكر ، سلب منها ولم يشعر ، والشكر : ألا يعصى اللّه بنعمه ، كما قال الجنيد رضى اللّه عنه. واللّه تعالى أعلم ومن جملة كفران النعم ، نقض العهد ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩)

قلت : (فهم لا يؤمنون) : جملة معطوفة على جملة الصلة ، والفاء للتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعى تحقق المعطوف ، و(الذين عاهدت) : بدل بعض من (الذين كفروا) ، و(فشرد) : جواب (إما) ، والتشريد : تفريق على اضطراب.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ منزلة الَّذِينَ كَفَرُوا ، تحقق كفرهم ، وسبق به القدر ، فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أبدا لما سبق لهم من الشقاء. نزلت فى قوم مخصوصين ، وهم بنو قريظة ، الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ أي : أخذت عليهم العهد ألا يعاونوا عليك الكفار ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أي : يخونون عهدك المرة بعد المرة ، فأعانوا المشركين بالسلاح يوم أحد ، وقالوا : نسينا ، ثم عاهدهم ، فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق ، وركب كعب بن الأشرف فى ملأ منهم إلى مكة ، فحالفوا المشركين على حرب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فخرج إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقتل مقاتلتهم وسبا ذراريهم ، وَهُمْ لا يَتَّقُونَ شؤم الغدر وتبعته ، أو : لا يتقون اللّه فى ذلك الغدر ونصرته للمؤمنين وتسليطه إياهم عليهم.

قال تعالى لنبيه عليه الصلاة السلام : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ أي : مهما تصادفهم وتظفر بهم فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ أي : فرّق عنك من يناصبك بسبب تنكيلهم وقتلهم ، أو نكّل بهم مَنْ خَلْفَهُمْ بأن تفعل بهم من النقمة ما يزجر غيرهم لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أي : لعل من خلفهم يتعظون فينزجروا عن حربك.

وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ معاهدين خِيانَةً أي : نقض عهد بأمارات تلوح لك ، فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ أي : فاطرح إليهم عهدهم عَلى سَواءٍ أي : على عدل وطريق قصد فى العداوة ، ولا تناجزهم بالحرب قبل

العلم بالنبذ ، فإنه يكون خيانة منك ، أو على سواء فى العلم بنقض العهد ، فتستوي معهم فى العلم بنقض العهد ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ أي : لا يرضى فعلهم ، وهو تعليل للأمر بالنبذ والنهي عن مناجزة القتال المدلول عليه بالحال.

(٣٤١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٢

وَلا يَحْسَبَنَّ ، يا محمد ، الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا قدرتنا ، ونجوا من نكالنا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ أي : لا يفوتون فى الدنيا والآخرة ، فلا يعجزون قدرتنا ، أو لا يجدون طالبهم عاجزا عن إدراكهم ، بل اللّه محيط بهم أينما حلوا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : شرف الإنسان وكماله فى خمسة أشياء : الإيمان باللّه ، وبسائر ما يتوقف الإيمان عليه ، والوفاء بالعهود ، والوقوف مع الحدود ، والرضى بالموجود ، والصبر على المفقود. وذله وخسته فى خمسة أشياء : الكفر والجحود ، ونقض العهود ، وتعدى الحدود ، وعدم الرضى بالموجود ، والجزع على المفقود.

وقال القشيري فى قوله تعالى : فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ... الآية : أي : إن صادفت واحدا من هؤلاء الذين دأبهم نقض العهد ، فاجعلهم عبرة لمن يأتي بعدهم ، لئلا يسلكوا طريقهم ، فيستوجبوا عقوبتهم. كذلك من فسخ عقده مع اللّه بقلبه ، برجوعه إلى رخص التأويلات ، ونزوله إلى السكون مع العادات ، يجعله اللّه نكالا لمن بعده ، بحرمان ما كان خوّله وتنغيصه عليه. ثم قال عند قوله : وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً : يريد ، إذا تحقّقت خيانة قوم منهم ، فصرّح بأن لا عهد بينك وبينهم ، فإذا حصلت الخيانة زال سمت الأمانة ، وخيانة كل أحد على ما يليق بحاله. هـ.

ثم أمر بالاستعداد للحرب لمن نقض العهد ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٦٠]

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَأَعِدُّوا لَهُمْ ، أي : لناقضى العهد ، أو لمطلق الكفار ، مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، أي : ما قدرتم عليه من كل ما يتقوى به فى الحرب. وعن عقبة بن عامر ، قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول على المنبر : «ألا إنّ القوة الرّمى» «١» قالها ثلاثا ، ولعله عليه الصلاة والسلام خصه بالذكر لأنه أعظم القوى ، وَأعدوا لهم أيضا مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ أي : من الخيل المربوطة للجهاد ، وهو اسم للخيل التي تربط فى سبيل اللّه ، بمعنى مفعول ، أو مصدر ، أو جمع ربيط كفصيل

وفصال.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإمارة – باب فضل الرمي) عن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه.

(٣٤٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٣

والمراد : الحث على استعداد الخيل العتاق التي تربط وتعلف بقصد الجهاد ، وهو من جملة القوة ، فهو من عطف الخاص على العام ، للاعتناء بأمر الخيل لما فيها من الإرهاب. ولذلك قال : تُرْهِبُونَ بِهِ أي : تخوفون بذلك الأعداء ، أو بما ذكر من الخيل المربوطة ، عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، يعنى : كفار مكة ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ أي : من غيرهم من الكفرة ، كفارس والروم وسائر الكفرة ، لا تَعْلَمُونَهُمُ أي : لا تعرفونهم اليوم ، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وسيمكنكم منهم ، فتقاتلونهم وتملكون ملكهم ، وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فى شأن الاستعداد وغيره مما يستعان به على الجهاد ، يُوَفَّ إِلَيْكُمْ جزاؤه ، وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ بتضييع عمل أو نقص أجر ، بل يضاعفه لكم أضعافا كثيرة ، بسبعمائة أو أكثر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : وأعدوا ، لجهاد القواطع والعلائق التي تعوقكم عن الحضرة ، ما استطعتم من قوة ، وهو العزم على السير من غير التفات ، ومن رباط القلوب فى حضرة الحق ، ترهبون به عدو اللّه ، وهو الشيطان ، وعدوكم ، وهى النفس ، وآخرين من دونهم : الحظوظ واللحوظ وخفايا خدع النفوس ، لا تعلمونهم ، اللّه يعلمهم كالرياء والشرك الخفي ، فإنه يدب دبيب النمل ، وما تنفقوا من شيء يوف إليكم أضعافا مضاعفة ، بالعز الدائم والغنى الأكبر ، وأنتم لا تظلمون.

وقال الورتجبي : أعلم اللّه المؤمنين والعارفين استعداد قتل أعداء اللّه ، وسمى آلة القتال بقوة ، وتلك القوة قوة الإلهية ، التي لا ينالها العارف من اللّه إلا بخضوعه بين يديه ، بنعت الفناء فى جلاله ، فإذا كان كذلك يلبسه اللّه لباس عظمته ونور كبريائه وهيبته ، ويغريه إلى الدعاء عليهم ، ويجعله منبسطا ، حتى يقول فى سره : إلهى خذهم ، فيأخذهم بلحظة ، ويسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه ، ويسلى قلب وليه بتفريجه من شرور معارضيه ومنكريه ، وذلك سهم رمى نفوس الهمة عن كنانة الغيرة ، كما رمى نبى اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إلى منكريه حين قال : «شاهت الوجوه» ، وهذا الرمي من اللّه بقوله : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ رَمى .

سمعت أن ذا النون المصري رضى اللّه عنه كان فى غزو ، وغلب المشركون على المؤمنين ، فقيل له : لو دعوت اللّه ، فنزل عن دابته وسجد ، فهزم المشركون فى لحظة ، وأخذوا جميعا ، وأسروا ، وقتلوا.

وأيضا : وأعدوا : أي : اقتبسوا من اللّه قوة من قوى صفاته لنفوسكم حتى يقويكم فى محاربتها. قال أبو على الروذبارى ، فى قوله : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ، فقال : القوة هى الثقة بالله ، قيل ظاهر الآية : إنه الرمي بسهام القسي. وفى الحقيقة : رمى سهام الليالى فى الغيب بالخضوع والاستكانة ، ورمى القلب إلى الحق معتمدا عليه ، راجعا إليه عما سواه. هـ.

(٣٤٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٤

ثم بيّن أن المعول على اللّه ونصرته ، لا على السلاح والآلات بقوله : هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، أي :

قواك بقوته الأزلية ، ونصرك بنصرته الأبدية ، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك. ثم بيّن سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم ، وجمعها على محبة اللّه ومحبة رسوله ، بعد تباينها بتفرقة الهموم فى أودية الامتحان ، بقوله : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ. وقال القشيري : الإشارة بقوله : تُرْهِبُونَ : إلى أنه لا يجاهد على رجاء غنيمة ينالها ، أو إشفاء صدر عن قضية حقد ، بل قصده أن تكون كلمة اللّه هى العليا. هـ.

ثم دلّ على الصلح لمصلحة ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ أي : وإن مالوا للصلح فَاجْنَحْ لَها أي : فصالحهم ، ومل إلى المعاهدة معهم ، وتوكل على اللّه فلا تخف منهم أن يكونوا أبطنوا خداعا فإن اللّه يعصمك من مكرهم وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «١» ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم ، الْعَلِيمُ بأحوالهم.

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ بعد الصلح فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ أي : فحسبك اللّه وكافيك شرهم ، هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ أي : قواك ونصرك بِنَصْرِهِ تحقيقا ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ تشريفا ، أو بِنَصْرِهِ قدرة وَبِالْمُؤْمِنِينَ حكمة ، والقدرة والحكمة منه وإليه ، فلا دليل عليه للمعتزلة حيث نسبوا الفعل للعبد ، وقالوا : العطف يقتضى المغايرة.

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ مع ما كان فيها فى زمن الجاهلية من المعصية والضغائن والتهالك على الانتقام ، حتى لا يكاد يأتلف فيهم قلبان ، ثم صاروا كنفس واحدة ، وهذا من معجزاته صلّى اللّه عليه وسلّم. قال تعالى : لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ، فى إصلاح ما بينهم ، ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لتناهى عدواتهم

إلى حد لو أنفق منفق فى إصلاح

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة فاطر. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٥

ذات بينهم ما فى الأرض من الأموال لم يقدر على الألفة بينهم ، وَلكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ بقدرته البالغة فإنه المالك للقلوب يقلبها كيف يشاء. إِنَّهُ عَزِيزٌ تام القدرة ، لا يعصى عليه ما يريده ، حَكِيمٌ يعلم كيف ينبغى أن يفعل ما يريده.

قيل : إن الآية نزلت فى الأوس والخزرج ، كان بينهم إحن وضغائن لا أمد لها ، ووقائع هلكت فيها ساداتهم ، فأنساهم اللّه ذلك ، وألفّ بينهم بالإسلام ، حتى تصادقوا وصاروا أنصار الدين. وبالله التوفيق.

الإشارة : وإن مالت النفس وجنودها إلى الصلح مع صاحبها بأن ألقت السلاح ، ومالت إلى فعل كل ما فيه خير وصلاح ، وعقدت الرجوع عن هواها ، والدءوب على طاعة مولاها ، فالواجب عقد الصلح معها ، وتصديقها فيما تأمر به أو تنهى عنه ، مما يرد عليها ، مع التوكل على مولاها ، فإن خدعت بعد ذلك ، أو رجعت إلى مألوفها ، فالله يكفى أمرها ، ويقوى صاحبها على ردها ، إما بسبب شيخ كامل ، أو أخ صالح ، فإن الصحبة فيها سر كبير ، لا سيما مع أهل الصفاء ، الذين صفت قلوبهم ، وألف اللّه بينهم بالمحبة والوداد ، وحسن الظن والاعتقاد ، وإما بسابق عناية ربانية وقوة إلهية. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالاكتفاء بالله وعدم الالتفات إلى ما سواه ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٦٤]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)

قلت : (حسبك) : مبتدأ ، و(اللّه) : خبر ، ويصح العكس ، و(من اتبعك) : إما عطف على (اللّه) ، أي : كفاك اللّه والمؤمنون ، أو فى محل نصب على المفعول معه ، أو فى محل جر عطف على الضمير ، على مذهب الكوفيين ، أي : حسبك وحسب من اتبعك اللّه ، والأول : أصح.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ أي : كافيك اللّه ، فلا تلتفت إلى شىء سواه ، أي : لمّا مننت عليك بائتلاف قلوب المؤمنين فى نصرتك ، فلا تلتفت إليهم فى محل التوحيد ، فإنى حسبك وحدي بغير معاونة الخلق ، فينبغى أن تفرد القدم عن الحدوث فى سيرك منى إلىّ ، وأنا حسب المؤمنين عن كل ما دونى ، وإن كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، ولا ينبغى فى حقيقة التوحيد النظر إلى

غيرى ، وإنما أيدتك بواسطة المؤمنين ، وذكرتهم معى تشريفا لأمتك ، وسترا لقدرتى ، وإظهارا لكمال حكمتى ، وإلا فقدرتى لا يفوتها شيء ، ولا تتوقف على شيء «جل حكم الأزل أن يضاف إلى العلل».

قال البيضاوي : نزلت الآية تأييدا فى غزوة بدر ، وقيل : أسلم مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ، ثم أسلم عمر رضى اللّه عنه ، فنزلت. ولذلك قال ابن عباس – رضى اللّه عنهما – : نزلت فى إسلامه.

(٣٤٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٦

الإشارة : ما خوطب به النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يخاطب به ورثته الكرام ، من الاكتفاء باللّه وعدم الالتفات إلى ما سواه ، وتصحيح عقد التوحيد ، والاعتماد على الكريم المجيد. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمره بالتحريض على الجهاد ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦٥ الى ٦٦]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

قلت : التحريض : هو الحث على الشيء والمبالغة فى طلبه ، وهو من الحرض ، الذي هو الإشفاء على الهلاك.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ أي : حثهم عَلَى الْقِتالِ أي : الجهاد. ثم أمرهم بالصبر والثبات للعدو بقوله : إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وهذا خبر بمعنى الأمر ، أي : يقاتل العشرون منكم المائتين ، والمائة الألف ، وليثبتوا لهم ، ولا يصح أن يكون خبرا محضا إذ لو كان خبرا محضا لما تخلف فى الواقع ، ولو فى جزئية إذ خبره تعالى لا يخلف.

قال الفخر الرازي : حسن هذا التكليف لما كان مسبوقا بقوله : حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلا لأن من تكفل اللّه بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إذايته. هـ.

وإنما كان القليل من المؤمنين يقاوم الكثير من الكفار بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ، أي : لأنهم جهلة باللّه واليوم الآخر ، فلا يثبتون ثبات المؤمنين ، رجاء الثواب والترقي فى الدرجات ، قتلوا أو ماتوا

، بخلاف الكفار فلا يستحقون من اللّه إلا الهوان والخذلان.
ولمّا كلفهم بهذا فى أول الإسلام ، وشقّ ذلك عليهم ، خفف عنهم فقال : الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فلا يقاوم الواحد منكم العشرة ، ولا المائة الألف ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ،

(٣٤٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٤٧
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ
أمرهم بمقاومة الواحد لاثنين. وقيل : كان فيهم قلة ، فلما كثروا خفف عنهم ، وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد ، والضعف :
ضعف البدن ، لا ضعف القلب.
قال بعض الصحابة – رضي اللّه عنهم – : لما نزل التخفيف ذهب من الصبر تسعة أعشار ، وبقي العشر. ولذلك قال تعالى هنا : وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ، أي : بالنصر والمعونة ، فكيف لا يغلب من يقاومهم ولو كثر عدده؟.
الإشارة : ينبغى لأهل التذكير أن يحرضوا الناس على جهاد نفوسهم ، الذي هو الجهاد الأكبر ، وإنما كان أكبر لأن العدد الحسى يقابلك وتقابله ، بخلاف النفس فإنها جاء تحت الرماية خفية عدو حبيب ، فلا يتقدم لجهادها إلا الرجال ، فينبغى للشيوخ أن يحضوا المريدين على جهادها ، ويهونوا لهم شأنها فإنّ النفس لا يهول أمرها إلا قبل رمى اليد فيها ، فاذا رميت يدك فيها بالعزم على قتلها ضعفت ولانت ، وسهل علاجها ، وإذا خفت منها ، وسوّفت لها ، طالت عليك وملكتك. ولا بد فى جهادها من شيخ يريك مساوئها ، ويعينك بهمته على قتلها ، وإلّا بقيت فى العنت معها ، والشغل بمعاناتها حتى تموت بلا حصول نتيجة جهادها ، وهى المعرفة بسيدها وخالقها. واللّه تعالى أعلم.
ثم عاتبهم على أخذ الفداء من الأسارى ، فقال :
[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٦٧ الى ٦٩]
ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)
يقول الحق جل جلاله : ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى يقبضها حَتَّى يُثْخِنَ أي : يبالغ فِي الْأَرْضِ بالقتل حتى يذل الكفر ويقل حزبه ، ويعز الإسلام ويستولى أهله. تُرِيدُونَ بقبض الأسارى عَرَضَ الدُّنْيا حطامها

بأخذ الفداء منهم ، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ أي : يريد لكم ثواب الآخرة ، الذي يدوم ويبقى ، أو يريد سبب نيل الآخرة من إعزاز دينه وقمع أعدائه ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ يغلب أولياءه على أعدائه ، حَكِيمٌ يعلم ما يليق بكمال حالهم ويخصهم بها ، كما أمر بالإثخان ، ومنع من أخذ الفداء حين كانت الشوكة للمشركين ، وخيّر بينه وبين المنّ لما تحولت الحال ، وصارت الغلبة للمؤمنين.

روى أنه عليه الصلاة والسلام أتى يوم بدر بسبعين أسيرا ، فيهم العبّاس وعقيل بن أبى طالب. فاستأذن فيهم فقال أبو بكر رضى اللّه عنه : قومك وأهلك ، استبقهم ، لعلّ اللّه يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوّى بها أصحابك. وقال عمر

رضى اللّه عنه : اضرب أعناقهم ، فإنهم أئمّة الكفر ، وإنّ اللّه أغناك عن الفداء ، فمكّنى من فلان – لنسيب له – ومكّن عليّا وحمزة من أخويهما ، فلنضرب أعناقهم ، فلم يهو ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقال : «إنّ اللّه ليلين قلوب رجال حتّى تكون ألين من كل لين ، وإنّ اللّه ليشدّد قلوب رجال حتّى تكون أشدّ من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «١» ، ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً» «٢». فخيّر أصحابه ، فأخذوا الفداء ، فنزلت ، فدخل عمر رضى اللّه عنه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقال : يا رسول اللّه : أخبرنى ، فإن أجد بكاء بكيت ، وإلا تباكيت؟ فقال : «أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء ، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» «٣» لشجرة قريبة.

والآية دليل على أن الأنبياء – عليهم السلام – يجتهدون ، وإنه قد يكون الخطأ ، ولكن لا يقرون عليه. قاله البيضاوي. قال القشيري : أخذ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم بدر منهم الفداء ، وكان ذلك جائزا لوجوب العصمة ، ولكن لو قتلهم كان أولى. هـ. وقال ابن عطية : إنما توجه العتاب للصحابة على استبقاء الرجال دون قتلهم ، لا على الفداء لأن اللّه تعالى قد كان خيّرهم ، فاختاروا الفداء على أن يقتل منهم سبعين ، كما تقدم فى سورة آل عمران «٤». ثم قال :

والنبي عليه الصلاة والسلام خارج عن ذلك الاستبقاء. انظر تمامه فى الحاشية.

فإن قلت : إذا كان الحق تعالى خيّرهم فكيف عاتبهم ، وهم لم يرتكبوا محظورا؟ فالجواب : أن العتاب تابع لعلو المقام ، فالخواص يعاتبون على المباح ، إن كان فعله مرجوحا ، والحق تعالى إنما عاتبهم على رغبتهم فى أمر دنيوى ، وهو الفداء ، حتى آثروا قتل أنفسهم على أخذه ، ويدل عليه قوله : تُرِيدُونَ

عَرَضَ الدُّنْيا ، وهذا إنما كان فى بعضهم ، وجلهم إنما اختاروا الفداء استبقاء لقرابة الرسول عليه الصلاة والسلام. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى فى تمام عتابهم : لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ أي : لو لا حكم اللّه سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو ألا يعاقب المخطئ فى اجتهاده ، أو أنه سيحل لكم الغنائم ، أو ما سبق فى الأزل من العفو عنكم ، لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ من الفداء أو من الأسارى ، عَذابٌ عَظِيمٌ. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال ، حين نزلت :

«لو نزل العذاب ما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ» وذلك لأنه أيضا أشار بالإثخان.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٢٦ من سورة نوح.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٨٣) والترمذي ببعض الاختصار فى (تفسير سورة الأنفال) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي فى (المغازي ، ٣/ ٢١) وكذلك أخرجه البيهقي فى الدلائل (٣/ ١٣٨) كلهم عن ابن مسعود. وأخرجه بنحوه مسلم فى (الجهاد – باب الإمداد بالملائكة) من حديث ابن عباس عن سيدنا عمر – رضى اللّه عن الجميع.

(٤) عند تفسير قوله تعالى : (أ ولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) الآية ١٦٥.

ثم أباح لهم الغنائم وأخذ الفداء فقال : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ من الكفار ، ومن جملته : الفدية ، فإنها من الغنائم ، حَلالًا طَيِّباً أي : أكلا حلالا ، وفائدته : إزاحة ما وقع فى نفوسهم بسبب تلك المعاتبة ، أو حرمتها على المتقدمين. روى أنه لما عاتبهم أمسكوا عنها حتى نزلت : فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ، ووصفه بالطيب تكسينا لقلوبهم ، وزيادة فى حليتها. وفي الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلى : أحلّت لى الغنائم ، ونصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأعطيت الشّفاعة ، وخصصت بجوامع الكلم» «١». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى : وَاتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفته إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أي : يغفر لكم ما فرط ، ويرحمكم بإباحة ما حرم على غيركم توسعة عليكم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما ينبغى للفقير المتوجه أن يكون له أتباع يتصرف فيهم ويستفيد منهم ، عوضا عن الدنيا ،

حتى يبالغ فى قتل نفسه وتموت ، ويأمن عليها الرجوع إلى وطنها من حب الرئاسة والجاه ، أو جمع المال ، والتمتع بالحظوظ ، فإن تعاطي ذلك قبل موت نفسه كان ذلك سبب طرده ، وتعجيل العقوبة له ، حتى إذا تداركه اللّه بلطفه ، وسبقت له عناية من ربه ، فيقال له حينئذ : لو لا كتاب من اللّه سبق لمسك فيما أخذت عذاب عظيم.

ثم بشّر الأسارى بخلف ما أخذ منهم من الفداء بأكثر منه ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧٠ الى ٧١]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

قلت : (أسرى) : جميع أسير ، ويجمع على أسارى. وقرىء بهما ، و(خيرا مما) : اسم تفضيل ، وأصله : أخير ، فاستغنى عنه بخير ، وكذلك شر أصله : أشر ، قال فى الكافية :

وغالبا أغناهم خير وشر عن قولهم : أخير منه وأشر.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى الذين أخذتم منهم الفداء : إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً أي : إيمانا وإخلاصا يكون فى المستقبل ، يُؤْتِكُمْ خَيْراً أي : أفضل وأكثر مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ من الفداء.

---

(١) أخرجه البخاري فى (أول كتاب التيمم) ومسلم فى (المساجد) من حديث جابر بن عبد اللّه – بلفظ : «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة» بدل : «وخصصت بجوامع الكلم» ، وقد جاءت هذه العبارة بنحوها فى رواية عند مسلم عن أبى هريرة ، وفيها : (فضلت على الأنبياء بست) وساق الخمس السابقة.

روى أنها نزلت فى العباس رضى اللّه عنه كلّفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يفدى نفسه ، وابني أخويه : عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، فقال : يا محمد تركتنى أتكفف قريشا ما بقيت ، فقال له عليه الصلاة والسلام : وأين الذهب الذي دفعته لأمّ الفضل وقت خروجك ، وقلت لها : لا أدرى ما يصيبنى فى وجهي هذا ، فإن حدث بي حدث فهو لك ، ولعبد اللّه ، وعبيد اللّه والفضل ، وقثم ، قال له وما يدريك؟ قال : أخبرنى به ربى تعالى ، قال : فأشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا اللّه ، وأنك

رسول اللّه ، واللّه لم يطلع عليه أحد إلا اللّه ، ولقد دفعته إليها فى سواد اللّيل.
قال العباس : فأبدلني اللّه خيرا من ذلك ، أعطانى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من المال الذي قدم من البحرين ما لم أقدر على حمله ، ولى الآن عشرون عبدا ، إن أدناهم يضرب – أي : يتجر – فى عشرين ألفا ، وأعطانى زمزم ، ما أحب أنّ لى بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم ، يعنى : الموعود بقوله تعالى : (يغفر لكم واللّه غفور رحيم) «١».
وَإِنْ يُرِيدُوا الأسارى خِيانَتَكَ بنقض ما عهدوك به ، فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ بالكفر والمعاصي فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وأمكنك من ناصيتهم ، فقبضوا وأسروا ببدر ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ لا يخفى عليه شيء ، حَكِيمٌ فيما دبر وأمضى.
الإشارة : يقال للفقراء المتوجهين إلى اللّه ، الذين بذلوا أموالهم ومهجهم ، وقتلوا نفوسهم فى طلب محبوبهم :
إن يعلم اللّه فى قلوبكم خيرا ، كصدق وإخلاص ، يؤتكم أفضل مما أخذ منكم ، من ذبح النفوس وحط الرؤوس ودفع الفلوس. وهو الغناء الأكبر ، والسر الأشهر ، الذي هو الفناء فى اللّه ، والغيبة عما سواه ، وثمرته : المشاهدة التي تصحبها المكالمة ، وهذا هو الإكسير والغنا الكبير ، فكل من باع نفسه فى طلب هذا فقد ربحت صفقته وزكت تجارته ، مع غفران الذنوب ، وتغطية المساويء والعيوب. وباللّه التوفيق.
ثم بيّن فضائل المهاجرين والأنصار ، ومنزلة من آمن ولم يهاجر ، والذين هاجروا بعد الحديبية ، تتميما للتحريض على الجهاد ، فبدأ أولا بالمهاجرين والأنصار ، فقال :

---

(١) أخرجه الحاكم فى (المستدرك ٣/ ٣٢٤) وصححه على شرط مسلم وأقره الذهبي – والطبري فى تفسير الآية ، عن السيدة عائشة رضى اللّه عنها.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا أوطانهم فى الخروج مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، لنصرة الدين بالجهاد ، وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ فصرفوها فى الإعداد للجهاد ، كالكراع والسلاح ، وأنفقوها على المجاريح ، وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بمباشرة القتال ، وَالَّذِينَ آوَوْا رسول اللّه ومن هاجر معه ، وواسوهم بأموالهم ، وَنَصَرُوا دين اللّه ورسوله ، أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ فى التعاون والتناصر ، أو فى الميراث.

وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة ، دون الأقارب ، حتى نسخ بقوله : وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ «١».

ثم ذكر من لم يهاجر فقال : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ لا فى النصرة ، ولا فى الميراث ، حَتَّى يُهاجِرُوا إليكم ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ على المشركين فِي إظهار الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ أي : فواجب عليكم نصرهم وإعانتهم ، لئلا يستولى الكفر على الإيمان ، إِلَّا عَلى قَوْمٍ كان بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عهد ومِيثاقٌ ، فلا تنقضوا عهدهم بنصرهم ، فإن الخيانة ليست من شأن أهل الإيمان. وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لا يخفى عليه من أوفى ومن نقض.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ فى الميراث. ويدل بمفهومه ، على منع التوارث والمؤازرة بينهم وبين المسلمين. إِلَّا تَفْعَلُوهُ أي : إلا تفعلوا ما أمرتم به من موالاة المؤمنين ونصرتهم ، أو نصرة من استنصر بكم ممن لم يهاجر ، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ باستيلاء المشركين على المؤمنين ، وَفَسادٌ كَبِيرٌ بإحلال المشركين أموال المؤمنين وفروجهم ، أو : إلّا تفعلوا ما أمرتم به من حفظ الميثاق ، تكن فتنة فى الأرض ، فلا يفى أحد بعهد أبدا ، وفساد كبير بنهب الأموال والأنفس.

الإشارة : أهل التجريد ، ظاهرا وباطنا ، هم الذين آمنوا وهاجروا حظوظهم ، وجاهدوا نفوسهم بسيوف المخالفة ، وآووا من نزل أو التجأ إليهم من إخوانهم أو غيرهم ، أو آووا أشياخهم وقاموا بأمورهم ، ونصروا الدين بالتذكير

---

(١) الآية ٦ من سورة الأحزاب.

والإرشاد والدلالة على اللّه ، أينما حلوا من البلاد ، أولئك بعضهم أولياء بعض فى العلوم والأسرار ، وكذلك فى الأموال. فقد قال بعض الصوفية : (الفقراء : لا رزق مقسوم ، ولا سر مكتوم). وهذا فى حق أهل الصفاء من المتحابين فى اللّه.

والذين آمنوا ولم يهاجروا هم أهل الأسباب من المنتسبين ، قد نهى اللّه عن موالاتهم فى علوم الأسرار وغوامض التوحيد لأنهم لا يطيقون ذلك لشغل فكرتهم بالأسباب أو بالعلوم الرسمية ، نعم ، إن وقعوا فى شبهة أو حيرة ، وجب نصرهم بما يزيل إشكالهم ، لئلا تقع بهم فتنة أو فساد كبير فى اعتقادهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم أثنى على المهاجرين والأنصار ، فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧٤]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)

قال البيضاوي : لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام ، – أي : مهاجرين ، وأنصار ، ومن آمن ولم يهاجر – بيّن أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم ، بتحصيل مقتضاه من الهجرة ، والجهاد ، وبذل المال ، ونصرة الحق ، ووعد لهم الوعد الكريم ، فقال : لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ لا تبعة له ، ولا فتنة فيه. ثم ألحق بهم فى الأمرين من يلتحق بهم ويتسم بسمتهم فقال :

[سورة الأنفال (٨) : آية ٧٥]

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

أي : من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار. هـ.

ثم نسخ الميراث المتقدم ، فقال :

وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ يقول الحق جل جلاله وَأُولُوا الْأَرْحامِ من قرابة النسب ، بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فى التوارث من الأجانب ، وظاهره : توريث ذوى الأرحام ، كالخال والعمة وسائر ذوى الأرحام ، وبه قال أبو حنيفة ، ومنعه مالك ، ورأى أن الآية منسوخة بآية المواريث التي فى النساء ، أو يراد بالأولية : غير الميراث ، كالنصرة وغيرها. وقوله : فِي كِتابِ اللَّهِ أي : فى القرآن ، أو اللوح المحفوظ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ من أمر المواريث وغيرها ، أو عليم بحكمة إناطتها بنسبة الإسلام والمظاهرة أولا ، وبالقرابة ثانيا ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الناس ثلاثة : عوام ، وخواص ، وخواص الخواص. فالعوام : هم الذين لا شيخ لهم يصلح للتربية.

والخواص : هم الذين صحبوا شيخ التربية ، ولم ينهضوا إلى مقام التجريد. وخواص الخواص : هم الذين صحبوا شيخ التربية وتجردوا ظاهرا وباطنا ، خربوا ظواهرهم ، وعمّروا بواطنهم ، وهم الذين خاضوا بحار التوحيد ، وذاقوا أسرار التفريد. وهم الذين أشار المجذوب الى مقامهم بقوله :

يا قارئين علم التوحيد هنا البحور إليّ تغبى

هذا مقام أهل التجريد الواقفين مع ربى

فأهل التجريد ، كالمهاجرين والأنصار ، وأهل الأسباب من أهل النسبة ، كمن لم يهاجر من الصحابة ، ومن تجرد بعد ودخل معهم ، التحق بهم. قال تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ ، ومن لا نسبة له كمن لا صحبة له ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه ، وسلّم تسليما ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين «١».

---

(١) كتب فى آخر المجلد الأول من النسخة الأصلية : هذا آخر السفر الأول من (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) ، ووافق الفراغ من تبييضه سادس عشر من جمادى الأولى ، سنة ست عشر ومائتين وألف ، يتلوه سورة التوبة بحول اللّه وقوته.

انتهى ، بحوله وقوته ، عشية يوم استخراجه من مبيضته الجمعة ثالث وعشرين من جمادى الأولى ، أيضا ، من تلك السنة المذكورة قبل. ونسأله الإعانة على التمام ، بجاه النبي – عليه السّلام – صلى اللّه عليه – على مر الليالى والأيام.

سورة التّوبة «١»

(مدنية). ولها أسماء أخر : سورة براءة لتبرئها من المنافقين ، والمقشقشة ، أي : المبرئة من النفاق ، والبحوث لبحثها عن أحوال المنافقين ، والمبعثرة والمنقرة والمثيرة ، والحافرة لأنها بعثرت ونقرت وأثارت وحفرت عن أحوال المنافقين ، والمخزية والفاضحة ، والمنكلة ، والمشردة ، والمدمدمة ،

وسورة العذاب لأنها أخزت المنافقين ، وفضحتهم ، ونكلتهم ، وشردتهم ، ودمدمت عليهم ، وذكرت ما أعد اللّه لهم من العذاب.

وآياتها : مائة وثلاثون ، وقيل : وتسع وعشرون. ومناسبتها : قوله : إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «٢» ، فذكر فى هذه السورة نقض ذلك الميثاق.

واتفقت المصاحف والقراء على ترك البسملة فى أولها ، فقال عثمان رضى اللّه عنه : أشبهت معانيها معانى الأنفال ، أي : لأن فى الأنفال ذكر العهود وفى براءة نبذها. وكانتا تدعى القرينتين فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلذلك قرنت بينهما ووضعتهما فى السبع الطوال «٣» ، وكان الصحابة قد اختلفوا : هل هما سورة واحدة أو سورتان؟ فتركت البسملة بينهما لذلك. وقال على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : البسملة أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، فلذلك لم تبدأ بالأمان.

وقال البيضاوي : لما اختلف الصحابة فى أنهما سورة واحدة ، وهى سابعة السبع الطوال ، أو سورتان ، تركت بينهما فرجة ، ولم تكتب بسم اللّه. هـ.

ثم ابتدأ بنقض عهود المشركين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١ الى ٢]

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (٢)

قلت : (براءة) : خبر عن مضمر ، أي : هذه براءة ، و(من) : ابتدائية ، متعلقة بمحذوف ، أي : واصلة من اللّه ، و(إلى الذين) : متعلقة به أيضا ، أو مبتدأ لتخصيصها بالصفة ، و(إلى الذين) : خبر.

---

(١) بداية المجلد الثاني فى النسخة الأصلية.

(٢) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٥٧) وأبو داود فى (الصلاة ، باب من جهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم) والترمذي فى (التفسير ، سورة التوبة) والحاكم فى (٢/ ٢٢١) وصححه ووافقه الذهبي.

يقول الحق جل جلاله : هذه بَراءَةٌ أي : تبرئة مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ واصلة إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، فقد تبرأ اللّه ورسوله من كل عهد كان بين المشركين والمسلمين ، لأنهم نكثوا أولا ، إلا أناسا منهم لم ينكثوا ، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة ، وسيأتى استثناؤهم. قال البيضاوي : وإنما علقت البراءة باللّه

وبرسوله ، والمعاهدة بالمسلمين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهود المشركين إليهم ، وإن كانت صادرة بإذن اللّه واتفاق الرسول فإنهما برئا منها. هـ.

وقال ابن جزى : وإنما أسند العهد إلى المسلمين لأن فعل الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لازم للمسلمين ، وكأنهم هم الذين عاهدوا المشركين ، وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد عقد العهد مع المشركين إلى آجال محدودة ، فمنهم من وفّى ، فأمر اللّه أن يتم عهده إلى مدته ، ومنهم من نقض أو قارب النقض ، فجعل له أجل أربعة أشهر ، وبعدها لا يكون له عهد. هـ. وإلى ذلك أشار بقوله : فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ آمنين لا يتعرض لكم أحد ، وبعدها لا عهد بينى وبينكم.

وذكر الطبري : أنهم أسلموا كلهم فى هذه المدة ولم يسح أحد. هـ.

وهذه الأربعة الأشهر : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، لأنها نزلت فى شوال ، وقيل : هى عشرون من ذى الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وعشر من الآخر ، لأن التبليغ كان يوم النحر لما روى (أنها لمّا نزلت أرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عليا رضى اللّه عنه راكبا العضباء ليقرأها على أهل الموسم ، وكان قد بعث أبا بكر رضى اللّه عنه أميرا على الموسم ، فقيل : لو بعثت بها إلى أبى بكر؟ فقال : «لا يؤدّى عنّى إلا رجل منّى» فلمّا دنا علىّ رضى اللّه عنه سمع أبو بكر الرّغاء ، فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فوقف ، فلمّا لحقه قال : أمير أو مأمور؟ قال : مأمور ، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضى اللّه عنه ، وحدّثهم عن مناسكهم ، وقام علىّ – كرم اللّه وجهه – يوم النّحر ، عند جمرة العقبة ، فقال : يا أيها النّاس ، إنى رسول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إليكم ، فقالوا : بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من أول السورة ، ثم قال : أمرت بأربع : ألا يقرب البيت بعد هذا مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنّة إلا نفس مؤمنة ، وأن يتمّ إلى كلّ ذى عهد عهده.) «١».

ولعل قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «ولا يؤدى عنى إلا رجل منى» خاص بنقض العهود لأنه قد بعث كثيرا من الصحابة ليؤدوا عنه ، وكانت عادة العرب ألّا يتولى العهد ونقضه على القبيلة إلا رجل منها. قاله البيضاوي مختصرا.

ثم قال تعالى لأهل الشرك : وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ أي : لا تفوتونه ، وإن أمهلكم ، وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ فى القتل والأسر فى الدنيا ، والعذاب المهين فى الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الصلاة – باب ما يستر من العورة) ومسلم فى (الحج – باب لا يحج البيت مشرك) كلاهما من حديث أبى هريرة ، وليس فيه ذكر قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : (لا يؤدى عنى إلا رجل منى) ، وقد جاءت فى رواية عند أحمد فى المسند (١/ ٣) والترمذي فى (تفسير سورة التوبة).

الإشارة : قد وقع التبرؤ من أهل الشرك مطلقا ، أما الشرك الجلى فقد تبرأ منه الإسلام والإيمان ، وأما الشرك الخفي فقد تبرأ منه مقام الإحسان ، ولا يدخل أحد مقام الإحسان حتى لا يعتمد على شيء ، ولا يستند إلى شيء ، إلا على من بيده ملكوت كل شيء ، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب ، ويرفض النظر إلى العشائر والأصحاب ، حتى لا يبقى فى نظره إلا الكريم الوهاب ، فمن أصرّ على شركه الجلى أو الخفي فإن اللّه يمهل ولا يهمل ، فلا بد أن يلحقه وباله : إما خزى فى الدنيا ، أو عذاب فى الآخرة ، كلّ على ما يليق به.

وقال القشيري : إن قطع عنهم الوصلة فقد ضرب لهم مدة على وجه المهلة ، فأمّنهم فى الحال ليتأهبوا لتحمّل مقاساة البراءة فيما يستقبلونه فى المآل. والإشارة فيه : أنهم إن أقلعوا فى هذه المهلة عن الغىّ والضلال ، وجدوا فى المآل ما فقدوا من الوصال ، وإن أبوا إلا التمادي فى ترك الخدمة والحرمة ، انقطع ما بينه وبينهم من الوصلة. هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بإظهار تلك البراءة للناس ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣ الى ٤]

وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)

قلت : (و أذان) : مبتدأ ، أو خبر ، على ما تقدم فى براءة ، وهو فعال بمعنى إفعال كالعطاء بمعنى الإعطاء ، أي :

وإعلام من اللّه ورسوله واصل إلى الناس ، ورفع «رسوله» إما عطف على ضمير برىء ، أو على محل «إن» واسمها ، أو مبتدأ حذف خبره ، أي : ورسوله كذلك.

يقول الحق جل جلاله : وَأَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ واصل إلى الناس ، يكون يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ وهو يوم النحر لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ، ولأن الإعلام كان فيه. ولما روى أنه – عليه الصلاة والسلام – وقف يوم النحر ، عند الجمرات ، فى حجة الوداع ، فقال : «هذا يوم الحج الأكبر» «١» ، وقيل : يوم عرفه لقوله – عليه الصلاة والسلام – : «الحج عرفة» «٢». ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الحج – باب الخطبة أيام منى) عن نافع عن ابن عمر.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٣٠٩) وأبو داود فى (المناسك ، باب من لم يدرك عرفة) والترمذي

فى (الحج ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج) ، كذلك أخرج الحديث النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يعمر. [.....]

(٣٥٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٥٨

وذلك الإعلام بأنّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ – عليه الصلاة والسلام – كذلك. قال البيضاوي : ولا تكرار فإن قوله : بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ : إخبار بثبوت البراءة ، وهذا إخبار بوجوب الإعلام بذلك ، ولذلك علقه بالناس ولم يخص بالمعاهدين. هـ. فَإِنْ تُبْتُمْ يا معشر الكفار ورجعتم عن الشرك ، فَهُوَ أي : الرجوع خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ أي : أعرضتم عن التوبة وأصررتم على الكفر فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ لا تفوتونه طلبا ، ولا تعجزونه هربا فى الدنيا ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ فى الآخرة.

ولما أمر بنقض عهود الناكثين استثنى من لم ينقض فقال : إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ أي : لكن الذين عاهدتم مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وهم بنو ضمرة وبنو كنانة ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً من شروط العهد ، ولم ينكثوا ، ولم يقتلوا منكم ، ولم يضروكم قط ، وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً أي : لم يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى تمام مُدَّتِهِمْ ، وكانت بقيت لهم من عهدهم تسعة أشهر. ولا تجروهم مجرى الناكثين إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ، وهو تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى. قاله البيضاوي.

الإشارة : من أعظم شؤم الشرك : أن اللّه ورسوله تبرآ من أهله مرتين : خاصة وعامة ، فيجب على العبد التخلص منه خفيا أو جليا ، ويستعين على ذلك بصحبة أهل التوحيد الخاص ، حتى يخلصوه من أنواع الشرك كلها ، فإن صدر منه شيء من ذلك فليبادر بالتوبة ، فإن تولى وأصر على شركه ، كان ذلك سبب هوانه وخزيه ، وباللّه التوفيق.

ثم أمر بجهاد المشركين ، بعد الأربعة الأشهر التي أمهلهم فيها ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٥]

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

يقول الحق جل جلاله : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ أي : انقضى الأشهر الْحُرُمُ وهى الأربعة التي أمهلهم فيها ، فمن قال : إنها شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، فهى الحرم المعروفة ، زاد فيها شوال ، ونقص رجب ، وسميت حرما تغليبا للأكثر ، ومن قال : إنها ذو الحجة إلى ربيع الثاني ، فسميت حرما

لحرمتها ومنع القتال فيها حينئذ. وغلط من قال : إنها الأشهر الحرم المعلومة لإخلاله بنظم الكلام ومخالفته للإجماع لأنه يقتضى بقاء حرمة الأشهر الحرم. انظر البيضاوي.

(٣٥٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٥٩

فإذا انقضت الأربعة التي أمهلتهم فيها فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الناكثين حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ من حل أو حرم ، وَخُذُوهُمْ أسارى ، ويقال للأسير : أخيذ ، وَاحْصُرُوهُمْ واحبسوهم ، وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ كل ممر وطريق لئلا ينبسطوا فى البلاد ، فَإِنْ تابُوا عن الشرك وآمنوا ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ تصديقا لتوبتهم وإيمانهم فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أي : فدعوهم ولا تتعرضوا لهم بشىء من ذلك.

وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ، بل يقاتل كما فعل الصديق رضى اللّه عنه بأهل الردة.

والآية : فى معنى قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا اللّه ، ويقيموا الصّلاة ، ويؤتوا الزّكاة ...»

الحديث «١».

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، هو تعليل لعدم التعرض لمن تاب ، أي : فخلوهم لأن اللّه قد غفر لهم ، ورحمهم بسبب توبتهم.

الإشارة : فإذا انقضت أيام الغفلة والبطالة التي احترقت النفس فيها ، فاقتلوا النفوس والقواطع والعلائق حيث وجدتموهم ، وخذوا أعداءكم من النفس والشيطان والهوى ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد يتعرضون فيه لكم ، فإن أذعنوا ، وانقادوا ، وألقوا السلاح ، فخلوا سبيلهم ، إن اللّه غفور رحيم.

ولما أمر بقتال المشركين وأخذهم أينما ثقفوا ، استثنى من أتى يطلب الأمان ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٦]

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (٦)

قلت : «أحد» : فاعل بفعل يفسره : «استجارك».

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ أتاك أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ المأمورين بالتعرض لهم ، حيثما وجدوا ، اسْتَجارَكَ يطلب جوارك ، ويستأمنك ، فَأَجِرْهُ أي : فأمنه حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ويتدبره ، ويطلع على حقيقة الأمر ، لعله يسلم ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ أي : موضع أمنه إن لم يسلم ، ولا تترك أحدا يتعرض له حتى يبلغ محل أمنه ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ أي : ذلك الأمر الذي أمرتك به بسبب أنهم قوم لا علم لهم بحقيقة

الإيمان ، ولا ما تدعوهم إليه ، فلا بد من إيجارهم ، لعلهم يسمعون ويتدبرون فيكون ذلك سبب إيمانهم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الاعتصام – باب الاقتداء بسنن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم) ومسلم فى (الإيمان – باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه). من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٠

الإشارة : وإن استجارك – أيها العارف – أحد من عوام المسلمين ممن لم يدخل معكم بلاد الحقائق ، وأراد أن يسمع شيئا من علوم القوم ، فأجره حتى يسمع شيئا من علومهم وأسرارهم ، فلعل ذلك يكون سببا فى دخوله فى طريق القوم. ولا ينبغى للفقراء أن يطردوا من يأتيهم من العوام ، بل يتلطفوا معهم ، ويسمعوهم ما يليق بحالهم لأنّ العوام لا علم لهم بما للخواص ، فإنّ أطلعوا على ما خصهم اللّه به من العلوم دخلوا معهم ، إن سبق لهم شىء من الخصوصية.

وقال شيخ شيوخنا سيدى على الجمل رضى اللّه عنه : لا ينبغى لأهل الخصوصية أن يدخلوا بلد العموم إلا فى جوار أحد منهم ، وإلا أنكرته البلد لأن البلد أمّ تغير على غير أبنائها ، ولا ينبغى أيضا للعموم أن يدخلوا بلد الخصوص إلا فى جوار رجل منهم ، وإلا أنكرته البلد. هـ. بالمعنى.

ثم استبعد الحق أن يكون للمشركين عهد مع المسلمين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧ الى ١١]

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاً وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَتَأْبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تابُوا وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)

قلت : (إلا الذين) : محله النصب على الاستثناء ، أو جر على البدل من «المشركين» ، أو رفع على الانقطاع ، أي :

لكن الذين عاهدتم فما استقاموا لكم ، و(الإل) : القرابة والحلف ، وحذف الفعل فى قوله : (كيف وإن يظهروا عليكم) للعلم به بما تقدم ، أي : كيف يكون لهم عهد والحال أنهم إن يظهروا عليكم .. إلخ يقول الحق جل جلاله ، فى استبعاد العهد من المشركين والوفاء به : كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ

عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ؟ مع شدة حقدهم وعداوتهم للرسول وللمسلمين ، مع ما تقدم لهم من النقض والخيانة فيه ، إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ قيل : هم المستثنون قبل. وقال ابن إسحاق : هى قبائل بنى بكر ، كانوا

(٣٦٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦١

دخلوا وقت الحديبية ، فى المدة التي كانت بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وبين قريش ، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الديل من بنى بكر ، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال ابن عباس : هم قريش ، وقال مجاهد : خزاعة ، وفى هذين القولين نظر لأن قريشا وخزاعة كانوا أسلموا وقت الأذان لأنهم أسلموا فى الفتح ، والأذان بعده بسنة.

قال تعالى فى شأن من استثنى : فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ على العهد ولم يغدروا ، فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ على الوفاء ، أي : تربصوا بهم وانتظروا أمرهم ، فإن استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ الذين إذا عاهدوا وفوا ، وإذا قالوا صدقوا.

ثم كرر استبعاد وفائهم فقال : كَيْفَ يصح منهم الوفاء بعهدكم وَهم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ويظفروا بكم فى وقعة لا يَرْقُبُوا أي : لا يراعوا فِيكُمْ إِلًّا قرابة أو حلفا ، وقيل : ربوبية ، أي : لا يراعون فيكم عظمة الربوبية ولا يخافون عقابه ، وَلا ذِمَّةً أي : عهدا ، أو حقّا يعاب على إغفاله ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ بأن يعدوكم بالإيمان ، والطاعة ، والوفاء بالعهد ، فى الحال ، مع استبطان الكفر والغدر ، وَتَأْبى أي : تمنع قُلُوبُهُمْ ما تفوه به أفواههم ، وَأَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ متمردون ، لا عقيدة تزجرهم ، ولا مروءة تردعهم ، وتخصيص الأكثر لما فى بعض الكفرة من التمادي على العهد ، والتعفف عما يجر إلى أحدوثة السوء. قاله البيضاوي.

اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ أي : استبدلوا بها ثَمَناً قَلِيلًا أي : عرضا يسيرا ، وهو اتباع الأهواء والشهوات ، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ دينه الموصل إليه ، أو بيته بصد الحجاج عنه. إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : قبح عملهم هذا ، أو ساء ما كانوا يعملون من كونهم لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً فيكون تفسيرا لعملهم السوء ، لا تكريرا. وقيل : الأول فى الناقضين العهد ، وهذا خاص بالذين اشتروا ، وهم اليهود ، أو الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطمعهم.

وقوله تعالى : فِي مُؤْمِنٍ : فيه إشارة إلى أن عداوتهم إنما هى لأجل الإيمان فقط ، وقوله أولا : فِيكُمْ ، كان يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن التي وقعت بينهم ، فزال هذا الاحتمال بقوله : فِي مُؤْمِنٍ. قاله ابن عطية.

وَأُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ فى الشرارة والقبح. فَإِنْ تابُوا عن الكفر ، وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وَنُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ، حث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين وخصال التائبين. قاله البيضاوي.

الإشارة : لا ينبغى للخواص أن يثقوا بمحبة العوام ، ولا يغتروا بما يسمعون من عهودهم ، فإن محبتهم على الحروف ، مهما رأوا خلاف ما أملوا من حروفهم ، وأطماعهم ، نكثوا وأدبروا ، فللعارف غنى بالله عنهم. وفى ذلك

يقول سيدنا على – كرم اللّه وجهه – :

ما الفخر إلّا لأهل العلم ، إنّهم على الهدى لمن استهدى أدلّاء

وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

ثم ذكر حكم من نقض العهد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢ الى ١٥]

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ أي : نقضوها مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ أي : من بعد ما أعطوكم من العهود على الوفاء بها ، وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ بصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ، فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ أي : فقاتلوهم لأنهم أئمة الكفر ، فوضع أئمة الكفر موضع الضمير للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم فى الكفر ، فهم أحقاء بالقتل ، وقيل : المراد رؤساء المشركين ، والتخصيص : إما لأن قتلهم أهم ، وهم أحق به ، أو للمنع من مراقبتهم ، إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ على الحقيقة ، وإلّا لم يقدروا أن ينكثوها ، واستشهد به الحنفية على أن يمين الكافر لا تلزم ، وهو ضعيف لأن المراد نفى الوثوق عليها ، لا أنها ليست بأيمان. قاله البيضاوي. قلت : وما قالته الحنفيّة هو مذهب المالكية ، إذا حنث فى حال الكفر ، ثم أسلم ، فلا يلزمه شىء. وقرأ ابن عامر بكسر الهمزة ، أي : لا إيمان لهم صحيحا يعصم دماءهم.

لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ أي : ليكن غرضكم فى مقاتلتهم أن ينتهوا عما هم عليه ، كما هى طريقة أهل الإخلاص ، لا إيصال الإذاية لهم ، أو مقابلة عداوة.

ثم حضّ على قتالهم فقال : أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ التي حلفوها للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم وللمؤمنين على ألا يعاونوا عليهم ، فعاونوا بنى بكر على خزاعة ، وَهَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ حين تشاوروا فى أمره بدار الندوة

(٣٦٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٣

على ما مرّ ، وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بالمعاداة والمقاتلة لأنه – عليه الصلاة والسلام – بدأهم بالدعوة ، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به ، فعدلوا عن معارضته إلى المعاداة والمقاتلة ، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم ، أَتَخْشَوْنَهُمْ أي : أتهابون قتالهم حتى تتركوا أمرى ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن قضية الإيمان ألا يخاف إلا منه.

ثم وعدهم بالنصر فقال : قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ يهنهم بالقتل والأسر ، وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، فيمكنكم من رقابهم ، ويملككم أموالهم ونساءهم ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يعني : بنى خزاعة شفوا صدورهم من بنى بكر لأنهم كانوا أغاروا عليهم وقتلوا فيهم. وقيل : بطونا من اليمن قدموا مكة وأسلموا ، فلقوا من أهلها أذى شديدا ، فشكوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : أبشروا ، فإن الفرج قريب. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ بما لقوا منهم حين أغاروا عليهم ، وقد أوفى اللّه بما وعدهم بفتح مكة وهوازن.

والآية من المعجزات. قاله البيضاوي. وهذا يقتضي أن هذا التخصيص كان قبل الفتح ، فيلتئم مع ما بعده ، ويبعد اتسامه مع ما قبله من البراءة ، ونبذ العهد والإعلام بذلك لكونه بعد الفتح ، واللّه أعلم. قاله المحشي. ويمكن الجواب بأن يكون صدر السورة نزل بعد الفتح ، وبعضها من قوله : (و إن أحد من المشركين ..) إلخ نزل قبل الفتح ، فإن الآيات كانت تنزل متفرقة فيقول صلّى اللّه عليه وسلّم : «اجعلوا هذه الآية فى محل كذا». واللّه تعالى أعلم.

ثم أخبر تعالى بأن بعض المشركين يتوب من كفره بقوله : وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ هدايته ، فيهديه للإيمان ، ثم يتوب عليه ، وقد كان ذلك فى كثير منهم. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما كان ويكون ، حَكِيمٌ لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق حكمته.

الإشارة : من رجع عن طريق القوم ، ونقض عهد الأشياخ ، ثم طعن فى طريقهم ، لا يرجى فلاحه ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، أعني فى طريق الخصوص لأنه جمع بين نقض العهد والطعن على الأولياء ،

وقد قال تعالى : «من آذى لى وليا فقد آذنني بالحرب». ومن رجع عنها لضعف ووهن ، مع بقاء الاعتقاد والتسليم ، فربما تقع الشفاعة منهم فيلحق بهم ، بخلاف الأول ، فقد تقدم عن القشيري ، فى سورة آل عمران ، أنهم يريدون الشفاعة فيه ، فيخلق اللّه صورة على مثله ، فإذا رأوها تركوا الشفاعة فيه ، فيبقى مع عوام أهل اليمين. فانظره «١». وباللّه التوفيق.

---

(١) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران.

ثم عاتبهم على تأخر بعضهم عن الجهاد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٦]

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٦)

قلت : «أم» : منقطعة ، بمعنى الهمزة للإنكار والتوبيخ على الحسبان ، والخطاب للمؤمنين أو المنافقين ، والوليجة : البطانة والصحبة.

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبْتُمْ أي : أظننتم أَنْ تُتْرَكُوا من غير اختبار ، وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ أي : ولم يتبين الخلّص منكم ، وهم الذين جاهدوا ، من غيرهم ، والمراد : علم ظهور ، أي : أظننتم أن تتركوا ولم يظهر منكم المجاهد من غيره. قال البيضاوي : نفى العلم ، وأراد نفى المعلوم للمبالغة ، فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه. هـ. بل يختبركم حتى يظهر الذين جاهدوا منكم.

وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً بطانة ، أي : جاهدوا ، وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، ولم يتخذوا من دونهم بطانة ، أي : أصحاب سر يوالونهم ويبثون إليهم أسرارهم ، بل اكتفوا بمحبة اللّه ومودة رسول اللّه والمؤمنين ، دون موالاة من عاداهم ، والتعبير ب (لما) : يقتضي أن ظهور ذلك متوقع ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ : تهديد لمن يفعل ذلك.

الإشارة : إفراد المحبة لله ولأولياء اللّه من أعظم القربات إلى اللّه ، وأقرب الأمور الموصلة إلى حضرة اللّه ، والالتفات إلى أهل الغفلة بالصحبة والمودة ، من أعظم الآفات والأسباب المبعدة عن اللّه ، والعياذ باللّه. وفى الحديث : «المرء على دين خليله». و«المرء مع من أحبّ» ، و«من أحبّ قوما حشر معهم.» إلى غير ذلك من الآثار فى هذا المعنى.

ثم نهى عن دخول المشركين المساجد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٧ الى ١٨]

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (١٧) إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

(٣٦٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٥

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أي : ما صح لهم أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ أي : شيئا من المساجد ، فضلا عن المسجد الحرام ، وقيل : هو المراد ، وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وإمامها ، فأمره كأمرها ، ويدل عليه قراءة من قرأ بالتوحيد ، أي : ليس لهم ذلك ، وإن كانوا قد عمروه تغلبا وظلما ، حال كونهم شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ بإظهار الشرك وتكذيب الرسول ، أي : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متباينين :

عمارة بيت اللّه ، وعبادة غير اللّه ، أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فى الدنيا والآخرة لما قارنها من الشرك والافتخار بها ، وَفِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ لأجل كفرهم.

إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ ، أي : إنما تستقيم عمارتها بهؤلاء الجامعين للكمالات العلمية والعملية ، ومن عمارتها : تزيينها بالفرش ، وتنويرها بالسرج ، وإدامة العبادة والذكر ودروس العلم فيها ، وصيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا.

وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : قال اللّه تعالى : «إنّ بيوتى فى أرضى المساجد ، وإنّ زوّارى فيها عمّارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتي ، فحقّ على المزور أن يكرم زائره». ووقف عبد اللّه بن مسعود على جماعة فى المسجد يتذاكرون العلم فقال : بأبى وأمي العلماء ، بروح اللّه ائتلفتم ، وكتاب اللّه تلوتم ، ومسجد اللّه عمرتم ، ورحمة اللّه انتظرتم ، أحبكم اللّه وأحب من أحبكم. هـ.

وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لما علم أن الإيمان باللّه قرينه وتمامه الإيمان به ، ولدلالة قوله : وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ عليه. قاله البيضاوي.

وَلَمْ يَخْشَ فى أموره كلها إِلَّا اللَّهَ ، فهذا الذي يصلح لعمارة بيت اللّه ، فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، وعبّر بعسى ، قطعا لأطماع المشركين فى الاهتداء والانتفاع بأعمالهم ، وتوبيخا لهم على القطع بأنهم مهتدون فإن كان اهتداء هؤلاء ، مع كمالهم ، دائرا بين عسى ولعل ، فما ظنك بأضدادهم؟

، ومنعا للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم فيتكلوا عليها. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «من رأيتموه يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» ، ثم تلا الآية «١».

الإشارة : مساجد الحضرة محرمة على أهل الشرك الخفي والجلي ، لا يدخل الحضرة إلا قلب مفرد ، فيه توحيد مجرد ، لا يعمر مساجد الحضرة إلا قلب مطمئن بالله ، غائب عما سواه ، قد رفض الركون إلى الأسباب ، وأفرد

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير – سورة التوبة) وابن ماجه فى (المساجد – باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) والدارمي فى (الصلاة – باب المحافظة على الصلوات) من حديث أبى سعيد الخدري.

الوجهة لمسبب الأسباب ، قطع الشواغل والعلائق حتى أشرقت أنوار الحقائق. إنما يعمر مساجد حضرة القدوس من آمن باللّه واليوم الآخر ، وأقام صلاة القلوب ، وآتى زكاة النفوس ، ولم يراقب أحدا من المخلوقين ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى حضرة رب العالمين.

ولما افتخر قوم من قريش بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، بيّن اللّه تعالى أن الجهاد أفضل من ذلك ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٩ الى ٢٢]

أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

قلت : السقاية والعمارة : مصدران ، فلا يشبهان بالجثة ، فلا بد من حذف ، أي : أجعلتم أهل سقاية الحاج كمن آمن ، أو أجعلتم سقاية الحاج كإيمان من آمن.

يقول الحق جل جلاله : أَجَعَلْتُمْ أهل سِقايَةَ الْحاجِّ ، وَأهل عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ من أهل الشرك المحبطة أعمالهم ، كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ من أهل الإيمان ، وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة اللّه ، المثبتة أعمالهم ، بل لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ أبدا لأن أهل الشرك الذين حبطت أعمالهم فى أسفل سافلين ، إن لم يتوبوا ، وأهل الإيمان والجهاد فى أعلى عليين.

ونزلت الآية فى على – كرم اللّه وجهه – والعباس وطلحة بن شيبة ، افتخروا ، فقال طلحة : أنا صاحب

البيت ، وعندى مفاتحه ، وقال العباس : أنا صاحب السقاية ، وقال على رضى اللّه عنه : لقد أسلمت وجاهدت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فبيّن اللّه تعالى أن الإيمان والجهاد أفضل ، ووبخ من افتخر بغير ذلك فقال : وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أي : الكفرة الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ومعاداة الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، وداموا على ذلك ، وقيل : المراد بالظالمين : الذين يسوون بينهم وبين المؤمنين.

ثم أكد ذلك بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً ، وأعلى رتبة ، وأكثر كرامة ، عِنْدَ اللَّهِ ، ممن لم يستجمع هذه الصفات ، أو من أهل السقاية والعمارة عندكم ،

(٣٦٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٧

وَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ بكل خير ، الظافرون بنيل الحسنى والزلفى عند اللّه ، دون من عداهم ممن لم يفعل ذلك.

ثم زاد فى كرامتهم فقال : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ أي : تقريب وعطف منه وَرِضْوانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها أي : فى الجنان نَعِيمٌ مُقِيمٌ دائم ، لانفاد له ولا انقطاع. وتنكير المبشر به إشعار بأنه وراء التعيين والتعريف ، حال كونهم خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، أكد الخلود بالتأبيد لأنه قد يطلق على طول المكث ، إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ يستحقر دونه مشاق الأعمال المستوجبة له ، أو نعيم الدنيا إذ لا قدر له فى جانب نعم الآخرة.

الإشارة : لا يستوي من قعد فى وطنه مع عوائده وأسبابه ، راكنا إلى عشائره وأحبابه ، واقفا مع هواه ، غافلا عن السير إلى مولاه ، مع من هاجر وطنه وأحبابه ، وخرق عوائده وأسبابه ، وجاهد نفسه وهواه ، سائرا إلى حضرة مولاه ، لا يستوون أبدا عند اللّه لأن هؤلاء مقربون عند لله ، والآخرون فى محل البعد عن اللّه ، ولو كثر علمهم وعملهم عند اللّه ، شتان بين من همته القصور والحور ، وبين من همته الحضور ورفع الستور ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات المعارف لهم فيها نعيم لأرواحهم ، وهو الشهود والعيان ، لا يحجب عنهم طرفة عين ، إن اللّه عنده أجر عظيم ، لا يخطر على قلب بشر. لا حرمنا اللّه من ذلك.

ثم نهى عن موالاة أهل الغفلة وإن قربوا نسبا ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ

فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ الذين بقوا على كفرهم أَوْلِياءَ توالونهم بالمحبة والطاعة ، إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ واختاروه على الإيمان. نزلت فى شأن المهاجرين فإنهم لما أمروا بالهجرة قالوا : إن هاجرنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا ، وذهبت تجارتنا ، وبقينا ضائعين.

وقيل : نزلت فيمن ارتد ولحق بمكة ، فنهى اللّه عن موالاتهم. وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ بوضعهم الموالاة فى غير موضعها.

(٣٦٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٨

قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ أي : أصحابكم ، أو أقرباؤكم ، وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها اكتسبتموها ، وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها أي : فوات وقت إنفاقها ، وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها لحسنها وسعتها ، فإن كان ذلك أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : من الإيمان بالله وصحبة رسوله ، وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فآثرتم ذلك ، وتخلفتم عن الإيمان والهجرة ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ أي : بعقوبة عاجلة أو آجلة ، أو بنصر وفتح على المؤمنين ، كفتح مكة وغيرها ، والمراد بالمحبة : الاختيارية دون الطبيعة فإنها لا تدخل تحت التكليف ، والتحفظ عنها لأن حب الأوطان والعشائر طبيعى ، والحب المكلف به اختياري ، بحيث يجاهد نفسه فى إبدال الطبيعي بالاختيارى.

ثم هدد من وقف مع حب الأوطان بقوله : وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ لا يرشدهم ولا يوفقهم. وفى الآية تهديد عظيم ، وقلّ من تحفظ عنه. قاله البيضاوي.

الإشارة : الهجرة من أوطان الغفلة واجبة ، ومفارقة الأصحاب والعشائر الذين لا يوافقون العبد على النهوض إلى اللّه فريضة ، فيجب على المريد أن يهاجر من البلد التي لا يجد فيها قلبه ، ولا يجد فيها من يتعاون به على ربه ، كائنة ما كانت ، وما رأينا وليّا قط أنتج فى بلده ، إلا القليل ، فلما هاجر صلّى اللّه عليه وسلّم من وطنه إلى المدينة. وحينئذ نصر الدين ، بقيت سنة فى الأولياء ، لا تجد وليا يعمر سوقه إلا فى غير بلده ، ويجب عليه أيضا أن يعتزل من يشغله عن اللّه من الآباء والأبناء والأزواج والعشائر ، وكذلك الأموال والتجارات التي تشغل قلبه عن اللّه ، بعد أن يقيم فى أولاده حقوق الشريعة ، فاللبيب هو الذي يجمع بين الحقيقة والشريعة ، فلا يضيع من يعول ، ولا يترك حق من يتعلق به من الزوجة أو غيرها ، ويذكر اللّه مع ذلك ، فيخالطهم بحسه ، ويفارقهم بقلبه ، فإن لم يستطع وأراد دواء

قلبه فليخير الزوجة ، ويوكل من ينوب عنه فى القيام بحقوق العيال ، حتى يقوى قلبه ويتمكن مع ربه ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١».

ولإبراهيم بن أدهم رضى اللّه عنه :

هجرت الخلق طرا فى رضاكا وأيتمت البنين لكى أراكا

فلو قطعتنى إربا فإربا لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

وبالله التوفيق

---

(١) الآيتان : ٢ - ٣ من سورة الطلاق.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٦٩

ثم ذكّرهم بالنعم ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

قلت : (و يوم حنين) : عطف على (مواطن) ، أو منصوب بفعل مضمر ، وهذا أحسن لأن قوله : (إذ أعجبتكم كثرتكم) خاص بيوم حنين. انظر : ابن جزى.

يقول الحق جل جلاله ، فى تذكيرهم بالنعم : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ أي : فى مواقف الحرب ومداحضها فى مواضع كثيرة ، وَنصركم أيضا يَوْمَ حُنَيْنٍ ، وهى غزوة كانت بعد فتح مكة ، متصلة بها ، فى موضع يقال له : حنين ، سمى باسم رجل كان يسكنه ، وهو واد بين مكة والطائف ، حارب فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمون ، وكانوا اثنى عشر ألفا : عشرة آلاف من الذين حضروا فتح مكة ، وألفان انضموا إليهم من الطلقاء ، قاتلوا هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من قبائل العرب. وكانوا ثلاثين ألفا ، فلما التقوا مع بعض المشركين قال بعض المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ، إعجابا بكثرتهم ، واقتتلوا قتالا شديدا ، فأدرك المسلمين إعجابهم ، واعتمادهم على كثرتهم ، فانهزموا حتى وصل جلهم إلى مكة ، وبقي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى مركزه ، ليس معه إلا عمه العباس ، آخذا بلجامه ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث ، وناهيك شهادة على تناهى شجاعته صلّى اللّه عليه

وسلّم ، فقال للعباس – وكان صيّتا – : صح بالناس ، فنادى : يا عباد اللّه ، يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة ، فكروا عنقا واحدا ، يقولون : لبيك لبيك ، ونزلت الملائكة ، فالتقوا مع المشركين ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : هذا حين حمى الوطيس «١» ، ثم أخذ كفا من تراب فرماهم ، وقال : شاهت الوجوه ، ثم قال : انهزموا وربّ الكعبة ، فانهزموا «٢».

---

(١) الوطيس : حفرة تحتقر تحت الأرض ، فتوقد فيها النار ويصغّر رأسها ، ويخرق فيها خرق للدخان. ثم يوضع فيها اللحم ، ويسد ، ثم يؤتى من الغد واللحم غاب لم يحترق ، ولحمها شواء ، وهى مجاز فى شدة الحرب.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم فى (الجهاد – باب غزوة حنين) من حديث سيدنا العباس رضى اللّه عنه.

فأشار تعالى إلى مقالتهم معاتبا لهم عليها بقوله : إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً أي : فلم تغن تلك الكثرة عنكم شيئا من الإغناء ، أو من أمر العدو. وهذه المقالة صدرت من غير النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كما تقدم لأنه معصوم من الإعجاب ، وإن ثبت أنه قال ذلك فليس على وجه الإعجاب ، بل على وجه الإخبار ، وعلى ذلك جرى الحكم فى المذهب : من حرمة الفرار عند بلوغ اثنى عشر ألفا ، وكان المسلمون يومئذ اثنى عشر ألفا بالطلقاء وهم مسلمة الفتح : وكانوا الفين ، وسموا بالطلقاء لمنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عليهم ، يقال لمن أطلق من أسر : طليق ، وجمعه على طلقاء نادر لأنه يشترط فى فعيل ، الذي يجمع على فعلاء ، أن يكون بمعنى فاعل ، كظريف وشريف ، لا بمعنى مفعول ، كدفين ودفنى ، وسخين وسخنى ، ومنه. طليق.

ثم قال تعالى : وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ برحبها ، أي : ضاقت على كثرة اتساعها ، فلم تجدوا فيها مكانا تطمئن إليه نفوسكم من الدهش ، ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ هاربين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ أي : طمأنينته عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ بعد انهزامهم ، فرجعوا وقاتلوا ، أو على من بقي مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، ولم يفروا. وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما.

وَأَنْزَلَ جُنُوداً من الملائكة لَمْ تَرَوْها بأعينكم ، وكانوا خمسة آلاف ، أو ثمانية ، أو ستة عشر ، على اختلاف الأقوال. وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا بالقتل والأسر والسبي ، وَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ أي : ما فعل بهم هو جزاء كفرهم فى الدنيا ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ منهم ، بالتوفيق للإسلام ، وَاللَّهُ

غَفُورٌ رَحِيمٌ يتجاوز عنهم ويتفضل عليهم بالتوفيق والهداية.

روى أن أناسا منهم جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأسلموا ، وقالوا : يا رسول اللّه ، أنت خير الناس وأبرهم ، وقد سبى أهلونا وأولادنا ، وأخذت أموالنا – وقد سبى يومئذ ستة آلاف نفس ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ، فقال :

«اختاروا ، إما سبيكم ، وإما أموالكم». فقالوا : ما كنّا نعدل بالأحساب شيئا. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ هؤلاء جاءونا تائبين ، وأنا خيّرتهم بين الذّرارى والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده سبى فطابت نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا ، فليعطنا ، وليكن قرضا علينا حتّى نصيب شيئا فنعطيه مثله» ، فقالوا : رضينا وسلّمنا ، فقال : «إنّى لا أدرى ، لعلّ فيكم من لا يرضى ، فارجعوا حتى يرفع إلىّ عرفاؤكم أمركم» فرفعوا إليه أمرهم ، وقالوا : قد رضوا ، فردّ السبي إليهم ، وقسم الأموال فى المؤلفة قلوبهم «١» ، ترغيبا فى تسكين قلوبهم للإسلام. والغزوة مطولة فى كتب السيرة ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) القصة أخرجها البخاري فى (المغازي باب قول اللّه تعالى : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم) عن عروة عن المسور ومروان.

الإشارة : لقد نصركم اللّه ، يا معشر المريدين ، على جهاد نفوسكم وتيسير أموركم ، فى مواطن كثيرة ، إذا رجعتم إلى ربكم ، واعتزلتم من حولكم وقوتكم فى جميع أموركم ، فمن علامة النجاح فى النهاية الرجوع إلى اللّه فى البداية ، ما تعذر مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك.

فمن رجع إلى نفسه ، أو استند إلى عقله وحدسه ، لم تغن عنه شيئا ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ورجع من حيث جاء ، فإن انتبه ، ورجع إلى ربه ، أنزل سكينة عليه ، وأيده باليقين ، ورجا أن يدرك أمله من رب العالمين.

قال الورتجبي : قوله تعالى : (ثم أنزل اللّه سكينته على رسوله) ، سكينته – عليه الصلاة والسلام – زيادة أنوار كشف مشاهدة اللّه ، له ، حين خاف من مكر الأزل ، فأراه اللّه اصطفائيته الأزلية ، وأمنه من مكره ، لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين ، لكن إذا غاب فى بحر القدم لم ير للحدث أثرا ، ورأى الحدثان متلاشية فى فيض العظمة ، ففزع منه به ، فآواه اللّه منه إليه ، حتى سكن به عنه. هـ.

ثم أمر بمنع المشركين من دخول البيت الحرام ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٢٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ أي : عين الخبث ، مبالغة فى خبثهم ، إما لخبث باطنهم بالكفر ، أو لأنهم لا يتطهرون من النجاسات ، ولا يتوقون منها ، فهم ملابسون لها غالبا.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أن أعيانهم نجسة كالكلاب. قاله البيضاوي. فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ، وهو نص على منع المشركين – وهم عبدة الأوثان – من المسجد الحرام ، وهو مجمع عليه ، وقاس مالك على المشركين جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، وقاس على المسجد الحرام سائر المساجد ، ومنع جميع الكفار من جميع المساجد.

وجعلها الشافعي عامة فى الكفار ، خاصة بالمسجد الحرام ، فمنع جميع الكفار من دخول المسجد الحرام خاصة ، وأباح دخول غيره ، وقصرها أبو حنيفة على موضع النهى ، فمنع المشركين خاصة من دخول المسجد الحرام وأباح لهم دخول سائر المساجد ، وأباح دخول أهل الكتاب فى المسجد الحرام وغيره. قاله ابن جزى.

قوله تعالى : بَعْدَ عامِهِمْ هذا يعنى : سنة تسع من الهجرة ، حين حج أبو بكر بالناس ، وقرأ علىّ رضى اللّه عنه عليهم سورة براءة.

(٣٧١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٢

وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً أي : فقرا بسبب منع المشركين من الحرم ، وكانوا يجلبون لها الطعام ، فخاف الناس قلة القوت منها ، إذا انقطع المشركون عنهم ، فوعدهم اللّه بالغنى بقوله : فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ من عطائه وتفضله بوجه آخر ، وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدرارا ، وأسلمت العرب كلها ، وتمادى جلب الطعام إلى مكة ، ثم فتح عليهم البلاد ، وجلبت لهم الغنائم ، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض ، وما زال كذلك إلى الآن.

وقيده بالمشيئة لتنقطع الآمال إلى اللّه ، ولينبه على أنه متفضل فى ذلك ، وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض ، وفى عام دون عام ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بأحوالكم ، حَكِيمٌ فيما يعطى ويمنع.

الإشارة : بيوت الحضرة – وهى القلوب المقدسة – لا ينبغى أن يدخلها شىء من شرك الأسباب ، أو الوقوف مع رفق الأصحاب ، أو الركون إلى معلوم حتى يفرد التعلق بالحي القيوم ، ولا ينبغى أيضا أن

يدخلها شيء من نجاسة حس الدنيا وأكدارها وأغيارها ، فيجب على أربابها الفرار من مواطن الكدر ، والعزلة عن أربابها لئلا يدخل فيها شيء من نجاستها ، فتموت بعد حياتها ، وكان عيسى – عليه الصلاة والسلام – يقول لأصحابه : (لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قالوا : من الموتى يا روح اللّه؟ قال : المحبون للدنيا الراغبون فيها). فإن خفتم عيلة بالفرار منهم واعتزال نجاستهم ، فسوف يغنيكم اللّه من فضل غيبه إن شاء ، فى الوقت الذي يشاء ، إذ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ أي : لأنهم فقدوا طهارة الأسرار ، فبقوا فى مزابل الظنون والأوهام ، فمنعوا قربان المساجد التي هى مساجد القرب ، وأمّا المؤمنون فطهّرهم عن التدنّس بشهود الأغيار ، فطالعوا الحقّ فردا فيما ينشيه من الأمر ويمضيه من الحكم. هـ.

ثم أمر بجهاد أهل الكتاب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٢٩]

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله للمؤمنين : قاتِلُوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ على ما يجب له ، لإشراكهم عزير وعيسى ، ولتجسيمهم ، وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ لأنهم ينكرون المعاد الجسماني ،

فإيمانهم فى الجانبين كلا إيمان ، وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لأنهم يحلون الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ، وغير ذلك مما حرمته الشريعة المحمدية ، وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ أي : لا يدخلون فى الإسلام ، الذي هو الدين الحق ، الناسخ لسائر الأديان ومبطلها.

ثم بيّن الذين أمر اللّه بقتالهم بقوله : مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وهم اليهود والنصارى. وحين نزلت خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لغزوة تبوك لقتال النصارى ، ووصل إلى أوائل بلد العدو ، فصالح أهل أدرج وأيلة ، وغيرهما ، على الجزية وانصرف ، وذلك امتثال للآية.

قال تعالى : فقاتلوهم حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ أي : ما تقرر عليهم أن يعطوه ، وقدرها عند مالك : أربعة دنانير على أهل الذهب ، وأربعون درهما على أهل الورق ، يؤخذ ذلك من كل رأس ، واتفق العلماء على قبول الجزية من اليهود والنصارى ، ويلحق بهم المجوس لقوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب» «١» لأن لهم شبهة كتاب ، فألحقوا بهم. واختلفوا فى قبولها من عبدة الأوثان قال مالك

: تؤخذ من كل كافر إلا المرتد ، ولا تؤخذ من النساء والصبيان والمجانين.

وقوله تعالى : عَنْ يَدٍ أي : يباشر إعطاءها بيده ، لا يبعثها مع أحد ، أو لا يمطل بها ، كقولك : يدا بيد ، أو عن استسلام وانقياد ، كقولك : ألقى فلان بيده. وَهُمْ صاغِرُونَ أذلاء محقورون. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : تؤخذ الجزية من الذمي ، وتوجأ عنقه ، أي : تصفع.

الإشارة : يؤمر المريد بقتل نفسه وحظوظه وهواه ، وأعظمها : حب الدنيا والرئاسة والجاه ، ولا يزال يخالف هواها ، ويعكس مراداتها ، ويحملها ما يثقل عليها ، حتى تنقاد إليه بالكلية ، بحيث لا يثقل عليه شيء ، ويستوى عندها العز والذل ، والفقر والغنى ، والمدح والذم ، والمنع والعطاء ، والفقد والوجد ، فإن استوت عندها هذه الأحوال فقد أسلمت وأعطت ما يجب عليها ، فيجب حفظها ورعايتها ، وتصديقها فيما يرد عليها. وبالله التوفيق.

ثم ذكر الباعث على جهاد أهل الكتاب ، وهو فساد اعتقادهم ، فقال :

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (الزكاة ، باب جزية أهل الكتاب والمجوس) والشافعي فى مسنده (الجزية) والبيهقي فى السنن الكبرى (٩/ ١٨٩) ، والبغوي فى شرح السنة (١١/ ١٦٩) عن عبد الرحمن بن عوف.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)

قلت : (عزيز) : (مبتدأ) ، و(ابن اللّه) : خبر ، فمن نونه جعله مصروفا لأنه عنده عربى ، ومن حذف تنوينه :

إما لمنعه من الصرف للعلمية والعجمة عنده ، وإما لالتقاء الساكنين تشبيها للنون بحروف اللين ، وهو ضعيف ، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ، قال ابن عباس : هذه المقالة قالها أربعة منهم ،

وهم : سلام بن مشكم ، ونعمان أو لقمان بن أوفى ، وشاس بن قيس ، ومالك بن الصّيف «١». وقيل : لم يقلها إلا فنحاص ، ونسب ذلك لجميعهم لسكوتهم عنه. قال البيضاوي : إنما قال ذلك بعضهم من متقدميهم ، أو ممن كانوا بالمدينة ، وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة ، وهو – أي عزير – لما أحياه اللّه بعد مائة عام ، أملى عليهم التوراة حفظا ، فتعجبوا من ذلك ، وقالوا : ما هذا إلا أنه ابن اللّه ، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب. هـ.

وَقالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ، هو أيضا قول بعضهم ، وإنما قالوه استحالة أن يكون الولد بلا أب ، أو لما كان يفعل من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، وتقدم الرد عليهم ، وسبب إدخال هذه الشبهة عليهم ، فى سورة المائدة. «٢»

قال تعالى : ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ من غير دليل ولا برهان ، بل قالوا به من عندهم يُضاهِؤُنَ أي : يشابهون فى هذه المقالة قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، يعنى : قدماءهم ، على معنى أن الكفر قديم فيهم.

قال ابن جزى : فإن كان الضمير لليهود والنصارى ، أي : المتقدمين ، فالإشارة بقوله : (الذين كفروا من قبل) للمشركين من العرب ، إذ قالوا : الملائكة بنات اللّه ، وهم أول كافر ، أو للصابئين ، أو لأمم تقدمت ، وإن كان الضمير للمعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم من اليهود والنصارى ، فالذين كفروا من قبل هم أسلافهم المتقدمون. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/ ٣٦).

(٢) عند تفسير قوله تعالى : لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... الآية ٧٢.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٥

قاتَلَهُمُ اللَّهُ أي : أهلكهم ودمرهم لأن من قاتله اللّه هلك ، فيكون دعاء ، أو تعجبا من شناعة قولهم ، أَنَّى يُؤْفَكُونَ أي : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ أي : علماءهم وَرُهْبانَهُمْ عبّادهم أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ بأن أطاعوهم فى تحريم ما أحل اللّه ، وتحليل ما حرم اللّه ، وفى السجود لهم ، وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ بأن جعلوه ابن اللّه ، وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً وهو اللّه الواحد الحق ، وأما طاعة الرسول – عليه الصلاة والسلام – وسائر من أمر بطاعته ، فهو فى الحقيقة طاعة للّه ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تقرير للتوحيد ، سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ تنزيها له عن أن

يكون معه شريك.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا أي : يخمدوا نُورَ اللَّهِ القرآن أو الإسلام بجملته ، بِأَفْواهِهِمْ كقولهم فيه : سحر ، وشعر ، وغير ذلك ، وفيه إشارة إلى ضعف حيلتهم فيما أرادوا ، وَيَأْبَى اللَّهُ لا يرضى إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ بإعلاء التوحيد ، وإظهار الإسلام ، وإعزاز القرآن وأهله ، وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ذلك ، فإن اللّه لا محالة يتم نوره ، ويظهر دينه.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، الضمير فى «يظهره» : للدين الحق ، أو للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، واللام فى «الدين» : للجنس ، أي : على سائر الأديان فينسخها ، أو على أهلها فيخذلهم ، وقد أنجز وعده ، وأظهر دينه ورسوله على الأديان كلها ، حتى عم المشارق والمغارب ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ذلك الإظهار ، فيظهره اللّه رغما عن أنفهم. وقيل : يتحقق ذلك عند نزول عيسى عليه السّلام ، حتى لا يبقى دين إلا دين الإسلام ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من انطمس نور بصيرته نسب لله ما لا يليق بكمالاته ، ومن لم تنهضه سوابق العناية وقف مع الوسائط ، ولم ينفذ إلى شهود الموسوط ، وقد عيّر اللّه قوما وقفوا مع الوسائط فقال : اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وقال ، فى شأن الواسطة العظمى غيرة على القلوب أن تقف مع غيره : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ «١» ، إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ «٢» ، ودخل بعض العارفين على إنسان وهو يبكى ، فقال : وما يبكيك؟ فقال له : مات أستاذى ، فقال له ذلك العارف : ولم جعلت أستاذك من يموت؟. فالوسائط كالأنبياء والأولياء ، إنما هم موصّلون إلى اللّه ، دالون عليه ، فمن وقف معهم ولم ينفذ إلى اللّه فقد اتخذه ربا عند الخواص.

---

(١) من الآية ١٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) من الآية ١٢ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٦

وقال الورتجبي على هذه الآية : عيّر الحق تعالى من بقي فى رؤية المقتدى به دون رؤية الحق ، وإن كان وسيلة منه ، فإن فى إفراد القدم من الحدوث ، النظر إلى الوسائط ، وهو شرك ، وتصديق ذلك تمام الآية وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً. غيرة الوحدانية ما أبقت فى البين غيرا من الشواهد والآيات وجميع الخلق. قال اللّه تعالى :

قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ «١». ولما رأى صلّى اللّه عليه وسلّم غيرة القدم على شأن استهلاك الغير زجر من مدحه وتجاوز فى المدح فقال : «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح».

ثم قال الورتجبي : قال بعضهم فى هذه الآية : سكنوا إلى أمثالهم ، فطلبوا الحق من غير مظانه ، وطرق الحق واضحة لمن كحل بنور التوفيق ، وبصر سبل التحقيق ، ومن أعمى عن ذلك كان مردودا عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق ، وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلة عرفانهم أهل الحقائق ، وركونهم إلى أهل التقليد ، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد فى التفريد ، وهكذا شأن من اقتدى بالزوّاقين من أهل السالوس المتزينين بزى المشايخ والعارفين المتحققين ، وتخلف خلف الجامعين للدنيا ، الذين يقولون : نحن أبناء المشايخ ونحن رؤساء الطريقة ، يضحك اللّه الدهر من جهلهم حيث علموا أن الولاية بالنسب ، حاشا أن من لم يذق طعم وصال اللّه ، وقلبه معلق بغير اللّه ، هو من أولياء اللّه.

قال الجنيد : إذا أراد اللّه بالمريد خيرا هداه إلى صحبة الصوفية ، ووقاه من صحبة القراء. ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم ، ولم يتعرضوا لأولياء اللّه ، ولم يقصدوا إسقاط جاههم ، لكفيهم شقاوتهم ، لا سيما ويطعنون على الصديقين العارفين. قال اللّه فى شأنهم : يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ، كيف تطفأ بتراب حسبانهم أنوار شموس الصفات ، التي تبرز من جباه وجوههم ، ولئالىء خدودهم ، وأصلها ثابت فى أفلاك الوحدانية وسموات القيومية ، ويزيد نورهم على نور لأنه تعالى بلا نهاية ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ) : إن اللّه سبحانه سن سنة أزلية : ألا يجد أحد سبيله إلا من يقيض له أستاذا عارفا باللّه ، وبسرّ دينه وربوبيته ، فيدله إلى منهاج عبوديته ، ومعارج روحه وقلبه ، إلى مشاهدة ربوبيته ، ويكون هو واسطة بينه وبين اللّه ، وإن كان الفضل بيد اللّه ، يؤتيه من يشاء بغير علة ولا سبب ، جعله واسطة للتأديب لا للتقريب ، وصيره شفيعا للجنايات ، لا شريكا فى الهدايات ، هداه نور القرآن ، وبيّنه حقيقة البيان ، مع إظهار البرهان. قيل : جعل اللّه الوسائط طريقا لعباده إليه ، وبعثهم أعلاما على الطرق ونورا يهتدى بهم ، وعرفهم سبل الحق وحقيقة الدين ، قال اللّه تعالى : (أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ). انتهى كلامه.

---

(١) من الآية ٩١ من سورة الأنعام.

ثم ذكر مساوئ الأحبار والرهبان ، تنفيرا من طاعتهم ، وذما لمن اتخذهم أربابا ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

قلت : (يحمى عليها) : الجار والمجرور : نائب الفاعل ، وأصله : يوم تحمى النار الشديدة الحمى عليها ، فجعل الإحماء للنار مبالغة ، ثم حذفت النار ، وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود ، فانتقل من صيغة التأنيث إلى صيغة التذكير.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ يأخذونها بالرشا فى الأحكام ، وسمى أخذ المال أكلا لأنه الغرض الأعظم منه ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : يعوقون الناس عن الدخول فى دينه ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ أي : يدخرونها وَلا يُنْفِقُونَها أي : الأموال المفهومة من الذهب والفضة ، أو الكنوز ، أو الفضة ، واكتفى بذكرها عن الذهب إذ الحكم واحد ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ وهو الكي بها ، وهذا الحكم يحتمل أن يرجع لكثير من الأحبار والرهبان ، فيكون مبالغة فى وصفهم ، بالحرص على المال وجمعه ، وأن يراد به المسلمون الذين يجمعون الأموال ، ويقتنونها ولا يؤدون حقها ، ويكون اقترانه بأكلة الرشا من أهل الكتب للتغليظ.

ويدل عليه : أنه لما نزلت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ذكر ذلك عمر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال : «إنّ اللّه لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم.» «١»

وقوله – عليه الصلاة والسلام – : «ما أدى زكاته فليس بكنز» «٢». وقال أبو ذر وجماعة من الزهاد : كل ما فضل عن حاجة الإنسان فهو كنز ، وحمل الآية عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الزكاة ، باب فى حقوق المال) والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٠٩) من حديث ابن عباس ، والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي. [.....]

(٢) أخرجه البيهقي فى الكبرى (كتاب الزكاة ٤/ ٨٣) وابن عدى فى الكامل فى (ترجمة سويد بن عبد العزيز ٣/ ١٣٦٢) من حديث ابن عمر مرفوعا وأخرجه موقوفا البخاري (٢/ ٢٧١).

ثم ذكر وعيدهم فقال : يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها

أي : على الأموال المكنوزة فِي نارِ جَهَنَّمَ أي : يوم توقد النار ذات الحمى الشديد عليها ، حتى تكون صفيحة واحدة ، فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، خصهم بالعذاب ، لأنهم كانوا يعرضون عن السائل ، ويولون ظهره ، فيعرضون عنه بجباههم وجنوبهم. أو لأنها أشرف الأعضاء ، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد. أو لأنها أصول الجهات الأربع ، التي هى مقادم الإنسان مؤخره وجنبتاه.

يقال لهم : هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أي : لمنفعتها ، وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ أي : وبال كنزكم ، أو ما كنتم تكنزونه. وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما من صاحب ذهب ولا فضّة لا يؤدى منها حقّها إلّا إذا كان يوم القيامة صفّحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها فى نار جهنم ، فيكوى بها جبينه وجنبه وظهره ، كلما بردت أعيدت له ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله : إما إلى الجنة وإما إلى النار». رواه مسلم بطوله «١».

قال ابن عطية : روى أن أصحاب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قالوا : قد ذم اللّه تعالى كسب الذهب والفضة ، فلو علمنا أىّ المال خير حتى نكسبه؟ فقال عمر : أنا أسأل لكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فسأله ، فقال : «لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة تعين المرء على دينه» «٢». وروي أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال ، لما نزلت الآية : «تبّا للذّهب والفضّة» «٣». فحينئذ أشفق أصحابه ، وقالوا ما تقدم. هـ. ولابن حجر :

من خير ما يتخذ الإنسان فى دنياه كيما يستقيم دينه.

قلب شكور ، ولسان ذاكر ، وزوجة صالحة تعينه.

وهو نظم لهذا الحديث ، وقد تكلم عليه فى الجامع وشرحه. قاله المحشى.

الإشارة : هذه الآية تغبر فى وجوه علماء السوء ، الذين يتساهلون فى أكل الدنيا بالعلم ، كقبض الرشا ، وقبض ما فوق أجرته فى الأحكام ، فترى بعض قضاة الجور يقبضون المثاقيل على إنزال يده على الحكم ، مع أنه واجب عليه ، حيث تعين عليه بنصب الإمام له ، وتجر ذيلها على أغنياء الدنيا ، الذين يجمعون الأموال ويكنزونها ، فترى

---

(١) أخرجه مسلم فى (الزكاة ، باب إثم مانع الزكاة) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٨ – ٢٨٢) والترمذي فى (التفسير – سورة التوبة) وابن ماجه فى (الكفاح باب أفضل النساء) عن ثوبان.

(٣) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد فى المسند (٥/ ٣٦٦) عن عبد اللّه بن أبى الهذيل.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٧٩

أحدهم ينفق فى نزهته وشهوة نفسه الأموال العريضة ، وإذا أتاه فقير يسأله درهما أو درهمين ، تمعر «١» وجهه ، وتغير لونه ، فبشرهم بعذاب أليم. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر وعيد من لم يزك كنزه ، ذكر الحول التي تجب به الزكاة ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٣٦]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)

قلت : (عند اللّه) : معمول لعدة لأنها مصدر ، و(فى كتاب اللّه) : صفة لاثنى عشر ، و(يوم) : متعلق بالثبوت المقدر فى الخبر ، أي : ثابتة فى كتاب اللّه يوم خلق الأكوان والزمان ، وقوله : (منها) : أي : الأشهر ، ثم قال : (فيهن).

وضابط الضمير إن عاد على الجماعة المؤنثة ، حقيقة أو مجازا ، إن كانت أكثر من عشرة ، قلت : منها وفيها ، وإن كانت أقل من عشرة ، قلت : منهن وفيهن ، قال تعالى : يَأْكُلُهُنَّ «٢» وقال هنا : (فيهن). انظر الإتقان. و(كافة) :

حال من الفاعل أو المفعول.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ فى كل سنة عِنْدَ اللَّهِ فى علم تقديره ، اثْنا عَشَرَ شَهْراً : أولها المحرم ، وآخرها ذو الحجة. وأول من جعل أولها المحرم : عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه.

وهذه العدة ثابتة فِي كِتابِ اللَّهِ اللوح المحفوظ ، أو فى حكمه ، أو القرآن ، يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، أي : هذا أمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق اللّه الأجرام والأزمنة ، مِنْها أي : الأشهر أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ واحد فرد ، وهو رجب ، وثلاثة سرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ أي : تحريم الأشهر الحرم هو الدين القويم ، دين إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – وتمسكت به العرب حتى غيّره بعضهم بالنسيء ، فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ بهتك حرمتها والقتال فيها ، ثم نسخ بقوله : وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً أي : فى الأزمنة كلها كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً لأنهم ، إن قاتلتموهم فيها قاتلوكم فهذا نسخ لتحريم القتال فى الأشهر الحرم.

---

(١) أي يتغير ، وأصله : قلة النضارة وعدم إشراق اللون ، من قولهم : مكان أمعر ، وهو الجدب الذي

لا خصب فيه ... انظر النهاية فى غريب الحديث (معر) ، واللسان (معر).
(٢) من الآية ٤٦ من سورة يوسف.

(٣٧٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٠
وقال عطاء : لا يحل للناس أن يغزوا فى الأشهر الحرم ، ولا فى الحرم ، إلا أن يبدأوا بالقتال ، ويرده غزوه صلّى اللّه عليه وسلّم حنينا والطائف فى شوال وذى القعدة. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالنصر والمعونة ، وفيه بشارة وضمان لهم بالنصر بسبب تقواهم.
الإشارة : أهل الفهم عن اللّه : الأزمنة كلها عندهم حرم ، والأمكنة كلها عندهم حرام ، فهم يحترمون أوقاتهم ، ويغتنمون ساعاتهم لئلا تضيع. قال الحسن البصري : أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهيمكم ، يقول : كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه ، كذلك لا يحبون أن يخرجوا ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه وقال الجنيد رضى اللّه عنه : الوقت إذا فات لا يستدرك ، وليس شيء أعز من الوقت. هـ.
وكل جزء يحصل له من العمر غير خال من عمل صالح ، يتوصل به إلى ملك كبير لا يفنى ، ولا قيمة لما يوصل إلى ذلك لأنه فى غاية الشرف والنفاسة ، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح لأنفاسهم ولحظاتهم ، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم ، ولم يضيعوا أعمارهم فى البطالة والتقصير ، ولم يقنعوا من أنفسهم لمولاهم إلا بالجد والتشمير ، وإلى هذا الإشارة بقوله : (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) بتضييعها فى غير ما يقرب إلى اللّه. ثم أمر بجهاد القواطع ، التي تترك العبد فى مقام الشرك الخفي ، وبشّرهم بكونه معهم بالنصر والتأييد ، والمعونة والتسديد.
ثم عاب على المشركين ما أحدثوا من النسيء ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : آية ٣٧]
إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (٣٧)
قلت : (النسي ء) : التأخير ، يقال بالهمزة وبقلبها ياء.
يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا النَّسِيءُ ، وهو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر آخر ، وذلك أن العرب كانوا أصحاب حروب وإغارات ، وكانت محرمة عليهم فى الأشهر الحرم ، فيشق عليهم تركها ، فيجعلونها فى شهر حرام ، ويحرمون شهرا آخر بدلا منه ، وربما أحلوا المحرم وحرموا صفر ، حتى يكملوا فى العام أربعة أشهر محرمة ، وإنما ذلك زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ لأنه تحريم ما أحل اللّه ، وتحليل ما

حرم اللّه ، وهو كفر آخر ضموه إلى كفرهم ، يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا عن الحق ، ضلالا زائدا على ضلالا زائدا على ضلالهم ، أو يضلهم اللّه بذلك ، يُحِلُّونَهُ عاماً أي :
يحلون الشهر الحرام عاما ، ويحعلون مكانه آخر ، وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً ، فيتركونه على حرمته ، فكانوا تارة ينسئون وتارة يتركون.

(٣٨٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨١
قيل : أول من أحدث ذلك : جنادة بن عوف الكناني كان يقوم على جمل فى الموسم فينادى : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم ينادى من قابل : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه ، فتتبعه العرب.
ثم حرّموا شهرا آخر مكان المحرم لِيُواطِؤُا ليوافقوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ ، وهى الأربعة الحرم ، فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ عليهم من القتال فى الأشهر الحرم ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ أي : خذلهم وأضلهم ، والمزين حقيقة : اللّه ، أو الشيطان حكمة وأدبا. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ إلى طريق الرشد ، ما داموا على غيهم ، حتى يسلكوا سبيل نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم.
الإشارة : إنما تأخير التوبة واليقظة وترك السير إلى مقام التصفية والترقية ، زيادة فى البعد والقسوة ، يضل به الذين هجروا طريق التربية والتصفية ، عن مقام أهل الإحسان والمعرفة ، فتارة يحلون المقام مع النفس الأمارة ، ويقولون : قد انقطعت التربية ، وعدم الطبيب الذي يداويها ويخرجها عن وصفها ، وتارة يحرمون المقام معها والاشتغال بحظوظها وهواها ، ويقولون : البركة لا تنقطع ، والمدد لا ينعدم ، ليوافقوا بين الأمر بمجاهدتها فى قوله :
وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ، وبين من قال : قد انقطعت التربية ، زين لهم سوء أعمالهم ، واللّه لا يهدى القوم الكافرين إلى السير والوصول إلى ربهم.
ثم عاتبهم على التأخر عن الجهاد فى غزوة تبوك ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)
قلت : (اثاقلتم) : أصله : تثاقلتم ، أدغمت التاء فى الثاء ، وجلبت الهمزة للساكن ، وقرىء على الأصل ، وضمن معنى الإخلاد ، فعدّى بإلى.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ للجهاد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، اثَّاقَلْتُمْ أي : تباطأتم وأخلدتم إِلَى الْأَرْضِ كسلا وفشلا ، وكان ذلك فى غزوة تبوك ، أمروا بها بعد رجوعهم من الطائف ، فى وقت عسر ، وحر ، وبعد الشقة ، وكثرة العدو ، فشق عليهم ذلك ،

(٣٨١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٢

أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا وكدرها ، مِنَ الْآخِرَةِ ، بدل الآخرة ونعيمها ، فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : التمتع بها فى جانب الآخرة ، إِلَّا قَلِيلٌ مستحقر ، لسرعة فنائه ومزجه بالكدر.

إِلَّا تَنْفِرُوا مع رسوله إلى ما استنفرتم إليه ، يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً فى الدنيا والآخرة فى الدنيا : بالإهلاك بأمر فظيع ، كقحط وظهور عدو ، وغير ذلك من المهلكات ، وفى الآخرة : بعذاب النار.

وَيَسْتَبْدِلْ مكانكم قَوْماً غَيْرَكُمْ فى الدنيا ، يكونون مطيعين لله ورسوله ، كأهل اليمن وأمثالهم ، وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً إذ لا يقدح تثاقلكم فى نصر دينه شيئا ، فإنه الغنى عن كل شيء ، فى كل وقت. وقيل : الضمير للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم فإن اللّه وعده بالعصمة والنصرة ، ووعده حق ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لا يعجزه شيء ، فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد ، كما فعل معه فى الغار والهجرة ، على ما يأتى.

الإشارة : ما لكم إذا قيل لكم : انفروا إلى من يعرفكم بالله ، ويعلمكم كيف تجاهدون نفوسكم فى طلب مرضاة اللّه ، اثاقلتم وأخلدتم إلى أرض الحظوظ والشهوات ، أرضيتم بالحياة الدنيا الدنية ، بدل الحياة الأبدية ، فى الحضرة القدسية؟ أرضيتم بحياة الأشباح بدل حياة الأرواح؟ فما متاع الحياة الدنيا الفانية فى جانب الحياة الأبدية فى الحضرة العلية ، إلا نزر قليل حقير ذليل ، إلا تنفروا لجهاد نفوسكم ، يعذبكم عذابا أليما ، بغم الحجاب ، وشدة التعب والنصب ، وتوارد الخواطر والهموم ، وترادف الأكدار والغموم ، ويستبدل قوما غيركم يكونون عارفين بالله ، مرضيين عند اللّه ، راضين عن اللّه ، واللّه على كل شيء قدير.

ثم ذكر نصرته لرسوله بلا سبب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٤٠]

إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)

قلت : «إن» : شرط ، وجوابه محذوف ، دلّ عليه قوله : فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ أي : إن لم تنصروه فسينصره اللّه ، الذي نصره حين أخرجه الذين كفروا ، حال كونه ثانى اثنين ، فدل بنصره فى الماضي على نصره فى المستقبل ، وإسناد الإخراج إلى الكفرة لأن همهم بإخراجه أو قتله كان سببا لإذن اللّه له فى الخروج ، و(إذ هما) : بدل من (أخرجه) بدل البعض ، و(إذ يقول) : بدل ثان ، و(كلمة اللّه) : مبتدأ ، و(العليا) : خبر. وقرأ يعقوب : بالنصب عطفا على كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، والأول : أحسن للإشعار بأن كلمة اللّه عالية فى نفسها ، فاقت غيرها أم لا.

(٣٨٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٣

يقول الحق جل جلاله : إِلَّا تَنْصُرُوهُ تنصروا محمدا ، وتثاقلتم عن الجهاد معه ، فسينصره اللّه ، كما نصره حين أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا من مكة ، حال كونه ثانِيَ اثْنَيْنِ أي : لم يكن معه إلا رجل واحد ، وهو الصدّيق ، إِذْ هُما فِي الْغارِ نقب فى أعلى غار ثور ، وثور جبل عن يمين مكة ، على مسيرة ساعة. إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ : أبى بكر رضى اللّه عنه : لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا بالعصمة والنصرة.

روى أن المشركين طلعوا فوق الغار يطلبون رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حين فقدوه من مكة ، فأشفق أبو بكر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال عليه الصلاة والسلام : «ما ظنّك باثنين اللّه ثالثهما» «١» فأعماهم اللّه عن الغار ، فجعلوا يترددون حوله فلم يروه. وقيل : لما دخل الغار بعث اللّه حمامتين ، فباضتا فى أسفله ، والعنكبوت نسجت عليه.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ أي : أمنه الذي تسكن إليه القلوب ، عَلَيْهِ أي : على رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو على صاحبه ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها ، يعنى الملائكة ، أنزلهم ليحرسوه فى الغار ، أو يوم بدر وأحد وغيرهما ، فتكون على هذا : الجملة معطوفة على : (فقد نصره اللّه). وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا وهى الشرك ، أو دعوى الكفر ، السُّفْلى . وَكَلِمَةُ اللَّهِ التي هى التوحيد ، أو دعوة الإسلام ، هِيَ الْعُلْيا حيث خلص رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم من بين الكفار ، ونقله إلى المدينة ، ولم يزل ينصره حتى ظهر التوحيد وبطل الكفر ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ غالب على أمره ، حَكِيمٌ فى أمره وتدبيره.

الإشارة : ما قيل فى حق الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم يقال فى حق ورثته ، الداعين إلى اللّه بعده من العارفين باللّه ، فيقال لمن تخلف عن صحبة وليّ عصره وشيخ تربية زمانه : إلا تنصروه فقد نصره اللّه وأعزه ، وأغناه عن غيره ، فمن صحبه فإنما ينفع نفسه ، فقد نصره اللّه حين أنكره أهله وأبناء جنسه ، كما هى سنة اللّه فى أوليائه ، لأن الداخل على اللّه منكور ، والراجع إلى الناس مبرور ، فمن دخل مع الخصوص قطعا أنكرته العموم ، فنخرجه ثانى اثنين هو وقلبه ، فيأوى إلى كهف الأنس باللّه ، والوحشة

مما سواه ، فيقول لقلبه : لا تحزن إن اللّه معنا ، فينزل اللّه عليه سكينة الطمأنينة والتأييد ، وينصره بأجناد أنوار التوحيد والتفريد ، فيجعل كلمة أهل الإنكار السفلى ، وكلمة الداعين إلى اللّه هى العليا ، واللّه عزيز حكيم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (فضائل أصحاب النبي ، باب مناقب المهاجرين) ومسلم فى : (فضائل الصحابة ، باب فضائل أبى بكر رضى اللّه عنه).

ثم نهضهم إلى الجهاد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٤٢)

قلت : (يهلكون) : حال من فاعل (يحلفون) ، أو بدل منه. قال فى القاموس : (الشقة) – بالضم والكسر : البعد والناحية يقصدها المسافر ، والسفر البعيد والمشقة. هـ.

يقول الحق جل جلاله : انْفِرُوا للجهاد مع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، حال كونكم خِفافاً نشاطا ، وَثِقالًا كسالى لمشقته ، أو (خفافا) لمن قلّ عياله ، (و ثقالا) لمن كثر عياله ، أو خفافا لمن كان فقيرا ، وثقالا لمن كان غنيا ، أو خفافا ركبانا ، وثقالا مشاة ، أو خفافا بلا سلاح ، وثقالا بالسلاح ، أو خفافا شبابا ، وثقالا شيوخا ، أو خفافا أصحاء ، وثقالا مرضى. ولذللك قال ابن أمّ مكتوم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : أعليّ الغزو يا رسول اللّه؟ قال : «نعم» ، حتى نزل : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ «١».

وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي : بما أمكن إمّا بهما أو بأحدهما ، ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ من تركه ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما فى ذلك من الأجر العظيم والخير الجسيم ، أي : لو علمتم ذلك ما قعدتم خلف سرية.

ثم عاتب من أراد التخلف ، فقال : لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً من الدنيا ، وَسَفَراً قاصِداً متوسطا أو قريبا ، لَاتَّبَعُوكَ أي : لو كان ما دعوا إليه أمرا دنيويا ، كغنيمة كبيرة ، أو سفرا متوسطا ، لا تبعوك ولوافقوك على الخروج ، وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ أي : المسافة التي تقطع بمشقة ، وذلك أن الغزوة – أي : تبوك – كانت إلى أرض بعيدة ، وكانت فى شدة الحر ، وطيب الثمار ، فشقت عليهم. وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ

أي : المتخلفون إذا رجعت من تبوك ، معتذرين ، يقولون : لَوِ اسْتَطَعْنا الخروج لَخَرَجْنا مَعَكُمْ ، لكن لم تكن لنا استطاعة من جهة العدة والبدن وهذا إخبار بالغيب قبل وقوعه. يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ بوقوعها فى العذاب ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى ذلك لأنهم كانوا مستطيعين الخروج ، وإنما قعدوا كسلا وجبنا ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٦١ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٥

الإشارة : انفروا إلى جهاد أنفسكم وقطع علائقكم وعوائقكم ، لكى تستأهلوا لدخول حضرة ربكم ، وسافروا إلى من يعينكم ويقوى مدد أجناد أنواركم ، وهم المشايخ العارفون ، فسيروا إليهم خفافا وثقالا ، نشّاطا وكسّالا ، والغالب أن النفس يشق عليها ما يكون سببا فى قتلها ، فلا ينفر إليها خفافا أول مرة إلا النادر.

ثم أمر ببذل الأموال والمهج فى طريق الوصول إلى حضرة اللّه ، وعاتب من تخلف عن ذلك وطلب الراحة والبقاء فى وطن نفسه. قال القشيري : أمرهم بالقيام بحقه ، والبدار إلى أداء أمره على جميع أحوالهم ، خِفافاً أي : فى حال حضور قلوبكم ، فلا يمسّكم نصب المجاهدات ، وَثِقالًا أي : إذا رددتم إليكم فى مقاساة نصب المكابدات. فإنّ البيعة أخذت عليكم فى المنشط والمكره. هـ. ومثله عند الورتجبي عن أبى عثمان قال : خفافا وثقالا فى وقت النشاط والكراهية ، فإن البيعة على هذا وقعت ، كما روى عن جرير بن عبد اللّه أنه قال : بايعنا رسول اللّه على المنشط والمكره. هـ.

ثم عاتب رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم لشدة قربه ، وعظيم منزلته ، وتلطّف له على إذنه للمنافقين فى التخلف ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه – عليه الصلاة والسلام – ملاطفا له فى الكلام : عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ، لم بادرت إلى الإذن إلى المنافقين فى التخلف ، واستكفيت بالإذن العام فى قولنا : فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ «١» ، فإن الخواص من المقربين لا يكتفون بالإذن العام ، بل يتوقفون إلى الإذن الخاص.

ولذلك عوتب يونس عليه السّلام. والمعنى : لأى شيء أذنت لهم فى القعود حين استأذنوك واعتذروا لك بأكاذيب؟ وهلا توقفت حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا فى الاعتذار ، وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ فيه.

قال ابن عطية : قوله : الَّذِينَ صَدَقُوا يريد : فى استئذانك ، وأنك لو لم تأذن لهم لخرجوا معك ، وقوله :

وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ يريد : أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدّك ، وهم كذبة ، قد عزموا على

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٦

العصيان ، أذنت أو لم تأذن. هـ. قال ابن جزى : كانوا قد قالوا : استأذنوه فى القعود ، فإن أذن لنا قعدنا ، وإن لم يأذن قعدنا ، وإنما كان يظهر الصادق من الكاذب لو لم يأذن لهم ، فحينئذ كان يقعد العاصي والمنافق ، ويسافر المطيع الصادق. هـ.

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أي : ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك فى أن يجاهدوا ، بل الخلّص منهم يبادرون إليه ، ولا يوقفونه على الإذن فيه ، فضلا عن أن يستأذنوا فى التخلف عنه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ فيثيبهم ويقربهم ، وهى شهادة لهم بالتقوى وعدة لهم بثوابه.

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ فى التخلف الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وخصص ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر إشعارا بأن الباعث على الجهاد والوازع عنه : الإيمان وعدم الإيمان بهما ، وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ أي : شكّت فى الإيمان والبعث ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ : يتحيرون. ونزلت الآية فى عبد اللّه بن أبىّ والجدّ بن قيس ، وأمثالهما من المنافقين.

الإشارة : لا ينبغى للعارفين بالله الداعين إلى اللّه ، أن يأذنوا لمن استأذنهم فى التخلف عن الجهاد الأكبر ، ويرخصون له فى البقاء مع النفس والهوى ، وجمع حطام الدنيا ، شفقة ورحمة لأن الشفقة فى هذا المعنى لا تليق بأهل التربية ، فقد قالوا : الشفقة والرطوبة لا تليق بشيوخ التربية ، بل لا يليق بهم إلا الأمر بما تموت به النفوس ، وتحيا به الأرواح ، وإن كان فيه حتفهم. وقد قالوا أيضا : إذا كان الشيخ يحرش على المريد «١» ، ويقدمه للمهالك فى نفسه أو ماله أو جاهه ، فهو دليل على أنه يحبه وينصحه ، وإذا كان يرخص له فى أمور نفسه ، ويأمره بالمقام معها ، فهو غير ناصح له.

وأما الإذن فى التجريد وعدمه : فإن رآه أهلا له لنفوذ عزمه ، فيجب عليه أن يأمره به ، وإن رآه لا يليق

به لعوارض قامت به ، منعه منه ، حتى ينظر ما يفعل اللّه به ، وسأل رجل القطب ابن مشيش ، فقال له : يا سيدى أستأذنك فى مجاهدة نفسى؟ فقال له : لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ. إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ.

---

(١) أي : يدفعه.

ثم ذكر سبب تخلفهم ، وهو عدم الإرادة ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٦ الى ٤٨]

وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (٤٨)

قلت : (ما زادوكم إلا خبالا) قال بعضهم : هو استثناء منقطع ، أي : مازادوكم شيئا ، لكن خبالا يحدثونه فى عسكركم بخروجهم. قال ذلك لئلا يلزم أن الخبال واقع فى عسكر المسلمين ، لكن خروجهم يزيد فيه. وفيه نظر لأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعا ، ويمكن هنا أن يكون متصلا لأن غزوة تبوك خرج فيها كثير من المنافقين ، فحصل الخبال ، فلو خرج هؤلاء المستأذنون فى التخلف ، القاعدون ، لزاد الخبال بهم.

وقوله : (و لأوضعوا) أي : أسرعوا ، والإيضاع : الإسراع ، و(خلالكم) : ظرف ، أي : لأسرعوا بينكم بالمشي بالنميمة ، وجملة : (يبغونكم) : حال من فاعل «أوضعوا».

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ أَرادُوا أراد المنافقون الْخُرُوجَ إلى الغزو معكم ، وكانت لهم نية فى ذلك لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً أي : لاستعدوا له أهبته قبل أوانه. فما فعلوا ، وَلكِنْ تثبطوا لأنه تعالى كره انْبِعاثَهُمْ ، أي : نهوضهم للخروج ، فَثَبَّطَهُمْ أي : حبسهم وكسر عزمهم ، كسلا وجبنا ، وَقِيلَ لهم :

اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ من النساء والصبيان وذوى الأعذار ، وهو ذم لهم وتوبيخ. والقائل فى الحقيقة هو اللّه تعالى ، وهو عبارة عن قضائه عليهم بالقعود ، وبناه للمجهول تعليما للأدب. قال البيضاوي : هو تمثيل لإلقاء اللّه كراهة الخروج فى قلوبهم ، أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقعود ، أو حكاية قول بعضهم

لبعض ، أو إذن الرسول لهم. هـ.
لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مازادكم خروجهم شيئا إِلَّا خَبالًا فسادا وشرا. والاستثناء من أعم الأحوال ، فلا يلزم أن يكون الخبال موجودا ، وزاد بخروجهم ، أو إذا وقع خبال بحضور بعضهم معكم مازادكم هؤلاء القاعدون بخروجهم إلا خبالا زائدا على ما وقع. وَلَأَوْضَعُوا أي : لأسرعوا خِلالَكُمْ أي : فيما بينكم ، فيسرعون فى المشي بالنميمة والتخليط والهزيمة والتخذيل ، يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ أي : حال كونهم طالبين لكم الفتنة ، بإيقاع

(٣٨٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٨
الخلل بينكم ، حتى تختلف قلوبكم ورأيكم ، فيذهب ريح نصركم ، وَفِيكُمْ قوم سَمَّاعُونَ لَهُمْ فيقبلون قولهم ، إما بحسن الظن بهم ، أو لنفاق بهم ، فيقع الخلل بسبب قبول قولهم ، أو فيكم سماعون لأخباركم فينقلونه إلى غيركم ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ فيعلم ضمائرهم ، وما ينشأ عنهم ، وسيجازيهم على فعلهم.
لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ أي : تشتيت أمرك وتفريق أصحابك مِنْ قَبْلُ أي : من قبل هذا الوقت ، كرجوعهم عنك يوم أحد ، ليوقعوا الفشل فى الناس ، وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ أي : دبروها من كل وجه ، فدبروا الحيل ، ودوروا الآراء فى إبطال أمرك ، فأبطل اللّه سعيهم ، حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ أي : علا دينه ، وَهُمْ كارِهُونَ أي : على رغم أنفهم ، والآيتان تسلية للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنين على تخلفهم ، وبيان ما ثبطهم اللّه لأجله وكره انبعاثهم له ، وهتك أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وإزاحة اعتذارهم. انظر البيضاوي.
الإشارة : الناس على ثلاثة أقسام : قسم أقامهم الحق تعالى لخدمة أنفسهم وحظوظهم عدلا. وقسم أقامهم الحق تعالى لخدمة معبودهم فضلا. وقسم اختصهم بالتوجه إلى محبوبهم رحمة وفضلا.
فالأولون : أثقلهم بكثرة الشواغل والعلائق ، ولو أرادوا الخروج منها لأعدوا له عدة بالتخفيف والزهد ، ولكن كره اللّه انبعاثهم فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين ، أقامهم لإصلاح عالم الحكمة ، وأما أهل الخدمة : فرآهم لم يصلحوا لصريح معرفته ، فشغلهم بخدمته ، ولو أرادوا الخروج من سجن الخدمة إلى فضاء المعرفة لأعدوا له عدة بصحبة أهل المعرفة الكاملة. وأما أهل التوجه إلى محبته وصريح معرفته فلم يشغلهم بشيء ، ولم يتركهم مع شيء ، بل اختصهم بمحبته ، وقام لهم بوجود قسمته ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ «١». وكل قسم لو دخل مع من فوقه على ما هو عليه ، لأفسده ، وما زاده إلا خبالا وشرا. واللّه تعالى أعلم.

ولما دعا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم الناس إلى غزوة تبوك ، قال له الجدّ بن قيس – من كبار المنافقين – : ائذن لى فى القعود ، ولا تفتنى برؤية بنات بنى الأصفر ، فإنى لا أصبر على النساء ، فأنزل اللّه فى شأنه «٢» :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٤٩ الى ٥٠]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)

---

(١) الآية ٧٤ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه مطولا ابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٠٤) وذكره الواحدي فى الأسباب (٢٥٢) ، من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٨٩

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي فى القعود ، وَلا تَفْتِنِّي ولا توقعنى فى الفتنة ، أي : فى العصيان والمخالفة ، بأن تأذن لى ، وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف ، أذن أو لم يأذن ، أو فى الفتنة بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لهم بعدي ، أو فى الفتنة بنساء الروم ، كما قال الجدّ بن قيس : قد علمت الأنصار أنى مولع بالنساء ، فلا تفتنى ببنات بنى الأصفر ، ولكنى أعينك بمال ، واتركني.

قال تعالى : أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا أي : إن الفتنة هى التي سقطوا فيها ، وهى فتنة الكفر والنفاق ، لا ما احترزوا عنه ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ ، أي : دائرة بهم يوم القيامة ، أو الآن لأن إحاطة أسبابها بهم كوجودها ، ومن أعظم أسبابها : بغضك وانتظارهم الدوائر بك.

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ كنصر أو غنيمة فى بعض غزواتك ، تَسُؤْهُمْ لفرط حسدهم وبغضهم ، وَإِنْ تُصِبْكَ فى بعضها مُصِيبَةٌ ككسر أو شدة كيوم أحد ، يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ أي : يتبجحوا بتخلفهم أو انصرافهم ، واستحمدوا رأيهم فى ذلك ، وَيَتَوَلَّوْا عن متحدّثهم ومجمعهم ، أو عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وَهُمْ فَرِحُونَ مسرورون بما صنعوا من التخلف عن الجهاد.

الإشارة : ومن ضعفاء اليقين من يستأذن المشايخ فى البقاء مع الأسباب وفتنة الأموال ، ويقول : لا تفتنى بالأمر بالتجريد ، فإنى لا أقدر عليه ، ويرضى بالسقوط فى فتنة الأسباب والشواغل ، فإن ضم إلى ذلك الإنكار على أهل التجريد ، بحيث إذا رأى منهم نكبة أو كسرة من أجل التجريد ، والخروج

عن عوائد الناس وما هم عليه ، فرح ، وإذا رأى منهم نصرا وعزا انقبض ، ففيه خصلة من النفاق ، والعياذ بالله.

ثم رد عليهم ، بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٥١ الى ٥٣]

قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (٥٣)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٠

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم يا محمد : لَنْ يُصِيبَنا من حسنة أو مصيبة ، إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا فى اللوح المحفوظ ، لا يتغير بموافقتكم ولا بمخالفتكم ، هُوَ مَوْلانا متولى أمرنا وناصرنا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أي : وإليه فليفوض المؤمنون أمورهم رضا بتدبيره لأن مقتضى الإيمان ألا يتوكل إلا على اللّه إذ لا فاعل سواه ، قُلْ لهم : هَلْ تَرَبَّصُونَ أي : تنتظرون بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ أي : إلا إحدى العاقبتين اللتين كل منهما حسنى : إما النصر وإما الشهادة ، وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أيضا إحدى العاقبتين السوأتين : إما أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ بقارعة من السماء ، أَوْ بِأَيْدِينا أي : أو بعذاب بأيدينا ، وهو القتل على الكفر ، فَتَرَبَّصُوا ما هو عاقبتنا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ما هو عاقبتكم.

الإشارة : ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب ، والسكون إلى رب الأرباب ، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختيار ، وظلمة الأكدار والأغيار : أحدها : تحقيق العلم بسبقية القضاء والقدر ، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه. قال تعالى : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ «١» ، وليتأمل قول الشاعر :

ما لا يقدّر لا يكون بحيلة أبدا ، وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن فى وقته وأخو الجهالة متعب محزون

وقد ورد عن سيدنا على – كرم اللّه وجهه – أنه قال : سبع آيات : من قرأها أو حملها معه لو انطبقت السماء على الأرض لجعل اللّه له فرجا ومخرجا من أمره ، فذكر هذه الآية : قُلْ لَنْ يُصِيبَنا ، وآية فى سورة يونس :

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ... الآية «٢» ، وآيتان فى سورة هود : وَما مِنْ دَابَّةٍ .. ، الآية «٣» ، إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ... الآية «٤» ، وقوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها

وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٥» ، ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٦» ووَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ... فى الزمر إلى قوله : عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ «٧» ، ونظمها بعضهم فقال :

---

(١) من الآية ١٧ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة يونس. [.....]

(٣) الآية ٦ من سوة هود.

(٤) الآية ٥٦ من سورة هود.

(٥) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت.

(٦) الآية ٢ من سورة فاطر

(٧) الآية ٣٨ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩١

عليك بقل ، وإن ، وما ، إنى ، فى هود وكأين ، ما يفتح ، ولئن مكملا

وإنما أشار رضى اللّه عنه إلى معنى الآيات لا إلى لفظها لأنها كلها تدل على النظر لسابق القدر ، والتوكل على الواحد القهار.

الأمر الثاني : تحقق العبد برأفته – تعالى – ورحمته ، وأنه لا يفعل به إلا ما هو فى غاية الكمال فى حقه ، إن كان جمالا فيقتضى منه الشكر ، وإن كان جلالا فيقتضى منه الصبر ، وفيه غاية التقريب والتطهير وطى المسافة بينك وبين الحبيب. وفى الحكم : «خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وتردّ فيه إلى وجود ذلتك ، إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك ، الفاقة أعياد المريدين». إلى غير ذلك من كلامه فى هذا المعنى.

الأمر الثالث : تحققه بخالص التوحيد فإذا علم أن الفاعل هو اللّه ولا فاعل سواه رضى بفعل حبيبه ، كيفما كان ، كما قال ابن الفارض رضى اللّه عنه :

أحبّاى أنتم ، أحسن الدّهر أم أسا فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخلّ

وكما قال صاحب العينية :

تلدّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

تحكّم بما تهواه فىّ فإنّنى فقير لسلطان المحبّة طائع

فهذه الأمور الثلاثة ، إذا تفكر فيها العبد دام حبوره وسروره ، وسهلت عليه شئونه وأموره.

وقوله تعالى : (قل هل تربصون بنا ...) الآية ، مثله يقول أهل النسبة لأهل الإنكار : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ، إما حسن الخدام بالموت على غاية الإسلام ، يموت المرء على ما عاش عليه ، وإما الظفر بمعرفة الملك العلام على غاية الكمال والتمام ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعقوبة من عنده بسبب إذايتكم ، أو بدعوة من عندنا إذا أذن لنا. وباللّه التوفيق.

ثمّ «١» ذكر سبب إبطال عملهم وصدقاتهم ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٥٤]

وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (٥٤)

---

(١) تفسير قوله تعالى : قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .. الآية ٥٣ ، لا يوجد فى النسخ الخطية التي بين أيدينا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٢

قلت : (أن تقبل) : بدل من ضمير (منعهم) ، أو على حذف الجار ، و(إلا أنهم كفروا) : فاعل ، أي : وما منع قبول نفقاتهم ، أو من قبول نفقاتهم ، إلا كفرهم باللّه وبرسوله ، ويحتمل أن يكون الفاعل ضميرا يعود على اللّه تعالى و(أنهم) مفعول من أجله.

يقول الحق جل جلاله : وَما مَنَعَهُمْ وما منع المنافقين من قبول نفقاتهم وأعمالهم إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ إلا كفرهم باللّه وبرسوله ، أو : ما منعهم اللّه من قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم باللّه وبرسوله ، وكونهم لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسالى متثاقلين ، وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كارِهُونَ أي : لا يعطون المال إلا فى حال كراهيتهم للإعطاء لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون بتركها عقابا ، فهم يعطون ذلك رياء ونفاقا.

الإشارة : لا يتقبل اللّه إلا عمل المخلصين ، إما إخلاص العوام لقصد الثواب وخوف العقاب ، أو إخلاص الخواص لإظهار العبودية وإجلال الربوبية ، وعلامة الإخلاص : وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل ، أو قبلها ، والغيبة عنه بعد الوقوع ، واللّه تعالى أعلم.

ثم نهى عن الاغترار بحال المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٥٥]

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ

(٥٥)

يقول الحق جل جلاله : فَلا تُعْجِبْكَ ، أيها الناظر إلى المنافقين ، كثرة أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ فإن ذلك استدراج ووبال لهم إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بسبب ما يكابدون فى جمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من الأمراض والمصائب ، أو ما ألزموا به من أداء زكاتها ، مع كونهم لا يرجون خلفها وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ فلا يستوفون التمتع بها فى الدنيا لقصر مدتها ، ولا يجدون ثواب ما أعطوا منها لعدم إيمانهم. وأصل الزهوق : الخروج بصعوبة ، لصعوبة خروج أرواحهم ، والعياذ بالله.

الإشارة : ينبغى لمريد الآخرة ألا يستحسن شيئا من الدنيا ، التي هى مدرجة الاغترار ، بل ينبغى له أن ينظر إليها وإلى أهلها بعين الغض والاحتقار ، حتى ترتفع همته إلى دار القرار ، وينبغى لمريد الحق – تعالى – ألا يحقر

(٣٩٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٣

شيئا من مصنوعاته ، ولا يصغر شيئا من تجلياته ، إذ ما فى الوجود إلا تجليات العلى الكبير ، إما من مظاهر اسمه الحكيم ، أو اسمه القدير ، فيعطى الحكمة حقها والقدرة حقها ، ويتلون مع كل واحدة بلونها ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وصف نفاق المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)

قلت : الفرق : الخوف ، و(مدخلا) : أصله : متدخلا ، مفتعل من الدخول ، قلبت التاء دالا وأدغمت.

يقول الحق جل جلاله : وَيَحْلِفُونَ لكم بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ أي : من جملة المسلمين ، وَما هُمْ مِنْكُمْ لكفر قلوبهم ، وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ : يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين ، فيظهرون الإسلام تقية وخوفا لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أي : حصنا يلتجئون إليه ، أَوْ مَغاراتٍ غيرانا ، أَوْ مُدَّخَلًا ثقبا أو جحرا ينجحرون فيه. وقرأ يعقوب : «مدخلا» بضم الميم وسكون الدال ، أي : دخولا ، أو مكانا يدخلون فيه ، لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ أي : يسرعون إسراعا لا يردهم شيء كالفرس الجموح.

الإشارة : قد يتطفل على القوم من ليس منهم ، فيظهر الوفاق ويبطن النفاق ، كحال أهل النفاق ،

فينبغى أن يستر ويحلم عليه ، كما فعل عليه الصلاة والسلام – بالمنافقين ، تلطف معهم فى حياتهم ، واللّه يتولى سرائرهم ، وباللّه التوفيق.

ثم شرع يتكلم فى مساوئ المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (٥٩)

قلت : (لو) : شرطية ، و(أنهم) : قال سيبويه : مبتدأ ، والخبر محذوف : ولو رضاهم ثابت أو موجود .. إلخ. وقال غيره : فاعل بفعل محذوف ولو ثبت رضاهم ، وجواب (لو) : محذوف ، أي : ولو أنهم رضوا لكان خيرا لهم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٤

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ ومن المنافقين مَنْ يَلْمِزُكَ أي : يعيبك ، ويعترض عليك فِي قسم الصَّدَقاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وفرحوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها شيئا إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ. والآية نزلت فى ابن أبي رأس المنافقين ، قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنّما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم ، ويزعم أنّه يعدل. وقيل : فى ذى الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقسم غنائم حنين ، فاستعطف قلوب أهل مكة ، فآثرهم بالعطاء ، فقال : اعدل يا رسول اللّه ، فقال : «ويلك ، إن لم أعدل فمن يعدل؟» «١».

قال تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أي : بما أعطاهم الرسول من الغنيمة ، وذكر اللّه للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول – عليه الصلاة والسلام – كان بأمر اللّه ووحيه ، فكأنه فعله هو. وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ أي : كفانا فضله ، سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ صدقة أو غنيمة أخرى ، فيؤتينا أكثر مما أتانا ، إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ فى أن يغنينا من فضله وجوده. فلو فعلوا هذا لكان خيرا لهم من اعتراضهم عليك ، الموجب لهم المقت والعذاب.

الإشارة : لا يكون المؤمن كاملا حتى يستوى عنده المنع والعطا ، والفقد والوجد ، والفقر والغنى ، والعز والذل.

وأما إن كان فى حالة العطاء والوجد يفرح ، وفى حالة المنع والفقد يسخط ، فلا فرق بينه وبين أهل النفاق ، إلا من حيث التوسم بالإيمان ، ولو أنه رضى بما قسم اللّه له ، واكتفى بعلمه ، ورغب اللّه فى

زيادته من فضله ، لكان خيرا له وأسلم. واللّه تعالى أعلم وأحكم.
ثم بيّن مصرف الصدقات الواجبة قطعا لأطماع من لا يستحقها ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : آية ٦٠]
إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)
يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا تدفع الصَّدَقاتُ الواجبة – أي : الزكاة – لهؤلاء الثمانية ، وهذا يرجّح أن لمزهم كان فى قسم الزكاة لا فى الغنائم ، واختصاص دفع الزكاة بهؤلاء الثمانية مجمع عليه ، واختلف :
هل يجب تعميمهم؟ فقال مالك : ذلك إلى الإمام ، إن شاء عمم وإن شاء خصص ، وإن لم يلها الإمام فصاحب المال

---

(١) أخرجه البخاري فى (المناقب ، باب علامات النبوة) ومسلم فى (الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) من حديث أبى سعيد الخدري – رضى اللّه عنه – .

مخير ، وبه قال أبو حنيفة وأحمد ، وأفتى به بعض الشافعية ، وقال الشافعي : يجب أن تقسم على هذه الأصناف بالسواء ، إن وجدت.
أولها : الفقير : وهو من لا شيء له ، وثانيها : المسكين : وهو من له شيء لا يكفيه. فالفقير أحوج ، وهو مشتق من فقار الظهر ، كأنه أصيب فقاره ، والمسكين من السكون ، كأن العجز أسكنه. ويدل على هذا قوله تعالى : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ «١» ، فسماهم مساكين مع ملكهم السفينة ، وأنه صلّى اللّه عليه وسلّم سأل المسكنة وقيل بالعكس ، لقوله تعالى : أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ «٢». وقيل : هما سواء. وَالْعامِلِينَ عَلَيْها أي : الساعين فى تحصيلها وجمعها ، ويدخل فيهم الحاشر والكاتب والمفرق ، ولا بأس أن يعلف خيلهم منها ، ويضافون منها بلا سرف. وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ قال مالك : هم كفار ظهر ميلهم للإسلام ، فيعطون ترغيبا فى الإسلام. وقيل : قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة ، فيعطون ليتمكن الإسلام فى قلبهم ، وحكمهم باق ، وقيل : أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظائرهم.
وَفِي الرِّقابِ أي : فى فك الرقاب ، يشترون ويعتقون. وَالْغارِمِينَ ، أي : من عليهم دين ، فيعطى ليقضى دينه ، ويشرط أن يكون استدانه فى غير فساد ولا سرف ، وليس له ما يبيع فى قضائه. وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ

يعنى : الجهاد ، فيعطى منها المجاهدون وإن كانوا أغنياء ، ويشترى منها آلة الحرب ، ولا يبنى منها سور ولا مركب. وَابْنِ السَّبِيلِ وهو الغريب المحتاج لما يوصله لبلده ، ولم يجد مسلفا ، إن كان مليّا ببلده ، وإلا أعطى مطلقا.

فرض اللّه ذلك فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ أي : حقّا محدودا عند اللّه. قال ابن جزى : ونصبه على المصدر- يعنى : لفعل محذوف كما تقدم- فإن قيل : لم ذكر مصرف الزكاة فى تضاعيف ذكر المنافقين؟

فالجواب : أنه خص مصرف الزكاة فى تلك الأصناف ليقطع طمع المنافقين فيها ، فاتصلت هذه الآية فى المعنى بقوله : (و منهم من يلمزك فى الصدقات ..). هـ. (وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) يضع الأشياء فى مواضعها.

الإشارة : إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين ، الذين افتقروا من السّوى ، وسكنوا فى حضرة شهود المولى. وفى الحكم : «ورود الفاقات أعياد المريدين ، ربما وجدت من المزيد فى الفاقة ما لا تجده فى الصوم والصلاة ، الفاقات بسط المواهب. إن أردت بسط المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك. إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ».

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ١٦ من سورة البلد.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٦

وقال الهروي : الفقر صفة مهجورة ، وهو ألدّ ما يناله العارف ، لكونها تدخله على اللّه ، وتجلسه بين يدى اللّه ، وهو أعلم المقامات حكما لقطع العوائق ، والتجرد من العلائق ، واشتغال القلب باللّه. قيل : الفقير الصادق لا يملك ولا يملك. وقال الشبلي : الفقير لا يستغنى بشيء دون اللّه. وقال الشيخ ابن سبعين رضى اللّه عنه : الفقير هو الذي لا يحصره الكون. هـ. يعنى : لخروج فكرته عن دائرة الأكوان.

وقال القشيري : الفقير الصادق عندهم : من لا سماء تظله ، ولا أرض تقلّه ، ولا سهم يتناوله ، ولا معلوم يشغله ، فهو عبد اللّه باللّه. هـ.

وقال السهروردي فى عوارفه : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر لأن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر والزهد ، مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي ، وإن كان فقيرا زاهدا.

وقال بعضهم : نهاية الفقر بداية التصوف لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني ، والخروج من كل

خلق دنى ، لكنهم اتفقوا ألّا دخول على اللّه إلا من باب الفقر ، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم.

وقال أبو إسحاق الهروي أيضا : من أراد أن يبلغ الشرف كل الشرف فليختر سبعا على سبع ، فإن الصالحين اختاروها حتى بلغوا سنام الخير. اختاروا الفقر على الغنى ، والجوع على الشبع والدّون على المرتفع ، والذلّ على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح ، والموت على الحياة. هـ.

وقال بعضهم :

إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذرا أن يدخله فيفسد عليه فقره ، كما يحترز الغنى من الفقر حذرا أن يفسد عليه غناه.

قال بعض الصالحين : كان لى مال ، فرأيت فقيرا فى الحرم جالسا منذ أيام ، ولا يأكل ولا يشرب وعليه أطمار رثة ، فقلت : أعينه بهذا المال فألقيته فى حجره ، وقلت : استعن بهذا على دنياك ، فنفض بها فى الحصباء ، وقال لى :

اشتريت هذه الجلسة مع ربى بما ملكت ، وأنت تفسدها علىّ؟ ثم انصرف وتركنى ألقطها. فو اللّه ما رأيت أعز منه لمّا بدّدها ، ولا أذل منى لما كنت ألقطها. هـ.

وكان بعضهم إذا أصبح عنده شيء أصبح حزينا ، وإذا لم يصبح عنده شيء أصبح فرحا مسرورا ، فقيل له :

إنما الناس بعكس هذا ، فقال : إنى إذا لم يصبح عندى شيء فلى برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أسوة ، وإذا أصبح لى شيء لم يكن لى برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أسوة حسنة. هـ. وجمهور الصوفية : يفضلون الفقير الصابر على الغنى الشاكر ، ويفضلون الفقر فى الجملة على الغنى لأنه- عليه الصلاة والسلام- اختاره ، وما كان ليختار المفضول. وشذ منهم يحيى بن معاذ الواعظ وأحمد بن عطاء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٧

قال القشيري : كان ابن عطاء يفضل الغنى على الفقر ، فدعا عليه الجنيد فأصيب عقله ثلاثين سنة ، فلما رجع إليه عقله قال : إنما أصابنى ما أصابنى بدعاء الجنيد. وتكلم يحيى بن معاذ ، ففضل الغنى على الفقر ، فأعطاه بعض الأغنياء ثلاثين ألف درهم ، فدعا بعض المشايخ عليه ، فقال : لا بارك اللّه له فيها ، فخرج عليه اللص فنهبه إياها.

هـ. وحكى عن أبى يزيد البسطامي : أنه قال : أسرى بروحى ، فرأيت كأنى واقف بين يدى اللّه ،

فسمعت قائلا يقول : يا أبا يزيد ، إن أردت القرب منا فأتنا بما ليس عندنا ، فقلت : يا مولاى وأي شيىء ليس عندك ، ولك خزائن السماوات والأرض؟ فسمعت : يا أبا يزيد ، ليس عندي ذل ولا فقر ، فمن أتانى بهما بلّغته. هـ.

وقال فى الإحياء : الفقر المستعاذ منه : فقر المضطر ، والمسئول هو : الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى اللّه عز وجل. هـ. قلت : والأحسن أن المستعاذ منه هو : فقر القلوب من اليقين ، فيسكنها الجزع والهلع ، والفقر المسئول هو : التخفيف من الشواغل والعلائق ، واللّه تعالى أعلم.

وقد تكلم القشيري هنا على أخذ الزكاة وتركها ، فقال : من أهل المعرفة من رأى أنّ أخذ الزكاة المفروضة أولى ، قالوا : لأن اللّه- سبحانه- جعل ذلك ملكا للفقير ، فهو أحل له من المتطوع به.

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة لأقوام مستحقة ، ورأوا الإيثار على الإخوان أولى ، فلم يزاحموا أرباب السهمان ، وتحرجوا من أخذ الزكاة ، ومنهم من قال : إن ذلك وسخ الأموال ، وهو لأصحاب الضرورات. وقالوا : نحن آثرنا الفقر اختيارا .. فلم يأخذوا الزكاة المفروضة. هـ.

وقوله تعالى : (و العاملين عليها) : هم : المستعدون للمواهب بالتفرغ والتجريد ، (و المؤلفة قلوبهم) على حضرة محبوبهم ، والجادّون فى فك الرقاب من الجهل والغفلة وهم أهل التذكير ، الداعون إلى اللّه ، (و الغارمين) أي :

الدافعون أموالهم ومهجهم فى رضى محبوبهم ، فافتقروا فاستحقوا حظهم من المواهب والأسرار ، و(فى سبيل اللّه) أي : والمجاهدون أنفسهم فى مرضاة اللّه ، (و ابن السبيل) : السائحين فى طلب معرفة اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر نوعا آخر من مساوئ المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٦١]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٣٩٨

قلت : (قل أذن خير) : من قرأ بالإضافة ف (لكم) : متعلق بالاستقرار ، أي : هو أذن خير كائن لكم. ومن قرأ بالتنوين ف (خير) : خبر عن «أذن» خبر ثان ، ومن قرأ : «ورحمة» بالرفع فعطف على (أذن خير) ، ومن قرأ بالجر ، فعطف على «خير» ، المجرور.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ فيه : هُوَ أُذُنٌ يسمع كل ما يقال له ويصدقه

حقا كان أو باطلا ، فإذا حلفنا له أنا لم نقل شيئا صدقنا. والقائل لهذه المقالة : قيل : هو نبتل بن الحارث ، وكان من مردة المنافقين. وقيل : عتاب بن قشير ، فى جماعة ، قالوا : محمد أذن سامعه ، نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا فيما نقول. قال البيضاوي : سمى بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع ، كما سمى الجاسوس عينا. هـ.

قال تعالى فى الرد عليهم : قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ أي : هو لكم سماع خير وحق ، فيسمع الخير والحق ويبلغه لكم ، أو قل : هو أذن خير لكم من كونه غير أذن لأن كونه أذنا يقبل معاذيركم ولو كان غير أذن لكذبكم وفضحكم. وفى (الوجيز) أي : مستمع خير وصلاح ، لا مستمع شر وفساد.

قال البيضاوي : وهو تصديق لهم بأنه أذن ، لكن لا على الوجه الذي ذموا به- يعنى من تنقصه بقلة الحزم والانخداع- بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله. ثم فسر ذلك بقوله : يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يصدق بالله وبما له من الكمالات ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ويصدقهم لما يعلم من خلوصهم ، واللام مزيدة للتفرقة بين إيمان التصديق وإيمان الإذعان والأمان ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أي : هو رحمة لمن أظهر الإيمان منكم ، بحيث يقبله ولا يكشف سره. وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بكم ، بل رفقا بكم وترحما عليكم. قاله البيضاوي.

وفى ابن عطية : وخص الرحمة بالذين آمنوا إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا. وفى الوجيز : وهو رحمة لهم ، لأنه كان سبب إيمانهم. هـ. فظاهره أن الإيمان الصادر منهم كان حقيقيا ، وهو حسن خلاف ظاهر. قال البيضاوي : أي : هو رحمة لمن وفقه اللّه للإيمان منكم.

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ بأى نوع من الإيذاء ، لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ موجع بسبب إيذايته.

الإشارة : تعظيم الرسول عليه السّلام ومدحه وذكر محاسنه ، من أجل القربات وأعظم الطاعات لأن تعظيمه ناشىء عن محبته ، ومحبته عقد من عقود الإيمان ، لا يتم الإيمان إلا بها ، والإخلال بهذا الجانب من أعظم المعاصي عند اللّه ، ولذلك قبح كفر المنافقين واليهود ، الذين كانوا يؤذون جانب النبوة ، وما عابه به المنافقون في هذه الآية هو عين الكمال عند أهل الكمال.

قال القشيري : عابوه بما هو أمارة كرمه ، ودلالة فضله ، فقالوا : إنه لحسن خلقه ، يسمع ما يقال له ، وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم» «١». قالوا : من الفاضل؟ قالوا : الفطن المتغافل ، وأنشدوا :

وإذا الكريم أتيته بخديعة فرأيته فيما تروم يسارع

فاعلم بأنّك لم تخادع جاهلا إنّ الكريم- بفضله- يتخادع «٢». هـ.

وكل ولى يتخلق بهذا الخلق السني الذي هو التغافل والانخداع فى اللّه ، وكان عبد اللّه بن عمر يقول : (من خدعنا فى اللّه انخدعنا له). ورأى سيدنا عيسى عليه السّلام رجلا يسرق ، فقال له : سرقت يا فلان؟ فقال : واللّه ما سرقت ، فقال عليه السّلام : (آمنت بالله وكذبت عينى). فمن أخلاق الصوفي أن يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، كيفا كانوا ، ورحمة للذين آمنوا ، فمن آذى من هذا وصفه فله عذاب أليم. وبالله التوفيق.

ومن مساوئ المنافقين أيضا : أنهم يرضون الناس بسخط اللّه ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٢ الى ٦٣]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣)

قلت : إنما وحدّ الضمير فى (يرضوه) إما لأن رضى أحدهما رضى الآخر ، فكأنهما شيء واحد ، أو لأن الكلام إنما هو فى إيذاء الرسول- عليه الصلاة والسلام- وإرضائه ، فذكر اللّه تعظيما لجانب الرسول ، أو لأن التقدير : واللّه أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك فهما جملتان. والضمير فى (أنه من يحادد) : ضمير الشأن ، و(فأن) : إما تأكيد

---

(١) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى حسن العشرة) والترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى البخيل) عن أبى هريرة ، بلفظ : «الفاجر» بدل المنافق.

(٢) البيتان منسوبان إلى عبد المجيد بن إسماعيل الرومي ، راجع النجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٢.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٠

لأن الأولى ، وجملة (فله) : جواب ، أو تكون بدلا منها ، أو فى موضع خبر عن مبتدأ محذوف ، أي : فحقّ ، أو واجب له نار جهنم.

يقول الحق جل جلاله : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أي : المنافقون ، لَكُمْ أيها المؤمنون ، حين يعتذرون فى التخلف عن الجهاد وغيره ، لِيُرْضُوكُمْ أي : لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ بالطاعة والوفاق ، واتباع ما جاء به ، إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ صادقين فى إيمانهم. أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ أي : الأمر والشأن ، مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يعاديهما ، ويخالف أمرهما فَأَنَّ لَهُ ، فواجب أن له نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ، ذلِكَ الْخِزْيُ أي : الهول الْعَظِيمُ ، والهلاك الدائم ، والعياذ بالله.

الإشارة : من أرضى الناس بسخط اللّه أسخطهم عليه وسخط عليه ، ومن أسخط الناس فى رضى اللّه أرضاهم عليه ، ورضى عنه ، فمن أقر منكرا حياء أو خوفا من الناس ، فقد أسخط مولاه ، ومن أنكر منكرا ، ولم يراقب أحدا ، فقد أرضى مولاه ، ومن راقب الناس لم يراقب اللّه ، ومن راقب اللّه لم يراقب الناس ، (و اللّه ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين). وتأمل قول الشاعر :

من راقب النّاس مات غمّا وفاز باللذات الجسور

وباللّه التوفيق.

ومن أخلاقهم أيضا : الخوف من الفضيحة ، والاستهزاء بالدين ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٤ الى ٦٦]

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)

قلت : الضمائر فى «عليهم» ، و«تنبئهم» و«قلوبهم» ، تعود على المنافقين خلافا للزمخشرى فى الأولين ، فقال : يعود على المؤمنين ، وتبعه البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله : يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ أي : فى شأنهم ، سُورَةٌ من القرآن على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، تُنَبِّئُهُمْ أي : تخبرهم ، أي : المنافقين ، بِما فِي قُلُوبِهِمْ من الشك والنفاق ، وتهتك أستارهم ،

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠١

وكانوا يستهزؤون بأمر الوحى والدين ، فقال تعالى لنبيه- عليه الصلاة والسلام : قُلِ لهم : اسْتَهْزِؤُا تهديدا لهم ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ من إنزال السورة فيكم ، أو ما تحذرون من إظهار مساوئكم وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عن استهزائهم ، لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فيما بيننا. روى أن ركبا من المنافقين مروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فى غزوة تبوك ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل ، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ، هيهات هيهات!! فأخبر اللّه نبيه ، فدعاهم فقال : «قلتم : كذا وكذا؟» فقالوا : لا ، واللّه ، ما كنا فى شىء من أمرك ، ولا من أمر أصحابك ، ولكنا كنا فى شىء مما يخوض فيه الركب ، ليقصر بعضنا على بعض السفر «١».

قال تعالى : قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ ، توبيخا لهم على استهزائهم بما لا يصح الاستهزاء به ، لا تَعْتَذِرُوا أي : لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ أي : قد أظهرتم الكفر

بإيذاء الرسول والطعن عليه ، بعد إظهار إيمانكم الكاذب. إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ بتوبتهم وإخلاصهم ، حيث سبق لهم ذلك كان منهم رجل اسمه مخشيّ ، تاب ومات شهيدا. أو لكفهم عن الإيذاء ، نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا فى علم اللّه مُجْرِمِينَ مصرين على النفاق ، أو مستمرين على الإيذاء والاستهزاء. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الاستهزاء بالأولياء والطعن عليهم من أسباب المقت والبعد من اللّه ، والإصرار على ذلك شؤمه سوء الخاتمة ، وترى بعض الطاعنين عليهم يحذر منهم أن يكاشفوا بأسرارهم ، وقد يطلع اللّه أولياءه على ذلك ، وقد لا يطلعهم ، وبعد أن يطلعهم على ذلك لا يواجهوهم بكشف أسرارهم لتخلقهم بالرحمة الإلهية. واللّه تعالى أعلم.

ومن مساوئ المنافقين أيضا : أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف ، كما قال تعالى :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٦٧ الى ٦٩]

الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٦٩)

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١٠/ ١٧٣) عن قتادة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٢

قلت : قال فى الأساس : ومن المجاز : نسيت الشيء : تركته ، (نسوا اللّه فنسيهم). قال فى المشارق : ونسى بمعنى ترك ، معناه مشهور فى اللغة ، ومنه : (نسوا اللّه فنسيهم) أي : تركوا أمره فتركهم. وقوله : (كالذين من قبلكم) : خبر ، أي : أنتم كالذين ، أو مفعول بمحذوف ، أي : فعلتم مثل فعل من قبلكم.

يقول الحق جل جلاله : الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أي : متشابهة فى الكفر والبعد عن الإيمان ، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم فى النفاق والكفر ، وهو نفى لأن يكونوا مؤمنين. وقيل : إنه تكذيب لهم فى حلفهم بالله : إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وتقرير لقوله : وَما هُمْ مِنْكُمْ ، وما بعده كالدليل عليه ، فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين. وهو قوله : يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ كالكفر والمعاصي ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمَعْرُوفِ كالإيمان والطاعة ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ عن الإعطاء والمبار ، وهو كناية عن البخل والشح. نَسُوا اللَّهَ أي : غفلوا ، أي : أغفلوا ذكره ، وتركوا طاعته ، فَنَسِيَهُمْ فتركهم من لطفه ورحمته وفضله ، إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ الكاملون فى التمرد والفسوق عن دائرة الخير.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ أي : المجاهرين بالكفر ، نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أي : مقدرين الخلود. قال ابن جزى : الأصل فى الشر أن يقال : أوعد ، وإنما يقال فيه : «وعد» إذا صرح بالشر. هـ. هِيَ حَسْبُهُمْ أي : جزاؤهم عقابا وعذابا ، وفيه دليل على عظم عذابها ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ أبعدهم من رحمته ، وأهانهم ، وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ لا ينقطع ، وهو العذاب الذي وعدوه ، أو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والخوف من المؤمنين.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أي : أنتم كالذين من قبلكم ، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم ، كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً ، وهو بيان لتشبيههم بهم ، وتمثيل حالهم بحالهم ، فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ أي : نصيبهم من ملاذ الدنيا وحظوظها ، فأمّلوا بعيدا وبنوا مشيدا ، فرحلوا عنه وتركوه ، فلا ما كانوا أملوا أدركوا ، ولا إلى ما فاتهم رجعوا ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ أنتم بِخَلاقِكُمْ أي : بنصيبكم مما خلق اللّه لكم وقدره لكم فى الأزل ، كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ ، ثم تركوا ذلك ورحلوا عنه ، كذلك ترحلون أنتم عنه وتتركونه.

قال البيضاوي : ذمّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم المخدّجة من الشهوات الفانية ، والتهائهم بها عن النظر فى العاقبة ، والسعى فى تحصيل اللذائذ الحقيرة تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم. هـ.

(٤٠٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٣

وَخُضْتُمْ فى الباطل كَالَّذِي خاضُوا أي : أو كخوضهم ، أو كالخوض الذي خاضوه ، وقيل : كالذين خاضوا فيه ، فأوقع الذم على الجمع. أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : لم يستحقوا عليها ثوابا فى الدارين ، وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ الكاملون فى الخسران ، خسروا الدنيا والآخرة.

الإشارة : ينبغى لأهل الإيمان الكامل أن يتباعدوا عن أوصاف المنافقين فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويمدّون أيديهم بالعطاء والإيثار ، ويذكرون اللّه على سبيل الاستهتار ، حتى يذكرهم برحمته. ويتشبهون بمن قبلهم من الصالحين الأبرار ، فقد استمتعوا بلذيذ المناجاة ، وحلاوة المشاهدات ، وبلطائف العلوم والمكاشفات ، أولئك الذين ثبتت لهم الكرامة من اللّه فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الفائزون.

ثم هدد المنافقين بإهلاك من قبلهم ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٧٠]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله ، فى شأن المنافقين : أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ : خبر الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كيف دمرهم اللّه وأهلكهم ، حيث خالفوا رسلهم ، قَوْمِ نُوحٍ أغرقهم بالطوفان ، وَقوم عادٍ أهلكهم بالريح ، وَثَمُودَ أهلكهم بالصيحة ، وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ أهلك نمرود ببعوض ، وأهلك أصحابه به ، أرسل عليهم سحابة من البعوض فخرطتهم ، ودخلت بعوضة فى دماغه فأكلت دماغه ، حتى هلك ، وَأَصْحابِ مَدْيَنَ ، وهم قوم شعيب ، أهلكوا بالنار يوم الظلة ، وَالْمُؤْتَفِكاتِ مدائن قوم لوط ، ائتفكت بهم ، أي : انقلبت ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارات من سجيل. أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ أي : كل واحدة منهن أتاها رسول بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ أي : لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس ، كالعقاب بلا جرم.

وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب.

الإشارة : ينبغى للمؤمن المشفق على نفسه أن يتحرى مواطن الهلكة ، فيجتنبها بقدر الإمكان فينظر ما فعل اللّه بأهل المخالفة والمعاصي ، فيهرب منها بقدر إمكانه ، وينظر ما فعل بأهل طاعته وطاعة رسوله من النصر والعز فى الدارين ، فيبادر إليها فوق ما يطيق ، ويعظم الرسل ، ومن كان على قدمهم ممن حمل الأمانة بعدهم ، ويشد يده على صحبتهم وخدمتهم فهذا يسعد سعادة الدارين. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أضداد المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧١ الى ٧٢]

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

يقول الحق جل جلاله : وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ أي : أصدقاء بَعْضٍ ، وهذا فى مقابلة قوله : الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وخص المؤمنين بالوصف بالولاية ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ضد ما فعله المنافقون ، وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ ضد قوله : وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى سائر الأمور ، ضد قوله : نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ لا محالة لأن السين مؤكدة للوقوع ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غالب على كل شىء ، لا يمتنع عليه ما يريده ، حَكِيمٌ يضع الأشياء مواضعها.

ثم ذكر ما أعد لهم فقال : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً أي : تستطيبها النفس ، أو يطيب فيها العيش. وفى الحديث : «إنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر» «١». وفى حديث آخر : «إنّ فى الجنّة غرفا يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدّها اللّه لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وبذل السلام ، وتابع الصّيام ، وصلّى باللّيل والنّاس نيام» «٢».

وذلك فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، أي : إقامة وخلود. وعنه- عليه الصلاة والسلام- : «جنات عدن : دار اللّه ، التي لم ترها عين ، ولا تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصديقون ، والشهداء. يقول اللّه تعالى :

طوبى لمن دخلك.» «٣» قاله البيضاوي. ثم قال : ومرجع العطف فيها- أي : فى قوله : وَمَساكِنَ طَيِّبَةً- يحتمل

---

(١) أخرجه بسياق أخر مطولا ، البزار كما فى كشف الأستار (٣/ ٥١) ، وعزاه فى الفتح السماوي (٢/ ٦٨٦) لابن أبى حاتم وابن مردويه كلهم عن الحسن عن عمران بن حصين وأبى هريرة.

(٢) أخرجه الامام أحمد فى المسند (٥/ ٣٤٣) والطبراني فى الكبير (٣/ ٣٤٢) وعبد الرزاق فى المصنف (١١/ ٤١٨) والبغوي فى التفسير (٦/ ٣٠٦) عن أبى مالك الأشعري. [.....]

(٣) أخرجه البزار ، (كشف الأستار ٤/ ١٩٢) وابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٨٠) ، من حديث أبى الدرداء.

أن يكون لتعدد الموعود لكل واحد له ، أي : فكل مؤمن ومؤمنة له جنات ومساكن أو للجميع على سبيل التوزيع ، أي : فالجنات والمساكن معدة للجميع ، ثم يقسمونها على حسب سعيهم فى الدنيا ، أو إلى تغاير وصفه- أي : الموعود- فكأنه وصفه أولا بأنه جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طبائعهم أول ما يقرع أسماعهم. ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، معرى عن شوائب

الكدرات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات فى جوار رب العالمين ، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيير.

ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال : وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة ، والمؤدى إلى نيل الوصول والفوز باللقاء. وعنه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إن اللّه تعالى يقول لأهل الجنّة : هل رضيتم؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك. قالوا : وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ قال : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا» «١». ذلِكَ أي : الرضوان ، أو جميع ما تقدم ، هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي تستحقر دونه الدنيا وما فيها. هـ.

الإشارة : قد أعد اللّه لأهل الإيمان الحقيقي الذين بذلوا مهجهم وأموالهم فى مرضاته ، جنات المعارف ، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم والحكم ، ومساكن طيبة ، هى : عكوف أرواحهم فى الحضرة ، متلذذين بحلاوة الفكرة والنظرة ، فى محل المشاهدة والمكالمة ، والمسارة والمناجاة ، ورضوان من اللّه ، الذي هو نعيم الأرواح ، أكبر من كل شيء لأن نعيم الأرواح أجلّ وأعظم من نعيم الأشباح ، حتى إن المقربين ليضحكون على أهل اليمين ، حين يرونهم يلعبون مع الولدان والحور ، كما ذكر الغزالي. وأما المقربون فيشاركونهم فى ذلك ، ويزيدون عليهم بلذة الشهود.

قال القشيري ، عند قوله تعالى : إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ «٢» : إنه لا تنافى بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم وبين شهود مولاهم ، كما أنهم اليوم مستلذون بمعرفته بأى حالة هم فيها ، ولا يقدح اشتغالهم بحظوظهم فى معارفهم. انتهى لفظه ، وهو حسن. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب صفة الجنة والنار) وفى مواضع أخرى ، ومسلم فى (الجنة ، باب : إحلال الرضوان على أهل الجنة) من حديث أبى سعيد الخدري- رضى اللّه عنه-.

(٢) الآية ٥٥ من سورة «يسن».

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٦

ثم أمر نبيه بالإغلاظ على المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧٣ الى ٧٤]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف ، وَالْمُنافِقِينَ باللسان بإلزام الحجة وبإقامة الحدود ما لم يظهر عليهم ما يدل على كفرهم ، فإن ظهر عليهم ذلك فحكمهم كحكم الزنديق ، فيقتل على المشهور. وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ بالقول والفعل ، إن استوجبوا ذلك ، ولا تراقبهم ، وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ أي : المرجع ، مصيرهم.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا ، روى : أنه صلّى اللّه عليه وسلّم أقام فى غزوة تبوك شهرين ، ينزل عليه القرآن ، ويعيب المتخلفين ، فقال الجلاس بن سويد : لئن كان ما يقول محمد فى إخواننا حقا لنحن شرّ من الحمير ، فبلغ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فاستحضره ، فحلف بالله ما قال ، فنزلت ، فتاب الجلاس وحسنت توبته «١».

قال تعالى : وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، يعنى : ما تقدم من قول الجلاس ، أو قول ابن أبىّ : سمن كلبك يأكلك ، أو : لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ ... الآية. وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وأظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ، ولم يقل :

بعد إيمانهم لأنهم يقولون بألسنتهم : آمنا ، ولم يدخل فى قلوبهم ، وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا من قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو :

أن خمسة عشر منهم توافقوا ، عند مرجعه من تبوك ، أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي ، إذا وصل إلى العقبة بالليل ، فأخذ عمّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها ، وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة تقعقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء اللّه ، فهربوا «٢». أو : هموا بإخراجه من المدينة ، أو إخراج المؤمنين ، أو هموا بأن يتوّجوا عبد اللّه بن أبىّ ، وإن لم يرض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلم ينالوا شيئا من ذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب مرجع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من تبوك) عن عروة بن الزبير.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند ٥/ ٤٥٣ عن أبى الطفيل. والبيهقي فى الدلائل (باب رجوع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من تبوك) عن عروة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٠٧

وَما نَقَمُوا أي : وما عابوا وكرهوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ الذي حقهم أن يشكروا عليه ،

وذلك أن أكثر أهل المدينة كانوا محاويج ، فى ضنك من العيش ، فلما قدمهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم استغنوا بالغنائم ، وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بديته اثنى عشر ألفا ، فأعطيت له ، فاستغنى.

فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ ، وهذا حمل الجلاس على التوبة ، والضمير يعود على الرجوع المفهوم من التوبة ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا عنك بالإصرار على النفاق ، يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ بالقتل والنار ، وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ينجيهم من العذاب.

الإشارة : كفار الخصوصية على قسمين : قسم أظهروا الإنكار على أهلها ، وقسم أبطنوه وأظهروا الوفاق ، ففيهم شبه بأهل النفاق ، فينبغى الإعراض عن الجميع ، والاشتغال باللّه عنهم ، وهو جهادهم والإغلاظ عليهم ، فعداوة العدو حقا هو اشتغالك بمحبة الحبيب حقا. وقد تصدر عنهم فى جانب أهل الخصوصية مقالات ثم ينكرونها ، وقد يهمّوا بما لم ينالوا من إذايتهم وقتلهم ، لو قدروا. واللّه يتولى الصالحين.

ونزل فى ثعلبة بن حاطب ، قوله تعالى :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧٥ الى ٧٨]

وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ وقال : لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وهو ثعلبة بن حاطب ، أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقال : ادع اللّه أن يرزقنى مالا. فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه». فراجعه ، وقال : والذي بعثك بالحق ، لئن رزقنى اللّه مالا لأعطين كلّ ذى حقّ حقّه ، فدعا له ، فاتخذ غنما ، فنمت كما تنمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا ، وانقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد ، فقال : «يا ويح ثعلبة». فبعث له مصدقين لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومروا بثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه الكتاب الذي فيه الفرائض ، فقال : ما هذه صدقة ، ما هذه إلا أخت الجزية ، فارجعا حتى أرى رأيى ، فنزلت فيه الآية ، فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال : إن اللّه منعنى أن أقبل منك ، فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذا منك فقد أمرتك فلم

تطعنى» ، فقبض الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، فجاء بها إلى أبى بكر ، فلم يقبلها ، ثم جاء بها إلى عمر فى خلافته ، فلم يقبلها منه ، وهلك فى زمن عثمان ، بعد أن لم يقبلها منه «١».

وهذا معنى قوله : فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ أي : منعوا حق اللّه منه ، وَتَوَلَّوْا عن طاعة اللّه ، وَهُمْ مُعْرِضُونَ أي : وهم قوم عادتهم الإعراض عنها ، فَأَعْقَبَهُمْ أي : فأردفهم نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ عقوبة على العصيان بما هو أشد منه ، أو فجعل اللّه عاقبة فعلهم ذلك نفاقا متمكنا فى قلوبهم وسوء اعتقاد. قال البيضاوي : ويجوز أن يكون الضمير للبخل ، والمعنى : فأورثهم البخل نفاقا متمكنا فى قلوبهم إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ، أي : يلقون اللّه بالموت ، والمراد : يلقون جزاءه أو عقابه. وذلك بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ أي : بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ، وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ أي : وبكونهم كاذبين فيه فإن خلف الوعد متضمن للكذب ، مستقبح من الوجهين.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أي : المنافقون ، أو من عاهد اللّه ، أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ أي : ما أسروا فى أنفسهم من النفاق ، وَنَجْواهُمْ ما يتناجون فيه ، فيما بينهم ، من المطاعن وتسمية الزكاة جزية ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فلا يخفى عليه شيء من ذلك ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى الحكم العطائية : «من تمام النعمة عليك : أن يرزقك ما يكفيك ، ويمنعك ما يطغيك».

وقال أبو سعيد الخدري رضى اللّه عنه : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : «خير الرّزق ما يكفى ، وخير الذّكر الخفىّ» «٢» وقال صلى اللّه عليه وسلم : «ما طلعت شمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان ، يسمعان الخلائق : أيّها النّاس ، هلمّوا إلى ربّكم ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى» «٣».

وقال بعض العارفين : كل من لا يعرف قدر ما زوى عنه من الدنيا ، ابتلى بأحد وجهين : إما بحرص مع فقر يتقطع به حسرات ، أو رغبة فى غنى تنسيه شكر ما أنعم به عليه.

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير (٨/ ٢٦٠) والبيهقي فى الدلائل (باب قصة ثعلبة بن حاطب ٥/ ٩٠) وابن جرير فى التفسير (١٠/ ١٨٩). كذلك البغوي وغيره ، كلهم عن أبى أمامة الباهلي ، وذكر الحافظ ابن الحجر فى الكافي الشاف : أن إسناد هذه القصة ضعيف جدا. راجع : الكافي الشاف (٢/ ٢٩٢) والإصابة (١/ ٤٠١) والحاوي للسيوطى (٢/ ١٨٣).

وثعلبة بن حاطب- المذكور فى القصة شهد بدرا. وقد قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية». وحكى صلّى اللّه عليه وسلّم عن رب العزة أنه قال لأهل بدر : «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فمن هذا شأنه ، كيف يؤول به الأمر إلى ما آل إليه ما نزلت فيه الآيات؟ وقد أستشهد ثعلبة يوم أحد ، وفى القصة المذكورة أنه هلك فى عهد عثمان. وهذا دليل على أن القصة غير صحيحة أصلا ، راجع فى هذا : الشهاب الثاقب فى الذب عن الصحابي ثعلبة بن حاطب ..

(٢) أخرجه أحمد ١/ ١٧٢ ، عن سعد بن مالك. وأخرجه ابن حبان- بتقديم وتأخير- عن سعد بن

أبى وقاص (الإحسان ٢/ ٨٩ ح ٨٠٦).
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٧) وابن حبان (٢٤٧٦ موارد) والحاكم (٢/ ٤٤٥) ، وصححه ووافقه الذهبي كلهم عن أبى الدرداء. وقال الهيثمي (٣/ ١٢٢) : رجاله رجال الصحيح.

وقد ثبت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال : «ليس الغنى بكثرة العرض ، إنما الغنى غنى النّفس».
وغنى النفس عن الدنيا :
شرف الأولياء المختارين ، وعز أهل التقوى المؤمنين المحسنين. ولقد صدق قول الشاعر :
غنى النّفس ما يغنيك عن سد خلّة فإن زدت شيئا عاد ذلك الغنى فقرا.
وقد قيل : من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أعمى اللّه عينى قلبه. وقالت الجارية المجنونة لعبد الواحد بن زيد : يا عبد الواحد ، اعلم أن العبد إذا كان فى كفاية ، ثم مال إلى الدنيا ، سلبه اللّه حلاوة الزهد ، فيظل حيرانا والها ، فإن كان له عند اللّه تعالى نصيب ، عاتبه وحيا فى سره ، فقال : عبدى أردت أن أرفع قدرك عند ملائكتى وحملة عرشى ، وأجعلك دليلا لأوليائى وأهل طاعتى فى أرضى ، فملت إلى عرض من أعراض الدنيا وتركتنى فورثتك بذلك الوحشة بعد الأنس ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، عبدى ارجع إلى ما كنت عليه ، أرجع بك إلى ما كنت تعرفه. هـ. وقد تقدمت الحكاية. وفى بعض الكتب : إن أهون ما أصنع بالعالم ، إذا مال إلى الدنيا أن أسلبه حلاوة مناجاتى. هـ.
ثم ذم المنافقين بعيب آخر ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٧٩ الى ٨٠]
الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٨٠)
قلت : (الذين) : مبتدا حذف خبره ، أي : منهم الذين ، أو خبر عن مبتدأ ، أو منصوب على الذم ، أو بدل من ضمير سرهم. وأصل المطوعين : المتطوعين ، فأدغمت التاء فى الطاء ، و(جهدهم) : مصدر جهد فى الأمر : بالغ فيه.
يقول الحق جل جلاله : ومنهم الَّذِينَ يَلْمِزُونَ أي : يعيبون الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ ، روى أنه صلّى اللّه عليه وسلّم حث على الصدقة ، فجاء عبد الرّحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لى ثمانية آلاف ، فأقرضت ربى أربعة ، وأمسكت لعيالى أربعة. فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه

وسلّم : «بارك اللّه لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».
فبارك اللّه له حتى صالحته إحدى زوجتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم. وتصدّق عاصم بن عدى بثمانية أوسق تمرا ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع تمر ، فأمره رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن ينثره على تمر الصدقات ،

(٤٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٠
فلمزهم المنافقون ، وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، ولقد كان اللّه ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، فنزلت الآية «١».
ونزلت فى أبى عقيل : وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ إلا طاقتهم ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ يستهزءون بهم. قال تعالى : سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ جازاهم على سخريتهم ، كقوله : اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ «٢» ، وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ على كفرهم.
اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، يريد به التساوي بين الأمرين فى عدم الإفادة ، كما نص عليه بقوله : إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، روى أن عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبىّ – وكان من خيار المسلمين – سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فى مرض أبيه ، أن يستغفر له ، ففعل ، فنزلت : سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ «٣» ، وذلك لأنه – عليه الصلاة والسلام – فهم من السبعين العدد المخصوص ، وقال :
ولو علمت أنى إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت «٤» ، فبيّن له أن المراد به التكثير ، دون التحديد ، وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى التكثر لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنه العدد بأسره قاله البيضاوي.
ذلِكَ أي : عدم قبول استغفارك بسبب أنهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : ليس لبخل منا ، ولا تقصير فى حقك ، بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ المتمردين فى كفرهم ، وهو كالدليل على الحكم السابق ، فإن مغفرة الكافر بالإقلاع عن الكفر ، والإرشاد إلى الحق ، والمنهمك فى كفره ، المطبوع عليه ، لا ينقلع ولا يهتدى ، والتنبيه على عذر الرسول فى استغفاره ، وهو عدم يأسه من إيمانهم ، ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة ، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله : ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... الآية «٥». قاله البيضاوي.
الإشارة : من نصب الميزان على المؤمنين فيما يصدر منهم ، أو على الصالحين أو الأولياء فيما يظهر عليهم ، حتى يسخر منهم ، سخر اللّه منه ، وأبعده من رحمته ، فلا تنفع فيه شفاعة الشافعين ولا

استغفار المستغفرين. وفى

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (٢٦٠) عن قتادة.

(٢) من الآية ١٥ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٦ من سورة المنافقون.

(٤) أخرجه بسياق آخر ، البخاري فى (تفسير سورة التوبة). ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر) عن ابن عمر.

(٥) الآية ١١٣ من سورة التوبة.

بعض الأخبار : «من تتبع عورة أخيه المؤمن تتبع اللّه عورته حتى يفضحه ، ولو فى جوف بيته». ومن اشتغل بإذاية الأولياء ، ولم يتب ، مات على سوء الخاتمة ، وذلك جزاء من حارب اللّه – والعياذ باللّه – .

ثم ذكر تخلف المنافقين عن الجهاد ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨١ الى ٨٣]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (٨٣)

قلت : (خلاف رسول اللّه) : منصوب على الظرفية ، أي : بعده ، يقال : أقام خلاف الحي ، أي : بعدهم ، وقيل :

مصدر خالف ، فيكون مفعولا لأجله ، أو حال.

يقول الحق جل جلاله : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ أي : الذين خلفهم اللّه عن الغزو ، وأقعدهم عنه ، ولذلك عبّر بالمخلفين دون المتخلفين ، فرحوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ أي : بعده فى غزوة تبوك ، وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إيثارا للراحة والدّعة على طاعة اللّه ورسوله. وفيه تعريض بالمؤمنين الذين آثروا عليها تحصيل رضاه ببذل الأموال والمهج ، وأما المنافقون فآثروا الراحة وقعدوا ، وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قاله بعضهم لبعض ، أو قالوه للمؤمنين تثبيطا لهم. قال ابن جزى : قائل هذه

المقالة رجل من بنى سليم ، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك فى الحر. هـ. قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، وقد آثرتموها بهذه المخالفة ، لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ أن مآلهم إليها ، أو كيف هى؟ ... ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة.

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ، وهو إخبار عما يئول إليه حالهم فى الدنيا والآخرة ، أي : سيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا لما يرون من سوء العاقبة ، وأتى به على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب وقوعه. قال ابن جزى : أمر بمعنى الخبر ، فضحكهم القليل فى الدنيا مدة بقائهم فيها ،

(٤١١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٢

وبكاؤهم الكثير فى الآخرة ، أي : سيضحكون قليلا فى الدنيا ، ويبكون كثيرا فى الآخرة ، وقيل : هو بمعنى الأمر ، أي : يجب أن يكونوا يضحكون قليلا ويبكون كثيرا فى الدنيا ، لما وقعوا فيه. هـ.

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ أي : فإن ردك اللّه من الغزو إلى المدينة ، وفيها طائفة من المتخلفين – يعني منافقيهم – وكانوا اثنى عشر رجلا ممن تخلف من المنافقين ، وإنما لم يقل : إليهم لأن منهم من تاب من النفاق ، وندم على التخلف ، فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ، فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا عقوبة لهم ، وفيها خزى وتوبيخ لهم ، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، يعنى :

عن تبوك ، وهو تعليل لعدم خروجهم معه فى المستقبل ، فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ أي : المتخلفين ، أي : لعدم تأهلهم للجهاد كالنساء والصبيان.

الإشارة : من قلّ إيقانه ، وضعف نور إيمانه ، فرح ببقائه ، مع متابعة هواه وتيسير أمور دنياه ، وكره ارتكاب مشاق المجاهدة ، واقتحام حر المخالفة والمكابدة ، وثبط من رآه يروم تلك الوجهة ، ويريد أن يتأهب لدخول ميدان تلك الحضرة فسيندم قريبا ، حين يفوز الشجعان بحضرة الوصال ، ويتأهلون لمشاهدة الكبير المتعال ، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ «١». وبالله التوفيق.

ثم نهى نبيه عن الصلاة على المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨٤ الى ٨٥]

وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (٨٤) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ

(٨٥)

قلت : (أبدا) : ظرف لمات ، أي : مات فى مدة لا حياة بعدها فإن حياة الكافر للتعذيب ، وهى كلا حياة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ من المنافقين إذا مات على كفره ، بحيث (مات أبدا) أي : موتة لا حياة بعدها. نزلت فى عبد اللّه بن أبىّ رأس المنافقين ، فإنه لما مرض ، دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فسأله أن يستغفر له ويكفنه فى ثوبه الذي يلى جسده ، ويصلى عليه ، فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه ، وذهب ليصلى عليه ، فنزلت. وروى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما تقدم للصلاة عليه جذبه جبريل بثوبه ، وتلى عليه الآية

---

(١) الآيات ١١ - ١٣ من سورة الواقعة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٣

فانصرف ، ولم يصل عليه. وقيل : صلى عليه ثم نزلت. وفى البخاري : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما تقدم للصلاة عليه جذبه عمر ، فقال : كيف تصلى عليه وقد نهاك ربك عن الصلاة على المنافقين؟ فقال : «إنّما خيّرنى ...»

الحديث «١».

قال البيضاوي : وإنما لم ينه عن التكفين فى قميصه ، ونهى عن الصلاة عليه لأن الضنة بالقميص كانت مخلة بالكرم ، ولأنه كان مكافأة لإلباس العباس قميصه حين أسر ببدر «٢» ، والمراد من الصلاة : الدعاء للميت والاستغفار له ، وهو ممنوع فى حق الكافر ، ولذلك رتب النهى على قوله : (مات أبدا) يعنى : الموت على الكفر ، فإن إحياء الكافرين للتعذيب ، دون التمتع ، فكأنه لم يحيى. هـ.

واستدل ابن عبد الحكم ، بهذه الآية ، على وجوب الصلاة على المؤمنين ، وقرر اللخمىّ وجه الدليل منها بطريق النهى عن الشيء أمر بضده لأن ضد النهى عن الصلاة أمر بها. وأبطله المازري قائلا : وإنا هو من دليل الخطاب ، ومفهوم المخالفة ، وبيان عدم صحة كونها من باب النهى عن الشيء ، أنّ شرط ذلك اتحاد متعلق الأمر والنهى ، كقولك لزيد : لا تسكن ، ومعناه تحرك ، ومتعلقهما هنا مختلف ، فمتعلق النهى : المنافقون ، ومتعلق الأمر :

المؤمنون. وكذا رد كونها دالة مفهوم المخالفة. انظر الحاشية الفاسية.

ثم قال تعالى : وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ أي : ولا تقف على قبره للدفن ، أو الزيارة ، ثم علل النهى فقال :

إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا ، والحال أنهم فاسِقُونَ خارجون عن دائرة الإسلام.
ثم نهى عن الاغترار بمالهم فقال : وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ ، وقد تقدم ، وإنما كرره للتأكيد ، وهو حقيق به ، فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد ، والنفوس مجبولة على حبهما ، فكرر النهى عن الاغترار بهما ، ويجوز أن تكون هذه فى فريق آخر غير الأول. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الجنائز ، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر) وتمام الحديث : «إنما خيرنى اللّه فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ .. الآية ، وسأزيد على سبعين» فصلى عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأنزل اللّه عز وجل : وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ.
(٢) أخرج البخاري فى (الجهاد ، باب الكسوة للأسارى) عن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما – قال : (لما كان يوم بدر أتى بالعباس ، ولم يكن عليه ثوب ، فنظر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم له. قميصا ، فوجدوا قميص عبد اللّه بن أبىّ يقدر عليه ، فكساه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إياه ، فلذلك نزع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قميصه الذي ألبسه).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٤
الإشارة : إذا حصل للعبد القرب من الحبيب قربت منه الأشياء كلها ، ورغبت فى خلّته الملائكة والجن والإنس والروحانيون ، فإذا مات صلت على جسده أجناد الأرض ، وعلى روحه أجناد السماء ، وفرحت بقدومه الملائكة والروحانيون ، وربما شفعه اللّه فى أهل عصره أجمعين ، وإذا حصل للعبد البعد من ربه بعدت عنه الأشياء كلها ، ورفضت جسده وروحه الجن والإنس والملائكة ، فلا يصل عليه أحد ، ولا يقف على قبره بشر ، فالحذر الحذر من كل ما يبعد من حضرة الحبيب من المخالفات والإصرار على الزلات ، فإنه بريد الكفر ، الذي هو البعد الكبير – والعياذ باللّه – . والبدار البدار إلى ما يقرب من الحبيب ، من أنواع الطاعات ، والمسارعة إلى الخيرات ، وسائر الأخلاق الحسنة والشيم المستحسنة. وباللّه التوفيق.
ثم أشار إلى تخلفهم عن الجهاد مع قدرتهم عليه ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ٨٦ الى ٨٩]
وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ

الْقاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ، أو بعضها ، فى شأن الجهاد قائلة : أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وحده ، وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ صلّى اللّه عليه وسلّم ، اسْتَأْذَنَكَ فى التخلف أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ أي : أولوا الغنى والسعة ، وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ الذين قعدوا لعذر ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ مع النساء ، جمع خالفة ، وقد يقال : الخالفة للذى لا خير فيه. وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ بالكفر والنفاق ، فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ما فى الجهاد وموافقة الرسول من السعادة ، وما فى التخلف عنه من الشقاوة.

لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أي : إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا ، فقد جاهد من هو خير منهم ، وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ منافع الدارين : النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة والكرامة فى الآخرة. وقيل : الحور ، لقوله : فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ «١» ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بالمطالب

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الرحمن.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٥

البهية والمراغب السنية. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ بيان لبعض الخيرات الأخروية.

الإشارة : إذا ظهر الدعاة إلى اللّه يشوقون الناس إلى حضرة اللّه ترى من صرف عنه عنان العناية ، ولم يضرب له مع السابقين بسهم الهداية ، يميل إلى التقاعد إلى وطن الراحة ، والميل إلى ما ألفه من سيىء العادة ، يستأذن أن يتخلف مع النساء والصبيان ، ويتنكب طريق الأقوياء من الشجعان ، فإن تخلف هذا مع عوام الضعفاء فقد تقدم لهذا الأمر من يقوم به من الأقوياء ، اختارهم اللّه لحضرته ، وقواهم على مكافحة مشاهدته ومحبته ، جاهدوا نفوسهم فى معرفة محبوبهم ، وبذلوا أموالهم ومهجهم فى الوصول إلى مطلوبهم ، (و أولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون).

ثم ذكر اعتذار الأعراب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ٩٠]

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ

عَذابٌ أَلِيمٌ (٩٠)

قلت : (المعذّرون) : أصله : المعتذرون ، نقلت حركة التاء إلى العين ، وأدغمت التاء فى الذال. وقرأ يعقوب :

«المعذرون» : اسم مفعول ، من أعذر ، إذا بالغ فى العذر.

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ يعتذرون فى التخلف عن الغزو لِيُؤْذَنَ لَهُمْ فى القعود ، قيل : هم أسد وغطفان استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال. قيل : كاذبين ، وقيل : صادقين. وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك غارت طيّىء على أهالينا ومواشينا ، وقيل :

نزلت فى قوم من غفار. وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ من غير هؤلاء ، وهم قوم لم يجاهدوا ولم يعتذروا فى تخلفهم ، فكذبوا فى دعواهم الإيمان بالله ورسوله ، يقال : كذبت فلانا – بالتخفيف ، أي : أخبرته بالكذب. ثم ذكر وعيدهم فقال : سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بالنار.

الإشارة : المتخلفون عن طريق الخصوص على ثلاثة أقسام :

قسم : أقروا بها ، وعرفوا صحتها ، ثم شحوا بأنفسهم وبخلوا بأموالهم ، فاعتذروا فى التخلف عنها بأعذار باطلة ، فهؤلاء لا حجة لهم عند اللّه ، وقوم أقبح منهم ، لم يلتفتوا إلى من جاء بها ولم يرفعوا بذلك رأسا. قال تعالى فى مثلهم : وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

(٤١٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٦

وقسم : أقروا بها ، وطلبوا الدخول فيها ، لكن غلبتهم الأقدار ، وأظهروا غاية الاعتذار ، وتحقق عذرهم عند الواحد القهار ، وإليهم الإشارة بقوله تعالى :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩١ الى ٩٣]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٩٣)

قلت : جواب «إذا» يحتمل أن يكون (تولوا) ، وجملة (قلت) : حال من الكاف فى (أتوك) ، أي :

أتوك قائلا :

لا أجد .. إلخ ، ويحتمل أن يكون الجواب : «قلت» ، و(تولوا) استئناف لبيان حالهم حينئذ ، و(من الدمع) : للبيان ، وهى ، مع المجرور ، فى محل نصب على التمييز ، فهو أبلغ من تفيض دمعها لأنه يدل على أن العين صارت دمعا فياضا ، و(حزنا) : علة ، أو حال ، أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله ، و(ألا يجدوا) : متعلق به ، أي : حزنا على ألّا يجدوا ما ينفقون ، و(إنما السبيل) راجع لقوله : (ما على المحسنين من سبيل).

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ كالهرمى ، وَلا عَلَى الْمَرْضى كالزّمنى ومن أضناه المرض ، وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ فى الغزو حَرَجٌ أي : لا حرج على هؤلاء فى التخلف عن الغزو ، إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ بالإيمان والطاعة فى السر والعلانية. قيل : نزلت فى بنى مقرن ، وهم ستة أخوة صحبوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقيل : فى عبد اللّه بن مغفل.

ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ أي : ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل ، وإنما وضع المحسنين موضع المضمر للدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين ، غير معاتبين فى ذلك ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بالمسيء فكيف بالمحسنين؟ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ معك إلى الغزو ، وهم البكاءون سبعة من الأنصار : معقل بن يسار ، وصخر بن خنساء ، وعبد اللّه بن كعب ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غنمة «١» ،

---

(١) فى الأصل : خثمة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٧

وعبد اللّه بن مغفّل «١» ، وعلية بن زيد. أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : نذرنا الخروج فاحملنا على الخفاف المرقوعة ، والنعال المخصوفة ، نغزوا معك ، فقال : لا أجد ، فتولّوا وهم يبكون «٢». وقيل : هم بنو مقرّن ، وقيل : أبو موسى وأصحابه ، وعليه اقتصر البخاري.

قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ وليس عندى ما أحملكم عليه ، تَوَلَّوْا عنك وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أي : يفيض دمعها حَزَناً على أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ فى غزوهم.

زاد البخاري : فلما رجع أبو موسى وأصحابه ، أتى - عليه الصلاة والسلام - بنهب إبل «٣» ، فدعاهم وحملهم عليها ، فقالوا : يا رسول اللّه ، إنّك حلفت ألا تحملنا ، فخفنا أن نكون أغفلناك يمينك ، فقال : «ما أنا حملتكم ، ولكن اللّه حملكم ، وإنّى واللّه ، ما أحلف على يمين فأرى خيرا

منها إلّا كفرت عن يمينى وأتيت الذي هو خير» «٤». أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى : إِنَّمَا السَّبِيلُ أي : الحرج والمعاتبة عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ فى القعود ، وَهُمْ أَغْنِياءُ واجدون للأهبة ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ كالنساء والصبيان ، وهو استئناف لبيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذر ، وهو رضاهم بالدناءة ، والانتظام فى جملة النساء والصبيان إيثارا للدعة والكسل ، وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ بالكفر والغفلة حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ، فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ما يؤول إليه حالهم من الندم والأسف.

الإشارة : كل من لم ينهض إلى صحبة الخصوص الذين جعلهم اللّه أدوية القلوب ، توجه العتاب إليه يوم القيامة ، إذ لا يخلو من لم يصحبهم من عيب أو نقص أو خاطر سوء ، حتى ربما يلقى اللّه بقلب سقيم.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : من لم يتغلغل فى علمنا هذا ، مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر. وقال الغزالي : دواء القلوب واجب عينا على كل مسلم ، فكل من قصر فى ذلك عوقب يوم القيامة ، إلا من حبسه عذر صحيح : من مرض مزمن ، أو كبر سن ، أو فقر مدلق. قال تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) ، فإن أحبوا أولياء اللّه ، وصدقوهم وعظموهم ، ودلّوا الناس على صحبتهم ، فهؤلاء محسنون ، (ما على المحسنين من سبيل واللّه غفور) لضعفهم ، (رحيم) بهم.

---

(١) فى الأصول : معقل.

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (١٠/ ١٤٦) وذكره الواحدي فى الأسباب (٢٦٢) عن محمد بن كعب القرظي.

(٣) نهب أي : غنيمة.

(٤) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن).

وقال الورتجبي : (إذا نصحوا لله ورسوله) أي : إذا عرّفوا عبادّ الله طريق الله ، والأسوة بسنة رسول اللّه. هـ. وقد قال الحواريون : يا روح اللّه ، ما النصيحة لله؟ قال : تقديم حق اللّه على حق الناس. هـ. ولا حرج أيضا على من لم يجد ما ينفق على الأشياخ من الأموال ، فإن من أعطى نفسه كفته عن إعطاء المال. قال تعالى : (و لا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) إلى الحضرة (قلت لا أجد ما أحملكم

عليه) فإن بذل الأموال مع المهج أنهض من أحدهما ، (تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألّا يجدوا ما ينفقون) ليتحببوا به فى قلوب المشايخ. قال بعض المشايخ :

أردنا أن نجعل من يسوق مع من لا يسوق على حد سواء ، فلم يعتدلوا. هـ.

وقوله تعالى : (حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) ، ليس حزنهم على فوات الدنيا ، وإنما حزنهم على تخلفهم عن رسول اللّه ، وعن صحبة أهل الكمال. وقال القشيري : شقّ عليهم أن يكون على قلب الرسول – عليه الصلاة والسلام – منهم ، أو بسببهم ، شغل ، فتمنّوا أن لو أزيحت علتهم ، لا ميلا إلى الدنيا ولكن لئلا يعود إلى قلب الرسول من فعلهم كراهة ، ولقد قيل :

من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول. هـ»

ولما رجع – عليه الصلاة والسلام – من غزوة تبوك ، جاء المنافقون يعتذرون بالأعذار الكاذبة ، ففضحهم اللّه بقوله :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٤ الى ٩٦]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (٩٦)

---

(١) فى القشيري : (ممجج مملول) قلت : والبيت ورد غير منسوب فى عيون الأخبار (٣/ ١٩١) وورد : (أنشد ثعلب) فى أدب الدنيا والدين (٣٣٨).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤١٩

قلت : مفعول (نبأ) الثاني : محذوف ، أي : نبأنا جملة من أخباركم ، و(جزاء) : مصدر لمحذوف ، أي : يجازون جزاء ، أو علة ، أي : للجزاء بما كسبوا.

يقول الحق جل جلاله : يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ يعنى : المنافقين ، إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ من تبوك ، قُلْ لهم : لا تَعْتَذِرُوا بالمعاذير الكاذبة لأنه لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ أي : لن نصدقكم فيها لأنه قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ أعلمنا بالوحى ، على لسان نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ببعض أخباركم ، وهو ما فى ضمائركم من الشر والفساد.

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ : هل تتوبون من الكفر ، أم تثبتون عليه؟ وكأنه استتابة وإمهال للتوبة ، ثُمَّ

تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وهو اللّه ، والأصل : ثم تردون إليه فوضع هذا الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلانيتهم ، لا يعزب عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم ، فَيُنَبِّئُكُمْ أي : يخبركم بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بالتوبيخ والعقاب عليه.

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ من غزوكم لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ أي : عن عتابهم ، فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ لا توبخوهم إِنَّهُمْ رِجْسٌ لخبث قلوبهم لا ينفع فيهم التأنيب ، فإن المقصود من العتاب : التطهير بالحمل على الإنابة ، وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير ، فهو علة للإعراض وترك المعاتبة ، وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ أي : منقلبهم إليها ، والمعنى : أن النار كفتهم عتابا ، فلا تتكلفوا عتابهم ، وذلك جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الكفر والنفاق.

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ بحلفهم ، فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم من الستر والإرفاق ، وإشراكهم فى الغنائم ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ بذلك فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ أي : فإن رضاكم لا يستلزم رضى اللّه ، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا فى سخط اللّه وبصدد عقابه ، أو إن أمكنهم أن يلبسوا عليكم لا يمكنهم أن يلبسوا على اللّه فإنه يهتك سترهم وينزل الهوان بهم. والمقصود من الآية : النهى عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم ، بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد يظهر لهذه الطائفة منافقون ، إذا ظهر على أهل اللّه عز أو نصر جاءوا يعتذرون عن تخلفهم عنه ، ويحلفون أنهم على محبتهم فلا ينبغى الاغترار بشأنهم ، ولا مواجهتهم بالعتاب بل الواجب الإعراض عنهم والغيبة فى اللّه عنهم ، فسيرى اللّه عملهم ورسوله ، ثم يردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤهم بما كانوا يعملون.

(٤١٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٢٠

ثم ذكر منافقى البادية ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ٩٧ الى ٩٩]

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

يقول الحق جل جلاله : الْأَعْرابُ ، وهم سكان البادية ، قال ابن عزيز : يقال : رجل أعرابى ، إذا كان

بدويا. وإن لم يكن من العرب ، ورجل عربى ، إذا كان منسوبا إلى العرب ، وإن لم يكن بدويا. أهل البوادي من المنافقين هم أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً من أهل الحاضرة ، وذلك لتوحشهم وقساوتهم ، وعدم مخالطتهم لأهل العلم ، وقلة استماعهم للكتاب ، وَأَجْدَرُ أي : أحق أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ من الشرائع وفرائضها وسننها ، لبعدهم عن مجالس العلم ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يعلم كل واحد من أهل الوبر والمدر ، حكيم فيما يدبر من إسكان البادية ، أو الحاضرة ، ويختار لكل واحد بحكمته البالغة ما يليق به ، وسياتى بقية الكلام على سكنى الحاضرة أو البادية فى الإشارة ، إن شاء اللّه.

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ أي : يعد ما يُنْفِقُ من الزكاة وغيرها فى سبيل اللّه ، مَغْرَماً أي : غرامة وخسرانا إذ لا يحتسبه عند اللّه ، ولا يرجو عليه ثوابا ، وإنما ينفقه لرياء أو تقية ، فيثقل عليه ثقل المغرم الذي ليس بحق ، وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ أي : دوائر الزمان ونوبه ، أو ينتظر بكم مصائب الزمان ، لينقلب الأمر عليكم فيتخلص من الإنفاق الذي كلف به.

قال تعالى : عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ ، وهو دعاء عليهم بنحو ما يتربصونه – أي : عليهم يدور من الدهر ما يسوءهم – أو جعل اللّه دائرة السوء نازلة بهم. قال ابن عطية : كل ما كان بلفظ دعاء من جهة اللّه – عز وجل – فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء لأن اللّه تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهى فى قبضته ، ومن هذا قوله : وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ «١» ، وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ «٢» ، وهى كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى. هـ. أو إخبار عن

---

(١) الآية الأولى من سورة الهمزة.

(٢) الآية الأولى من سورة المطففين.

وقوع ما يتربصونه عليهم. قال البيضاوي : الدوائر فى الأصل : مصدر أضيف إليه السوء للمبالغة ، كقولك : رجل صدق. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : «السّوء» هنا ، وفى الفتح «١» بضم السين. هـ.

وَاللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولونه عند الإنفاق ، عَلِيمٌ بما يضمرونه من الرياء وغيره.

ثم ذكر ضدهم ، فقال : وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ أي : يعد ما ينفقه من الزكاة وغيرها قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ تقربهم إليه زلفى لإخلاصهم فيها. وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أي :

ويتخذ ما ينفق سبب صلوات الرسول لأنه – عليه الصلاة والسلام – كان يدعو للمتصدقين ، ويقول : اللهم صلّ على فلان ، ويستغفر لهم. ولذلك سن للمصدّق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته ،

لكن ليس له أن يصلى عليه ، كما كان يفعل صلّى اللّه عليه وسلّم لأن ذلك منصبه ، فله أن يتفضل به على غيره.

أَلا إِنَّها أي : نفقاتهم ، قُرْبَةٌ لَهُمْ تقربهم إلى حضرة ربهم ، وهذا شهادة من اللّه لصحة معتقدهم وكمال إخلاصهم ، سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، وعد من اللّه لهم بإحاطة الرحمة بهم ، أو سيدخلهم فى جنته التي هى محل رحمته وكرامته ، والسين لتحقق وقوعه. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يغفر ما فرط من الخلل ، ويتفضل برحمته على ما نقص عن درجات الكمال. قيل : إن الآية الأولى نزلت فى أسد وغطفان وبنى تميم فهم الذين يتخذون ما ينفقون مغرما. والثانية نزلت فى عبد اللّه ذى البجادين وقومه فهم الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند اللّه وصلوات الرسول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد ورد الترغيب فى سكنى المدن لأنها محل العلم وسماع الوعظ ، وفيها من يستعان بهم على الدين ، وورد الترغيب أيضا فى سكنى الجبال والفرار بالدين من الفتن ، وخصوصا فى آخر الزمان. ولهذا اختار كثير من الصحابة والتابعين سكنى البوادي كأبى ذر ، وسلمة بن الأكوع ، وغيرهما – رضى اللّه عنهم – .

والتحرير فى المسألة : أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والمقاصد ، فمن كان مراده تحقيق الشريعة ، وتحرير مسائل العلم الظاهر ، والقيام بوظائف الدين ، ولم يجد فى البادية من يعينه على ذلك فسكنى المدن أفضل له ، ومن كان مراده تصفية قلبه وتحقيق علم الطريقة ، وتهيئة القلب لإشراق أنوار الحقيقة ، فالاعتزال فى البوادي ، وقرون الجبال ، أوفق له ، إن وجد من يستعين بهم على ذلك لأن شواغل المدن وعوائدها كثيرة ، وقد كثرت فيها الحظوظ والأهوية فلا تجد فيها إلا من هو مفتون بدنيا أو مبتلى بهوى ، بخلاف أهل البادية ، هذه العوائد فيهم قليلة ، وجلّ أهلها على الفطرة.

وأيضا : هم مفتقرون إلى من يسوسهم بالعلم أكثر من غيرهم ، فمن تصدى لتعليمهم وتذكيرهم لا يعلم قدره إلا اللّه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : [أرحم الناس بالناس : من يرحم من لا يرحم نفسه]. أي : من يرحم

---

(١) فى قوله تعالى : وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .. الآية ٦ من سورة الفتح.

الجاهل الذي لا يرحم نفسه بأن يعلمه ما ينفع به نفسه ويرحمها. وقال الغزالي فى الإحياء : يجب على

العلماء أن يبعثوا من يعلم الناس فى البوادي فإن أخلوا بذلك الأمر عاقبهم اللّه ، فمن تعرض لتعليمهم قام بهذا الواجب. واللّه تعالى أعلم. وأما ما يذكر حديثا : «أمتى فى المدن ، وقليل فى البادية» ، فلم يصح ، بل قال – عليه الصلاة والسلام – للرجل الذي أراد أن ينتقل إلى المدينة : «اعبد اللّه حيثما كنت ، فإن اللّه لن يترك من أعمالك شيئا». وكذلك قوله :

إذا أراد اللّه بعبد خيرا نقله من البادية إلى الحاضرة لم أقف عليه حديثا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر فضل السابقين إلى الإسلام ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٠]

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)

قلت : (السابقون) : مبتدأ ، (و الذين اتبعوهم) : عطف عليه ، وجملة (رضى اللّه عنهم) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ إلى الإسلام مِنَ الْمُهاجِرِينَ وهم الذين صلوا إلى القبلتين ، أو الذين شهدوا بدرا ، أو الذين أسلموا قبل الهجرة ، وَمن الْأَنْصارِ وهم أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة ، أو أهل العقبة الثانية ، وكانوا سبعين ، أو الذين أسلموا حين قدم عليهم مصعب بن عمير.

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ اللاحقين بالسابقين من الفريقين ، أو من الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ، وَرَضُوا عَنْهُ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ وقرأ ابن كثير : «من تحتها» ، كما هى فى مصحف أهل مكة. خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أي : الفلاح الدائم الكبير.

الإشارة : لكل زمان سابقون ، قد شمروا عن ساق الجد والاجتهاد ، ورفضوا كل ما يقطعهم عن محبوبهم من العشائر والأولاد ، قد خرقوا عوائد أنفسهم ، فأبدلوا العز بالذل ، والجاه بالخمول ، والغنى بالفقر ، والرفعة بالتواضع ، والرغبة بالزهد ، وشغل الظاهر بالتفرغ ليتفرغ بذلك الباطن. وسافروا فى طلب محبوبهم ، وصحبوا المشايخ ، وخدموا الإخوان ، حتى ارتفعت عنهم الحجب والأستار ، وتمتعوا بمشاهدة الكريم الغفار فتهيئوا لتذكير العباد ، وحيت بهم الأقطار والبلاد. وفى مثلهم يقول الشاعر :

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنّكم فى بقاع الأرض أمطار

وتشتهي العين فيكم منظرا حسنا كأنّكم فى عيون الناس أقمار.

(فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون).

ثم ذكر بقية من المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠١]

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (١٠١)

يقول الحق جل جلاله : وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ، يا أهل المدينة ، مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ ساكنون حولكم ، وهم : جهينة ، ومزينة ، وأسلم ، وغفار ، وأشجع ، كانوا نازلين حول المدينة ، أما أسلم وغفار فتابوا ، ودعا لهم – عليه الصلاة والسلام – فقال : «أسلم سالمها اللّه ، وغفار غفر اللّه لها» وأما الباقي فأسلم بعضهم.

قال تعالى : وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قوم مَرَدُوا أي : استمروا عَلَى النِّفاقِ ، واجترءوا عليه ، وتمرنوا وتمهروا فيه ، لا تَعْلَمُهُمْ أي : لا تعرفهم يا محمد بأعيانهم ، وهو بيان لمهارتهم وتنوقهم فى تحرى مواقع التهم إلى حد قد خفى عليك حالهم ، مع كمال فطنتك وحذق فراستك ، نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، ونطّلع على أسرارهم ، إن قدروا أن يلبسوا عليك فلا يقدرون أن يلبسوا علينا ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ بالفضيحة والقتل ، أو بأحدهما وعذاب القبر ، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان فى الحرب ، أو بإقامة الحدود وعذاب القبر ، أو بتسليط الحمى عليهم مرتين فى السنة ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ بعد الموت ، وهو عذاب النار.

الإشارة : قد جعل اللّه – سبحانه – بحكمته وقدرته ، فى كلّ عصر وأوان بحرين : بحرا من النور وبحرا من الظلمة ، من عصر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى قيام الساعة ، فلا بد فى كل عصر من نور وظلمة ، وإيمان وكفران ، ونفاق وإخلاص ، وصفاء وخوض ، فأهل النور نورهم فى الزيادة إلى قرب قيام الساعة ، وأهل الظلمة كذلك ، إذ لا تعرف الأشياء إلا بأضدادها ، ولا يظهر شرف النور إلا بوجود الظلمة ، ولا شرف الصفاء إلا بوجود الخوض ، ولا فضل العلم إلا بوجود الجهل ، وهكذا جعل اللّه من كل زوجين اثنين ، ليقع الفرار إلى الواحد الحق ، فمن رام انفراد أحدهما فى الوجود فهو جاهل بحكمة الملك الودود. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر من كمل صفاؤه من السابقين ، ومن كمل خوضه من المنافقين ، ذكر من جمع بين الصفاء والخوض ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٢]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقوم آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وهو التخلف عن الجهاد ، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الكاذبة ، وهم طائفة من المتخلفين لما بلغهم ما نزل فى المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد ، وقالوا : لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم دخل المسجد ، فصلى فيه ركعتين ، على عادته ، فرآهم وسأل عنهم ، فذكر له سببهم ، فنزلت الآية فأطلقهم «١».

خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً بعمل سيىء وَآخَرَ سَيِّئاً بعمل صالح ، خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم والاعتراف بالذنب ، بآخر سيىء وهو التخلف وموافقة أهل النفاق ، أو خلطوا عملا صالحا ، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول ، وغيره من الأعمال ، بآخر سيىء ، وهو تخلفهم عن تبوك. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أي : يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله : اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، والرجاء فى حقه تعالى واجب. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليهم.

قال بعضهم : ما فى القرآن آية أرجى لهذه الأمة من هذه الآية. وقال القشيري : قوله : وَآخَرَ سَيِّئاً بعد قوله : عَمَلًا صالِحاً ، دليل على أن الزّلّة لا تحبط ثواب الطاعة إذ لو أحبطته لم يكن العمل صالحا ، وهو كذلك.

انتهى. قلت : وما ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة ، خلافا للمعتزلة ، ولا يعارضه حديث مسلم : «أنّ رجلا قال : واللّه لا يغفر اللّه لفلان ، وإنّ اللّه قال : من الذي يتألّى «٢» علىّ ألّا أغفر لفلان ، وإنّى غفرت له وأحبطت عملك» «٣» أو كما قال لأن هذا الرجل كان من بنى إسرائيل ، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا لأن هذه الأمة المحمدية قد وضع اللّه عنها أثقال بنى إسرائيل ، فهى ملة سمحة ، ولعل هذا الرجل أيضا كان قانطا من رحمة اللّه ومكذبا بها ، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة : الناس ثلاثة : سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون ، والمخلطون راجون ، والمنهمكون هالكون ، إلا من تاب وعمل صالحا ، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم ، وصفاؤهم على كدرهم ، إن هفوا رجعوا قريبا ، فقد تمر عليهم السنين الطويلة ولا يكتب عليهم ملك الشمال شيئا وذلك ليقظتهم ، لا لعصمتهم ،

---

(١) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب حديث أبى لبابة وأصحابه ٥/ ٥٧٢) وابن جرير فى التفسير (١١/ ١٠) عن ابن عباس – رضى اللّه عنه.

(٢) يتألى : يحلف. والألية : اليمين .. انظر النهاية (ألى ١/ ٦٢). [.....]

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة اللّه) من حديث جندب – رضى اللّه عنه.

(٤٢٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٢٥

والمخلطون هم الذين يكثر سقوطهم ورجوعهم ، عسى اللّه أن يتوب عليهم. والمنهمكون هم المصرون على الفواحش ، فإن سبقت لهم عناية رجعوا ، وإن لم تسبق لهم عناية فهم معرّضون لنقمة اللّه وحلمه. واللّه تعالى أعلم.

ولما تاب اللّه على المتخلفين ، وأطلقهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من الوثاق ، قالوا : يا رسول اللّه ، هذه أموالنا التي خلفتنا ، خذها فتصدّق بها وطهّرنا ، فقال عليه الصلاة السلام : «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا». فأنزل اللّه فى ذلك :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

يقول الحق جل جلاله ، لنبيه – عليه الصلاة السلام : خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ التي عرضوها عليك ، صَدَقَةً ، وهو الثلث ، فأخذ عليه الصلاة السلام من أموالهم الثلث ، وترك لهم الثلثين ، أو : خذ من أموالهم صدقة ، وهى الزكاة المفروضة ، والضمير لجميع المسلمين. من صفة تلك الصدقة : تُطَهِّرُهُمْ أنت يا محمد بها من الذنوب ، أو حب المال المؤدى بهم إلى البخل ، الذي هو أقبح الذنوب. وقرىء بالجزم جواب الأمر.

وَتُزَكِّيهِمْ أي : تنمى بها حسناتهم ، أو ترفعهم بِها إلى درجات المخلصين ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ أي : ترحم عليهم ، وادع لهم بالرحمة ، فكان عليه الصلاة السلام يقول لمن أتاه بصدقته : «اللهمّ صلّ على آل فلان».

فأتى أبو أوفى بصدقته فقال : «اللّهمّ صلّ على آل أبى أوفى» «١».

إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ تسكن إليها نفوسهم ، وتطمئن بها قلوبهم ، لتحققهم بقبول دعائه عليه الصلاة السلام. قال القشيري : انتعاشهم بهمّتك معهم أتم من استقلالهم بأموالهم. هـ. وجمع الصلوات لتعدد الموعد لهم ، وقرأ الأخوان وحفص بالتوحيد. وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أي : سميع باعترافهم عليم بندامتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ إذا صحت ، والضمير إما للتوب عليهم ، والمراد أن يمكن

فى قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقتهم ، أو لغيرهم ، والمراد به التحضيض على التوبة ، وَأنه هو الذي يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ يقبلها قبول من يأخذ شيئا ليؤدى بدله ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ أي : من شأنه قبول توبة التائبين ، والمتفضل عليهم بجوده وإحسانه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الزكاة ، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ومسلم فى (الزكاة ، باب الدعاء لمن أتى بصدقته) من حديث عبد اللّه بن أبى أوفى.

الإشارة : أخذ المشايخ من أموال الفقراء سبب فى غناهم ، واتساع حالهم حسا ومعنى ، وقد قالوا : إذا أراد اللّه أن يغنى فقيرا سلط عليه وليا يأخذ ماله ، أو أمره شيخه بإعطاء ماله ، فإن ذلك عنوان على غناه. وقد ذكر ذلك شيخ أشياخنا سيدى على الجمل العرانى فى كتابه. وقد رأيت فى مناقب شرفاء وزان : أن الشيخ مولاى التهامي أرسل إلى أخيه مولاى الطيب ، وكان من خواص تلامذته ، أن يدفع إليه جميع ماله ليصنع به كسوة للمرابطين ، فأرسل له جميع ما يملك ، حتى كسوة الدار وأثاث البيت ، فكان ذلك سببا فى فيضان ماله ، فلا تجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها ملك من أملاك مولاى الطيب ، حتى إلى بلاد الجزائر وما والاها ، وذلك بسبب تجارة شيخه له.

واللّه تعالى أعلم.

ثم هدد أهل التخليط ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٥]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقُلِ اعْمَلُوا ما شئتم من خير أو شر ، فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ فإنه لا يخفى عليه خيرا كان أو شرا ، وَسيرى ذلك أيضا رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، فيظهر لهم ما يبدو منكم ، فإن الطول يفضح صاحبه. وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ بالموت ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيخبركم بما عملتم بالمجازاة عليه.

الإشارة : كل من ظهر بدعوى أو تعرض لمقام من المقامات يقال له : (و قل اعملوا فسيرى اللّه عملكم ورسوله والمؤمنون) ، فإن كان أمره مبنيا على أساس الإخلاص والتقوى ثبت وانتهض ، وشعشع نوره ، وإن كان مبنيا على غير أساس ، افتضح وكسف نوره ، وسيرد الجميع إلى عالم الغيب والشهادة ،

فيجازى كلّا بعمله.

ثم نزل فى شأن الثلاثة الذين خلّفوا قوله تعالى :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٦]

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

قلت : الإرجاء هو التأخر ، يقال : أرجاه – بالهمز وتركه – : أخره.

يقول الحق جل جلاله : وَآخَرُونَ من المتخلفين ، تخلفوا من غير عذر ، ولم يعتذروا بشيء ، مُرْجَوْنَ أي : مؤخرون لِأَمْرِ اللَّهِ فى شأنهم إِمَّا أن يُعَذِّبُهُمْ على تخلفهم عن الجهاد مع

رسوله ، وَإِمَّا أن يَتُوبُ عَلَيْهِمْ حيث تابوا وندموا ، والترديد باعتبار العباد ، وفيه دليل على أن كلا الأمرين بإرادته تعالى ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بأحوالهم ، حَكِيمٌ فيما فعل بهم.

والمراد بهؤلاء الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم الناس ألا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، فلما رأوا ذلك أخلصوا نياتهم ، وفوضوا أمرهم إلى اللّه ، فرحمهم «١» ، وسيأتى تمام قصتهم وتوبة اللّه عليهم بعد ، إن شاء اللّه.

الإشارة : وآخرون مؤخرون عن صحبة المشايخ العارفين ، حتى ماتوا مفروقين ، إما أن يعذبهم على ما أصروا من المساويء والذنوب ، وإما أن يتوب عليهم بفضله وكرمه ، إنه عليم لا يخفى عليه ما أسروا ، حكيم فيما قضى عليهم من أمر الحجاب بعدله وقضائه.

ثم ذكر أهل مسجد الضرار ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

قلت : قرأ نافع وابن عامر : بغير واو «٢» مبتدأ حذف خبره ، أي : معذبون ، أو فى : (لا تقم فيه أبدا) ، أو فى قوله :

(لا يزال) ، أو صفة لقوله : (و آخرون) ، على من يقول : إن «المرجون» غير الثلاثة المخلفين ، بل في المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنيانهم مسجد الضرار. ومن قرأ بالواو فعطف على قوله : (آخرون) ، أو مبتدأ حذف

---

(١) أخرج قصتهم البخاري في (المغازي ، باب حديث كعب بن مالك) ومسلم في (التوبة ، باب حديث توبة كعب بن مالك) من حديث عبد اللّه بن كعب عن أبيه.

(٢) في قوله تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ....

خبره ، أي : وممن وصفنا : الذين ، أو منصوب على الذم ، و(ضرارا) وما بعده : علة ، وأصل (هار) : هائر ، فأخرت الهمزة ، ثم قلبت ياء ، ثم حذفت لالتقاء الساكنين.

يقول الحق جل جلاله : وَمنهم الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً أي : لأجل المضارة بالمؤمنين وللكفر الذي أسروه ، وهو تعظيم أبى عامر الكافر ، وَتَفْرِيقاً بَيْنَ جماعة الْمُؤْمِنِينَ الذين كانوا يصلون في مسجد قباء.

روى أن بنى عمرو بن عوف لمّا بنوا مسجد قباء سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن يأتيهم فيصلى فيه ، فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، فبنوا مسجدا على قصد أن يؤمهم فيه أبو عامر الراهب ، إذا قدم من الشام ، فلما أتموه أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقالوا : إنا قد بنينا مسجدا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ، فصل لنا فيه حتى نتخذه مصلىّ ، وكان ذلك قبل خروجه لتبوك ، فقال لهم : «إنى على جناح سفر ، وإذا قدمنا ، إن شاء اللّه ، صلّينا فيه». فلما قدم أتوه ، فأخذ ثوبه ليقوم معهم ، فنزلت الآية ، فدعا مالك بن الدّخشم ، ومعن بن عدى ، وعامر بن السّكن ، فقال : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه ففعلوا ، واتخذوا مكانه كناسة «١».

ثم أشار إلى قصدهم الفاسد ، فقال : وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أي : واتخذوه انتظارا ليؤمهم فيه من حارب اللّه ورسوله ، يعنى : أبا عامر الراهب ، فإنه قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم أحد : لا أجد قوما يقاتلونك إلّا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فانهزم مع هوازن ، ثم هرب إلى الشام ليأتى من قيصر بجنود يحارب بهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فمات بقنّسرين «٢» طريدا وحيدا. وكان أهل المدينة يسمونه قبل الهجرة : الراهب ، فسماه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم

الفاسق.

وقوله : مِنْ قَبْلُ : متعلق بحارب ، أي : حارب من قبل هذا الوقت ، أو باتخذوا ، أي : اتخذوا مسجدا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف لأنه قبيل غزوة تبوك. وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى أي : ما أردنا ببنيانه إلا الخصلة الحسنى ، وهى الصلاة والذكر والتوسعة على المسلمين. وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى حلفهم.

ثم نهاه عن الصلاة فيه فقال : لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً للصلاة إسعافا لهم ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ من أيام وجوده ، أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ أي : أولى بأن تصلى فيه ، وهو مسجد قباء ، أسسه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى أيام مقامه بقباء ، حين هاجر من مكة ، من الاثنين إلى الجمعة ، وهذا أوفق للقصة. وقيل : مسجد الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم لقول أبى سعيد : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عنه؟ فقال : «مسجدكم هذا مسجد المدينة» «٣».

---

(١) انظر تفسير البغوي ٤/ ٩٣ - ٩٤ وأسباب النزول للواحدى (٢٦٤).

(٢) قنسرين : مدينة قريبة من حلب من جهة حمص.

(٣) أخرجه مسلم فى (الحج ، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالمدينة).

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، كانوا يستنجون بالماء ، ويجمعون بين الماء والحجر ، أو يتطهرون من المعاصي والخصال المذمومة ، طلبا لمرضات اللّه تعالى ، أو من الجنابة ، فلا ينامون عليها ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ يرضى عنهم ، ويدنيهم من جنابه إدناء المحب لحبيبه.

وقيل : لما نزلت مشى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومعه المهاجرون ، حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال : «أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا ، فأعادها ، فقال عمر : إنهم مؤمنون وأنا معهم ، فقال عليه الصلاة والسلام :

أترضون بالقضاء؟ فقالوا : نعم ، قال : أتصبرون على البلاء؟ قالوا : نعم ، قال : أتشكرون فى الرّخاء؟ قالوا : نعم ، فقال عليه الصلاة والسلام : مؤمنون وربّ الكعبة. فجلس ، ثمّ قال : يا معشر الأنصار ، إنّ اللّه عزّ وجلّ قد أثنى عليكم ، فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط؟ فقالوا : يا رسول اللّه ، نتبع الغائط الأحجار الثّلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء. فقال : رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا» «١».

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ بأن قصد به وجه اللّه ، وابتغاء مرضاته ، فحسنت النية فى أوله ، خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى قصد الرياء والمنافسة ، فكأنه بنى على شَفا أي : طرف جُرُفٍ : حفرة هارٍ أي : واه ضعيف ، أشرف على السقوط ، أو ساقط ، فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ أي : طاح فى جهنم ، وهذا ترشيح للمجاز ، فإنه لما شبهه بالجرف وصفه بالانهيار ، الذي هو من شأن الجرف ، وقيل : إن ذلك حقيقة ، وإنه سقط فى جهنم ، وإنه لم يزل يظهر الدخان فى موضعه إلى قيام الساعة.

والاستفهام للتقرير ، والذي أسس على التقوى والرضوان : هو مسجد قباء ، أو المدينة ، على ما تقدم ، والذي أسس على شفا جرف هار هو مسجد الضرار ، وتأسيس البناء على التقوى هو تحسين النية فيه ، وقصد وجه اللّه ، واظهار شرعه ، والتأسيس على شفا جرف هار هو فساد النية وقصد الرياء ، والتفريق بين المؤمنين ، وذلك على وجه الاستعارة والتشبيه البالغ. قاله ابن جزى. وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى ما فيه صلاح ونجاة.

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ أي : مبنيهم ، مصدر بمعنى المفعول ، الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً أي : شكا ونفاقا فِي قُلُوبِهِمْ ، والمعنى : أن بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم وتزايد نفاقهم ، فإنه حملهم على ذلك ، ثم لمّا هدمه الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم رسخ ذلك فى قلوبهم وازداد ، بحيث لا يزول رسمه من قلوبهم ، إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ أي : تتقطع قُلُوبِهِمْ

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : لم أجده هكذا ، وكأنه ملفق من حديثين ، فإن صدر الحديث أخرجه الطبراني فى الأوسط من حديث ابن عباس إلى قوله (و رب الكعبة) ، وروى بقيته ابن مردويه. انظر الفتح السماوي (٢/ ٧٠٤).

بالموت ، بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك ، أو لا يزال بنيانهم ريبة ، أي : شكا فى الإسلام بسبب بنيانه ، لاعتقادهم صواب فعلهم ، أو غيظا بسبب هدمه ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بنياتهم ، حَكِيمٌ فيما أمر من هدم بنيانهم.

الإشارة : من أراد أن يؤسس بنيان أعماله وأحواله على التقوى والرضوان ، فليؤسسه على الإخلاص والنية الحسنة ، ومتابعة السنة المحمدية ، فإنها لا تنهدم أبدا ، ومن أراد أن يؤسسها على شفا جرف هار فليؤسسها على الرياء والسمعة ، وقصد الكرامات وطلب الأعواض ، فإنها تنهدم سريعا ولا تدوم ،

فما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير اللّه انقطع وانفصل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر كرامة أهل الإخلاص ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١١١]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

قلت : جملة (يقاتلون) : حال من (المؤمنين) بيانا للشراء ، أو استئنافا لبيان ما لأجله الشراء ، وقيل : «يقاتلون» : بمعنى الأمر ، و(وعدا) : مصدر لما دل عليه الشراء ، فإنه فى معنى الوعد ، أي : وعدهم وعدا حقا لا خلف فيه.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ أي : عوضهم فى بذل مهجهم وأموالهم فى سبيله الجنة ونعيمها ، ومن جملته : النظر إلى وجهه الكريم. قال بعضهم : فانظر ..

ما أكرمه سبحانه ، فإنّ أنفسنا هو خلقها ، وأموالنا هو رزقها ، ثم وهبها لنا ، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي ، فإنها لصفقة رابحة. هـ.

ثم بيّن وجه الشراء فقال : يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة اللّه ، فَيَقْتُلُونَ الكفار ، وَيُقْتَلُونَ شهداء فى سبيل اللّه. وقرأ الأخوان بتقديم المبنى للمفعول لأن الواو لا ترتب ، وأنّ فعل البعض قد يسند إلى الكل ، أي : فيموت بعضهم ويجاهد الباقي. وعد ذلك لهم وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا لا خلف فيه ، مذكورا ذلك الوعد فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ أي : إن اللّه بيّن فى الكتابين أنّ اللّه اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة ،

(٤٣٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣١

كما بيّنه فى القرآن ، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ هو مبالغة فى الإنجاز ، أي : لا أحد أوفى منه بالعهد ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ أي : فافرحوا به غاية الفرح ، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب ، كما قال : وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. قال بعضهم : ناهيك من بيع ، البائع فيه رب العلا ، والثمن جنة المأوى ، والواسطة محمد المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم.

الإشارة : قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة ، فمن باع نفسه لله بأن خالف هواها

وخرق عوائدها ، وسعى فى طلب مولاها ، عوضه جنة المعارف ، معجلة ، وزاده جنة الزخاف ، مؤجلة.
ومن باع ماله بأن أنفقه فى مرضاة اللّه ، وبخل بنفسه ، عوضه جنة الزخارف ، مؤجلة.
قال فى الإحياء – فى باب الذكر وفضيلته – : وأنه يوجب الأنس والحب ، فإذا حصل الأنس بذكر اللّه انقطع عن غير اللّه ، وما سوى اللّه هو الذي يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه فى القبر أهل ، ولا مال ، ولا ولد ، ولا ولاية ، ولا يبقى معه إلا ذكر اللّه ، فإن كان فى أنس به تمتع به ، وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات فى الحياة تصد عن ذكر اللّه ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلّى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غبطته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه ، عما به أنسه.
ثم قال : ولأجل شرف ذكر اللّه عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب هو الخاتمة ، ومعنى الخاتمة : وداع الدنيا كلها ، والقدوم على اللّه ، والقلب مستغرق باللّه ، منقطع العلائق عن غيره ، والحاضر صفّ القتال قد تجرد قلبه للّه ، وقطع طمعه من حياته ، حبا للّه وطمعا فى مرضاته ، وحالة الشهيد توافق معنى قولك : (لا إله إلا اللّه) ، فإنه لا مقصود له سوى اللّه. هـ. فما يجده أهل التملق من لذيذ الحلاوة فى مناجاتهم ، وأهل الشهود فى حال غيبتهم فى محبوبهم ، ليس هو من نعيم الدنيا ، بل من نعيم الجنة ، قدّمه اللّه لأوليائه ، وهو معنى جنة المعارف المعجلة عوضا لمن باع نفسه للّه.
قال بعض العارفين : النفوس ثلاثة : نفس معيبة ، لا يقع عليها بيع ولا شراء ، وهى نفس الكافر ، ونفس تحررت لا يصح بيعها ، وهى نفس الأنبياء والمرسلين ، لأنها خلقت مطهرة من البقايا ، ونفس يصح بيعها وشراؤها ، وهى نفس المؤمن ، فإذا باعها للّه ، واشتراها الحق تعالى منه ، وقع عليها التحرير ، وذلك حين تتحرر من رقّ الأكوان ، وتتخلص من بقايا الأثر.
وقال بعض أهل التحقيق : اشترى اللّه تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء ، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب لأن القلب حر لا يقع عليه البيع لأنه للّه فلا يباع ولا يشترى ، أما سمعت قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «القلب بيت الرب».

(٤٣١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٢
أي : لأنه محل مناجاته ، ومعدن معرفته ، وخزانة سره ، فليس للشيطان عليه من سبيل. قال تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ «١». وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشترى. هـ.
ثم بيّن أوصاف البائعين ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : آية ١١٢]

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)

قلت : (التائبون) : خبر ، أي : هم التائبون ، أو مبتدأ حذف خبره ، أي : التائبون فى الجنة وإن لم يجاهدوا ، لقوله تعالى : وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى «٢» ، أو خبره ما بعده ، أي : التائبون عن الكفر ، على الحقيقة ، هم الجامعون لهذه الخصال.

يقول الحق جل جلاله ، فى وصف البائعين أنفسهم وأموالهم : هم التَّائِبُونَ عن الكفر والمعاصي والهفوات والغفلات ، الْعابِدُونَ لله ، مخلصين له الدين ، الْحامِدُونَ الله فى السراء والضراء وعلى كل حال ، السَّائِحُونَ أي : الصائمون ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «سياحة أمتى الصوم» «٣» ، شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات ، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملكوت والجبروت. أو السائحون للجهاد ، أو لطلب لعلم ، أو لزيارة المشايخ والإخوان.

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ فى الصلاة ، الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ أي : بكل ما هو معروف محمود ، كالإيمان والطاعة ، وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ أي : كل ما هو منكر فى الشرع ، كالكفر والمعاصي ، وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ أي : لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع. قال البيضاوي : وعطف قوله : وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ دون ما قبله للدلالة على أنه بما عطف عليه فى حكم خصلة واحدة ، كأنه قال : الجامعون بين الوصفين ، وعطف أيضا قوله : وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها ، وقيل :

---

(١) من الآية ٦٥ من سورة الإسراء.

(٢) من الآية ٩٥ من سورة النساء.

(٣) أخرجه ابن جرير فى التفسير (١١/ ٣٥) موقوفا على السيدة عائشة ، بلفظ «سياحة هذه الأمة الصيام ، وأخرجه مرفوعا ، عن عبيد بن عمير ، بلفظ : (سئل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن السائحين فقال : «هم الصائمون»).

للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع ، من حيث إن السبعة هو العدد التام ، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه ، ولذلك سمى واو الثمانية. هـ. بالمعنى.

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الموصوفين بهذه الفضائل ، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم

دعاهم إلى ذلك ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم ، كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام. قاله البيضاوي.

الإشارة : قد جمعت هذه الآية معارج الترقي من البداية إلى النهاية ، فأول المقامات : التوبة ، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاها ، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة ، التي هى عمل الشريعة ، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق ، ولاحت لها أنوار التحقيق ، حمدت اللّه وشكرته تقييدا لتلك النعمة ، ثم تسيح فكرتها فى ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت ، ثم ترد إلى مراسم الشريعة ، إذ منتهى الكمال : التزام الشرائع ، فتركع وتسجد البشرية ، أدبا فى عالم الأشباح ، ويركع القلب ويسجد فى مسجد الحضرة فى عالم الأرواح ، فحينئذ تصلح للوعظ والتذكير ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهرين لأهل التشريع ، والباطنين لأهل التحقيق ، فالأول يسمى وعظا وتذكيرا ، والثاني يسمى تربية وترقية ، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود ، ووفى بالعهود ، فيبشر حينئذ بالسعادة العظمى والمقام الأسنى.

قال القشيري : قوله تعالى : السَّائِحُونَ أي : الصائمون ، ولكن عن شهود غير اللّه ، الممتنعون عن خدمة غير اللّه ، المكتفون من اللّه باللّه. ويقال : السائحون الذين يسيحون فى الأرض على جهة الاعتبار طلبا للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم فى مشارق الأرض ومغاربها بالتفكّر فى جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيّرها على منشئها ، والتحقق بحكم خالقها بما يرون من الآيات التي فيها ، ويسيحون بأسرارهم فى الملكوت ، فيجدون روح الوصال ، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقيق بشهود الحق. انتهى.

وانظر الورتجبي فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة ، ثم التوبة الصادقة تستدعى العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية ، فإذا تمت له نعمة العبودية اقتضت حمد اللّه تعالى ، فيحمده تعالى معترفا بعجزه عن القيام بحمده كما فى حديث : «أنت كما أثنيت على نفسك» «١» ، ثم الحمد والذكر يقتضى حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين حمى هلال جماله فى سماء الإيقان. ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام : «صوموا لرؤيته» ،

---

(١) أخرجه مسلم فى (الصلاة ، باب : ما يقال فى الركوع والسجود) من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها.

ولا يكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله : «وأفطروا لرؤيته» ، فالسائحون طيارون بقلوبهم فى

أقطار الغيب ، وذلك يقتضى الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة ، فيركع شوقا لجماله ، وخضوعا لجلاله ، وعند ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات ، فيسجد لكل الجهات (فأينما تولوا فثم وجه اللّه) «١». وهذا السجود يقتضى الغربة ، والغربة تقتضى المشاهدة ، والمشاهدة تصير شاهدها متصفا بصفاتها ، فمن وقع فى نور أسماء اللّه وصفاته صار متصفا بوصف الربوبية ، متمكنا فى العبودية ، فيحكم بحكم اللّه ، ويعدل بعدل اللّه ، فيصفهم اللّه بهذه النعوت ، قال : (الآمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق ، والناهون لهم عن متابعة الشهوات ، والحافظون لحدود اللّه ، القائمون فى مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم ، فلا يتجاوزون عن حد العبودية ، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية لأنهم فى محل التمكين على أسوة مراتب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، مع كماله ، قال : «أنا العبد لا إله إلا اللّه». انتهى.

ثم نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين ، وينخرط فيهم من تخلف عن تبوك من المنافقين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٣ الى ١١٤]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ ينبغى لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ الذين ماتوا على الشرك ، وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى أي : من قرابتهم ، مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ لموتهم على الشرك. روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى طالب ، لما حضرته الوفاة : «قل : لا إله إلا اللّه ، كلمة أحاجّ لك بها عند اللّه». فأبى ، فقال : «واللّه لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» ، فكان يستغفر له حتى نزلت الآية «٢».

وقيل : إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم استأذن ربه أن يستغفر لأمه ، فنزلت ، وقيل : إن المسلمين أرادوا أن يستغفروا لآبائهم ، فنزلت ، وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم إذ لم يتحقق أنهم أصحاب الجحيم ، فإنه طلب توفيقهم للإيمان.

ثم رفع إيهام النقض باستغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه الكافر ، فقال : وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ، وقيل : إنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال فى شأن عمه : «لأستغفرن لك ، كما استغفر إبراهيم لأبيه» ، فنزلت :

---

(١) من الآية ١١٥ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار ، باب : قصة أبى طالب) ومسلم فى (الإيمان ، باب : الدليل على صحة إسلام من حضره الموت). [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٥

وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ. والموعدة التي وعدها إياه قوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ «١». أي : لأطلبن المغفرة لك بالتوفيق للإيمان ، فإنه يجب ما قبله.

والمعنى : لا حجة لكم فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك لم يكن إلا لوعد تقدم بقوله : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..

إلخ. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ بأن مات على الكفر ، أو أوحى إليه بأنه لن يؤمن ، تَبَرَّأَ مِنْهُ بأن قطع استغفاره له ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ أي : لكثير التأوه ، وهو كناية عن فرط ترحمه ، أو كثير الدعاء ، أو مؤمن ، أو فقيه ، أو كثير الذكر لله ، أو كثير التأوه من خوف اللّه ، حَلِيمٌ صبور على الأذى ، والجملة : لبيان ما حمله على الاستغفار.

الإشارة : الشفاعة لا تكون فيمن تحقق غضب اللّه عليه ، فإن ذلك من سوء الأدب ، كالدعاء بالمحال ، وأما من لم يتحقق غضبه عليه فالشفاعة فيه مرغب فيها. قال عليه الصلاة والسلام : «اشفعوا تؤجروا» «٢» ، والاستغفار شفاعة. وقد ورد فى الخبر : «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات خمسا وعشرين مرّة كتب من الأبدال».

والشفقة مطلوبة ، ما لم يظهر مراد اللّه من خلقه ، فإن برز من عنصر القدرة شىء من القهريات ، فالتسليم لمراده تعالى أحسن ، فالله أرحم بعباده منك أيها الشفيق ، وسيأتى عند قوله تعالى : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ «٣» ، وبالله التوفيق.

ثم عذر نبيه فى استغفاره لعمه قبل النهى ، أو من استغفر من المسلمين لأسلافهم المشركين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٥ الى ١١٦]

وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً أي : يسميهم ضلالا ، ويؤاخذهم مؤاخذتهم ، بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ للإسلام ، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ أي : حتى يبين لهم خطر ما يجب اتقاؤه ، فإن خالفوا بعد

---

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

(٢) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب : تعاون المؤمنين) ومسلم فى (البر والصلة ، باب : استحباب الشفاعة) من حديث أبى موسى الأشعري ، وبقية الحديث : (و يقضى اللّه على لسان نبيه ما شاء).

(٣) الآية ٧٦ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٦

البيان ، أضلهم وآخذهم إن لم يتوبوا. قال البيضاوي : وكأنه بيان عذر الرسول فى قوله لعمه : «لأستغفرن لك» ، ولمن استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع. وقيل : إنه فى قوم مضوا على الأمر الأول فى القبلة والخمر ، ولم يعلموا بالنسخ والمنع. وفى الجملة : دليل على أن الغافل غير مكلف. هـ. وقال ابن جزى : نزلت فى قوم من المسلمين استغفروا للمشركين من غير إذن ، فخافوا على أنفسهم من ذلك ، فنزلت الآية تأنيسا لهم ، أي : ما كان الله ليؤاخذكم بذلك قبل أن يبيّن لكم المنع من ذلك. هـ. إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فيعلم أمرهم قبل النهى وبعده.

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، يتصرف فيهما وفى ساكنهما كيف يشاء ، يُحْيِي من يريد إبرازه لعالم الشهادة ، وَيُمِيتُ من يريد رده لعالم الغيب ، أو يحيى قلوبا بالإيمان والمعرفة ، ويميت قلوبا بالكفر والغفلة. وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ.

قال البيضاوي : لمّا منعهم من الاستغفار للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى ، وتضمن ذلك وجوب التبري منهم رأسا ، بيّن لهم أن اللّه تعالى مالك كل موجود ، ومتولى أمره والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه ، ليتوجهوا إليه ويتبرؤوا مما عداه ، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه. هـ.

الإشارة : وما كان اللّه ليضل قوما عن السير إلى حضرته ، أو الترقي فى العلوم والمعارف بعد الوصول ، حتى يبين لهم ما يتقون من سوء الأدب على لسان الشارع أو المشايخ ، فإذا تبين لهم ذلك ثم ارتكبوه وأصروا عليه ، أضلهم ، وأتلفهم عن الوصول إلى حضرة قدسه ، فإنّ كل طاعة وحسن أدب يقرب من الحضرة ، وكل معصية وسوء أدب يبعد عن الحضرة ، وقد قالوا : من أساء الأدب على البساط ، طرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب فى الباب ، طرد إلى سياسة الدواب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توبته على الثلاثة المرجون ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٧ الى ١١٨]

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٧

قلت : فى «كاد» ضمير الشأن ، أو يرتفع بها قلوب.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ أي : برأه وطهره من الذنوب ، كقوله : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ «١» ، وَتاب على الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ مما عسى أن يكون ارتكبوه إذ لا يخلو العبد من ذنب أو عيب. وقيل : هو حض على التوبة ، وإظهار لفضلها ، بأنها مقام الأنبياء والصالحين.

وقيل : تاب عليهم من نقص المقامات التي ترقوا عنها ، إلى ما هو أكمل منها ، فما من أحد إلا وله مقام يستنقص بالنسبة إلى ما فوقه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : ذكر توبة من لم يذنب لئلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمهاجرين والأنصار ، ولم يذنبوا ، ثم قال : وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ، فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب ، فلو قال أولا : لقد تاب على الثلاثة لتفطرت أكبادهم. هـ.

ثم وصفهم بقوله : الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ ، يعنى : حين محاولة غزوة تبوك. والساعة هنا بمعنى الحين والوقت ، والعسرة : الشدة والضيق ، أي : الذين خرجوا معه وقت العسرة والضيق ، فقد كانوا فى عسرة الظّهر ، يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفى عسرة الزاد حتى قيل : إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة واحدة. مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عن الثبات على الإيمان ، أو عن اتباع الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، لما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ كرره للتأكيد ، وللتنبيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ حيث قبلهم ، وتاب عليهم ، وتاب على الثلاثة ، وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق ، ولا قصد للمخالفة ، فلما رجع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عتب عليهم ، وأمر الناس ألا يكلموهم ، وأن يعتزلوا نساءهم ، فبقوا على ذلك خمسين ليلة ، ثم أنزل اللّه توبتهم. وقد وقع حديثهم فى البخاري ومسلم «٢» وكتب السير.

ومعنى قوله : الَّذِينَ خُلِّفُوا أي : تخلفوا عن الغزو. وقال كعب بن مالك : خلفوا عن قبول العذر ، وليس بالتخلف عن الغزو ، ويقوى ذلك كونه جعل : حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ غاية للتخلف ، أي : خلفوا عن قبول العذر ، وأخروا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ أي : برحبها وسعتها ، وذلك لإعراض الناس

---

(١) من الآية ٢ من سورة الفتح.

(٢) انظر البخاري فى (تفسير سورة التوبة ، باب : قوله تعالى : (و على الثلاثة ألين خلفوا ..) ، ومسلم فى (التوبة ، حديث توبة كعب ابن مالك وصاحبيه).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٨

عنهم بالكلية ، وهو مثل لشدة الحيرة. وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ من فرط الوحشة والغم ، وَظَنُّوا أي : علموا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ أي : من سخطه إِلَّا إِلَيْهِ أي : إلا إلى استغفاره والرجوع إليه ، ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ بالتوفيق بالتوبة ، لِيَتُوبُوا بإظهارها والدوام عليها ، وليعدوا من التوابين ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ لمن تاب ، ولو عادوا فى اليوم سبعين مرة ، الرَّحِيمُ متفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى.

الإشارة : قال الورتجبي : التوبة توبتان : توبة العبد ، وتوبة اللّه ، توبة العبد : الرجوع من الزلات إلى الطاعات ، وتوبة اللّه : رجوعه إلى العبد بنعت الوصال ، وفتح باب المآب ، وكشف النقاب عن الاحتجاب ، وطلب العتاب.

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر.

انظر لطف اللّه بنبيه وأصحابه ، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم ، رجع إليه قبل رجوعهم إليه ، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه ، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة ، ورجوعه إليهم بكشف القربة ، فتوبته للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة ، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة ، فلما ذاقوا طعم الجنايات ، واحتجبوا عن المشاهدات أدركهم فيض الوصال ، وانكشف لهم أنوار الجمال ، وهكذا سنة اللّه فى الأنبياء والأولياء ، إذا ذابوا فى مقام الامتحان ، وبقوا فى الحجاب عن مشاهدة الرحمن ، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم ، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم فيؤنسهم بعد إياسهم ، ويوصلهم بعد قنوطهم. قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا «١» ، وقال تعالى : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ... الآية «٢». ثم قال عن بعضهم : توبة الأنبياء فى مشاهدة الخلق فى وقت الإبلاغ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة ، بل لا يحضرون فى مواضع الغيبة لأنهم فى عين الجمع أبدا. هـ.

قال المحشي : وحاصله : توبة اللّه المذكورة وهبيّة ، وهى فى كل أحد على حسب ما يليق بمقامه ، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى ، أو من شعور بخلق لأجل الإبلاغ ، إلى الغيبة عن ذلك ، وكذلك أبدا كأهل الجنة. هـ.

ثم حضّ على الصدق ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١١٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ بالمحافظة على ما أمركم به ، والانكفاف عما نهاكم عنه ، وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم وعهودهم.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الشورى.

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٣٩

قال ابن جزى : ويحتمل أن يريد به صدق اللسان إذ كان هؤلاء قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب ، فنفعهم اللّه بذلك ، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان وهو الصدق فى الأقوال والأعمال والمقاصد والعزائم ، والمراد بالصادقين : المهاجرين ، لقوله فى الحشر : لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ ... : إلى قوله وأُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ «١». وقد احتج بها أبو بكر الصديق على الأنصار يوم السقيفة ، فقال : (نحن الصادقون ، وقد أمركم اللّه أن تكونوا معنا) أي : تابعين لنا. هـ زاد السهيلي : ولمّا استحق الصادقون أن تكون الخلافة فيهم ، استحق الصّدّيق أن تكون الخلافة له ، مادام حيا إذ كان صديقا. هـ.

الإشارة : الصدق سيف حازم ، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويكون فى الأقوال ، وهو صيانتها من الكذب ، ولو أدى إلى التلف. وفى الأفعال ، وهو صيانتها من الرياء وطلب العوض. وفى الأحوال ، وهو تصفيتها من قصد فاسد ، كطلب الشهرة ، أو إدراك مقام من المقامات ، أو ظهور كرامات ، أو غير ذلك من المقاصد الدنية. قال القشيري : الصادقون هم السابقون الأولون ، كأبى بكر وعمر وغيرهما ، والصدق : استواء السّرّ والعلانية ، وهو عزيز ، وكما يكون فى الأقوال يكون فى الأحوال ، وهو أتمّ. هـ.

ثم عاتب الحق تعالى أهل المدينة ومن جاورها على التخلف عن الغزو ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٠ الى ١٢١]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

قلت : (و لا يرغبوا) : منصوب بالعطف ، أو مجزوم بالنهى ، والوادي : أصله : فاعل ، من ودي ، إذا سال ، وهو منقوص ، وهو فى اللغة : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل.

---

(١) الآية ٨ من سورة الحشر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٠

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ يصح لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ولا لمن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ ، أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فى غزوة ولا سرية ولا غيرهما ، وهو نهى بصيغة النفي للمبالغة. وَلا ينبغى لهم أن يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ بأن يصونوها من اقتحام المشقات والمتاعب التي تحملها نبى اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، حيث قعدوا عنه ، ولم يكابدوا معه ما كابده من الأهوال.

روى أن أبا خيثمة دخل بستانه ، بعد خروجه – عليه الصلاة والسلام – لتبوك ، وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له فى الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظلّ ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فى الضّحّ «١» والريح ، ما هذا بخير ، فقام ، فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومر كالريح ، فمدّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يقطع السراب ، فقال : كن أبا خيثمة ، فكانه «٢» ، ففرح به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، واستغفر له «٣».

ثم علل النهى بقوله : ذلِكَ إشارة إلى النهى عن التخلف المفهوم من الكلام ، بِأَنَّهُمْ أي : بسبب أنهم لا يُصِيبُهُمْ فى سفرهم ظَمَأٌ من حر العطش ، أو عطش ، وَلا نَصَبٌ تعب ، وَلا مَخْمَصَةٌ مجاعة ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلا يَطَؤُنَ يدوسون بأرجلهم أو بدوابهم مَوْطِئاً مكانا يَغِيظُ الْكُفَّارَ أي : يغيظهم ذلك الوطء ، وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا كالقتل ، والأسر ، والنصب ، وكل ما ينكبهم ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ ، أي : إلا استوجبوا به ثوابا جزيلا. وذلك مما يوجب النهوض إلى الغزو معه صلّى اللّه عليه وسلّم فإن اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ على إحسانهم. وهو تعليل لقوله : إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ .. إلخ.

وفيه تنبيه على أن الجهاد إحسان ، أما فى حق الكفار فلأنه سعى فى تكميلهم بأقصى ما يمكن ، كضرب المداوي للمجنون ، وأما فى حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن سطوة الكفار واستيلائهم على الإسلام. قاله البيضاوي.

وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً فى أمر الجهاد ، ولو علاقة سيف ، وَلا كَبِيرَةً مثل ما أنفق عثمان رضى اللّه عنه فى جيش العسرة ، وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً فى سيرهم ، وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل ، إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ذلك

، ولم يضع منه شيء ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ بذلك أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ، أي : جزاء أحسن أعمالهم ، أو أحسن جزاء أعمالهم. قاله البيضاوي.

---

(١) الضّح – بالكسر : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض ... راجع النهاية ٨٧.

(٢) أي : فكان هو.

(٣) أخرجه بنحوه البيهقي فى الدلائل (باب لحوق أبى ذر وأبى خيثمة برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بعد خروجه). وانظر الفتح السماوي (٢/ ٧٠٧ – ٧٠٨).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤١

الإشارة : لا ينبغى للفقراء أن يتخلفوا عن أشياخهم إذا سافروا لحج أو غزو أو تذكير أو زيارة ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، فيقعدون فى الراحة والدعة وشيخهم فى التعب والنصب لأن ما يصيبهم من مشاق السفر زيادة فى ترقيهم ومعرفتهم ، وتقوية لمعانيهم ، إلى غير ذلك من فوائد السفر ، فهو فى حق السائرين أمر مؤكد ، فكلما سار البدن فى عالم الشهادة سار القلب فى عالم الغيب ، كما هو مجرب. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذمّ اللّه تعالى من تخلف عن تبوك ، ووسمه بالنفاق ، لم يقدر أحد بعد ذلك على التخلف ، فخفف عنهم بقوله :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢٢]

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ يستقيم لهم أن ينفروا كَافَّةً جميعا لنحو غزو ، أو طلب علم ، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعا ، فإنه بخل ، ووهن للإسلام. قال ابن عباس : هذه الآية فى البعوث إلى الغزو والسرايا ، أي : لا ينبغى خروج جميع المؤمنين فى السرايا ، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بنفسه ، ولذلك عاتبهم فى الآية المتقدمة على التخلف عنه. فالآية الأولى فى الخروج معه صلّى اللّه عليه وسلّم ، وهذه فى السرايا التي كان يبعثها ، وقيل : هى ناسخة لكل ما ورد من الأمر بخروج الجميع ، فهى دليل على أن الجهاد فرض كفاية.

فَلَوْ لا : فهلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ جماعة كبيرة ، كقبيلة أو بلدة ، طائِفَةٌ قليلة منها لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، أما إذا خرجوا للغزو فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقهون ، مع أن مشاق السفر تشحذ الأذهان

، وترقق البشرية ، فتستفيد الروح حينئذ علوما لدنية ، وأسرارا ربانية ، من غير تعلم ، وهذا هو العلم الذي يصلح للإنذار.

قال فى الإحياء : التفقه : الفقه عن اللّه بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع ، ويحمل على التقوى وملازمتها ، وهذا مقتضى الآية. فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذي يحصل به الإنذار ، لا الفقه المصطلح عليه. هـ. وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر.

ثم قال تعالى : وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ، أي : وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم. وتخصيصه بالذكر لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغى أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم ، لا الترفع على الناس والتبسط فى البلاد. قاله البيضاوي.

وقوله : لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ، أي : لعلهم يخافون مما حذروا منه.

(٤٤١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٢

قال البيضاوي : وقد قيل : للآية معنى آخر ، وهو أنه لما نزل فى المتخلفين ما نزل تسابق المؤمنون إلى النفير ، وانقطعوا عن التفقه ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ، ويبقى أعقابهم يتفقهون ، حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأن الجدال بالحجة هو الأصل ، والمقصود من البعثة ، فيكون الضمير فى لِيَتَفَقَّهُوا ، ولِيُنْذِرُوا : للفرق البواقي بعد الطوائف النافرة للغزو ، وفى رَجَعُوا : للطوائف النافرة ، أي : ولينذروا البواقي من قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصّلوا أيام غيبتهم من العلوم. هـ. وتقدير الآية على هذا : فلو لا نفر من كل فرقة طائفة ، وجلس طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم الخارجين للغزو إذا رجعوا إليهم من غزوهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : لو اشتغل الكلّ بالتّفقّه فى الدّين لتعطّل عليهم المعاش ، ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب ، فجعل ذلك فرضا على الكفاية. ويقال : المسلمون على مراتب : فعوامّهم كالرعية للملك وكتبة الحديث كخزنة الملك. وأهل القرآن كحفّاظ الدفاتر ونفائس الأموال. والفقهاء بمنزلة الوكلاء إذ الفقيه يوقع الحكم عن اللّه.

وعلماء الأصول كالقوّاد وأمراء الجيوش. والأولياء كأركان الباب. وأرباب القلوب وأصحاب الصفاء كخواص الملك وجلسائه. فشغل قوما بحفظ أركان الشرع ، وآخرين بإمضاء الأحكام ، وآخرين بالردّ على المخالفين ، وآخرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجعل قوما مفردين لحضور القلب وهم

أصحاب الشهود ، ليس لهم شغل ، يراعون مع اللّه أنفاسهم ، وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزّهم طلب ، ولا يهزّهم أمر ، فهم باللّه للّه ، بمحو ما سوى اللّه ، وأمّا الذين يتفقهون فى الدّين فهم الداعون إلى اللّه ، وإنما يفهم الخلق عن اللّه بمن كان يفهم عن اللّه. هـ.

قوله : وأما الذين يتفقهون .. إلخ ، الداعون إلى اللّه على الحقيقة هم العارفون باللّه ، وهم أصحاب الشهود ، الذين وصفهم قبل ، وأما الفقهاء فى الدّين فإنما يدعون إلى أحكام اللّه ، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته فدعواهم ضعيفة التأثير ، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدى العارفين.

وقال الورتجبي ، فى قوله تعالى : (ليتفقهوا فى الدين) : قال المرتعش : السياحة والأسفار على ضربين : سياحة لتعلم أحكام الدين وأساس الشريعة ، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس ، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه ، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام فى الخلق يهديهم لأخلاقه وشمائله.

وسياحة هى سياحة الحق ، وهى رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم ، فهذا بركته تعم البلاد والعباد. هـ.

(٤٤٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٣

ثم أمر بجهاد الأقرب فالأقرب ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : آية ١٢٣]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، أي : جاهدوا الأقرب فالأقرب بالتدريج ، كما أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم بإنذار عشيرته الأقربين ، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح. وقيل : هم يهود حوالى المدينة ، كقريظه والنضير وخيبر ، وقيل : الروم بالشام وهو قريب من المدينة ، وكانت أرض العرب قد عمها الإسلام ، وكانت العراق حينئذ بعيدة. وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً شدة وصبرا على قتالهم ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ بالإعانة والنصر والحراسة.

الإشارة : ينبغى لأهل الوعظ والتذكير أن يبدأوا بالأقرب فالأقرب على التدريج ، قال الرفاعي رضى اللّه عنه : إذا أراد اللّه أن يرقى عبدا إلى مقامات الرجال كلفه بأمر نفسه أولا ، فإذا أدب نفسه واستقامت معه ، كلفه بأهله فإن أحسن إليهم وساسهم ، كلفه بأهل بلده ، فإن أحسن إليهم وساسهم ، كلفه جهة من البلاد ، فإن هو نصحهم ، وساسهم ، وأصلح سريرته مع اللّه ، كلفه رتبة ما بين السماء والأرض ، فإن للّه خلقا لا يعلمهم إلا اللّه ، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل

القطب الغوث ، وهناك يطلعه اللّه على بعض غيبه. انتهى.
والغلظة التي تكون فى المذكر ، إذا رأى منكرا ، أو ذكر له وأراد النهى عنه. وأما فى الترغيب والإرشاد فينبغى أن يغلب جانب اللطافة واللين. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر حال المنافقين عند نزول الوحى ، لأن السورة جلها فى فضيحتهم ، فقال :
[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٧]
وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٢٧)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٤
يقول الحق جل جلاله : وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ من القرآن ، فَمِنْهُمْ فمن المنافقين مَنْ يَقُولُ إنكارا واستهزاء : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ السورة إِيماناً ، كما يزعم أصحاب محمد : أن القرآن يزيدهم إيمانا ، فلا زيادة فيه ، ولا دليل أنه من عند اللّه. قال تعالى فى الرد عليهم : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً لتنوير قلوبهم ، وصفاء سرائرهم ، فتزيدهم إيمانا وعلما لما فيها من الإنذار والإخبار ، ولانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بنزولها لأنها سبب لزيادة إيمانهم ، وارتفاع درجاتهم ، بخلاف قلوب المنافقين فلظلمانيتها وخوضها لم تزدهم إلا خوضا ، كما قال تعالى :
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كفر وشك ، فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ أي : كفرا بها ، مضموما إلى الكفر بغيرها ، الذي كان حاصلا فيهم ، وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ أي : وتحكم ذلك فى قلوبهم حتى ماتوا عليه.
أَوَلا يَرَوْنَ أي : المنافقون ، أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ أي : يبتلون ويختبرون بأصناف البليات ، كالأمراض والجوع ، أو بالجهاد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيعاينون ما يظهر عليه من الآيات ، أو يفضحون بكشف سرائرهم. يفعل ذلك بهم فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لا يَتُوبُونَ : لا ينتهون من نفاقهم وكفرهم ، وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ يعتبرون.
وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ ، يريدون الهرب ، يقولون : هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ إذا قمتم ، فإن لم يرهم أحد قاموا وانصرفوا. قال البيضاوي : تغامزوا بالعيوب ، إنكارا لها وسخرية ، أو غيظا لما

فيها من عيوبهم. هـ. قال ابن عطية : المعنى : إذا ما أنزلت سورة فيها فضيحتهم ، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير ، يفهم من تلك النظرة : التقرير : هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أمركم؟ وقوله :

ثُمَّ انْصَرَفُوا أي : عن طريق الاهتداء ، وذلك أنهم حينما بيّن لهم كشف أسرارهم ، يقع لهم – لا محالة – تعجب وتوقف ونظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لهم ، فهم ، إذ يصممون على الكفر ، ويرتكبون فيه ، كأنهم انصرفوا عن تلك الحال ، التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. هـ.

والتحقيق : أن معنى انْصَرَفُوا : قاموا عن مجلس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مخالفة الفضيحة. صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عن الإيمان دعاء عليهم ، أو إخبار ، فيستوجبون ذلك بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ لا يفهمون عن اللّه ولا عن رسوله – عليه الصلاة والسلام – ، أو لا يفقهون سوء فهمهم أو عدم تدبرهم.

الإشارة : زيادة الإيمان عند سماع القرآن يكون على حسب التصفية والتطهير من الأغيار ، فبقدر ما يصفو القلب من الأغيار يكشف له عن أسرار القرآن. قال بعضهم : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة ، فجاهدت نفسى

وطهرتها ، فصرت كأنى أسمعه من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه ، فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل يلقيه على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، ثم منّ علىّ اللّه بمنزلة أخرى ، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به ، فعندها وجدت له نعيما لا أصبر عليه. هـ. بلفظه.

مثل هذا يزيده القرآن إيقانا ، ويستبشر قلبه عند سماعه ، وأما من كان مريض القلب بحب الدنيا ، مغمورا بالشكوى والأوهام والخواطر ، فلا يزيده القرآن إلا بعدا حيث لم يتدبر فيه ، ولم يعمل بمقتضاه ، وإذا حضر مثل هذا الغافل مجلس وعظ أو تذكير أو ذكر لم يطق الجلوس ، بل نظر : هل يراه من أحد؟ ثم انصرف ، صرف اللّه قلبه عن حضرة قدسه لعدم فهمه عن ربه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ختم السورة بذكر محاسن نبيه – عليه الصلاة والسلام – لما ظهر عليه فى هذه السورة من الرحمة والرأفة بالمؤمنين ، ومن العفو والصفح عن المعتذرين ، فقال :

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٨ الى ١٢٩]

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

قلت : «عزيز» : صفة «لرسول» ، و«ما عنتم» : فاعله ، و«ما» : مصدرية ، أي : عزيز عليه عنتكم ،

أو عزيز : خبر مقدم ، و«ما عنتم» مبتدأ ، والعنت : المشقة والتعب.
يقول الحق جل جلاله ، مخاطبا العرب ، أو قريش ، أو جميع بنى آدم : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم ، أي : من قبيلتكم ، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته ، وتفهمون خطابه ، أو من جنسكم من البشر. وقرأ ابن نشيط : بفتح الفاء ، أي من أشرافكم. قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «إنّ اللّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفاني من بنى هاشم ، فأنا مصطفى من مصطفين».
عَزِيزٌ عَلَيْهِ ، أي : شديد شاق عليه ما عَنِتُّمْ أي : عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه فى دينكم ودنياكم. حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أي : على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم ، بِالْمُؤْمِنِينَ منكم ومن غيركم رَؤُفٌ رَحِيمٌ أي : شفيق بهم ، قدّم الأبلغ منهما لأن الرأفة شدة الرحمة للفاصلة. وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى.

(٢/٤٤٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٦
فَإِنْ تَوَلَّوْا عن الإيمان بك ، بعد هذه الحالة المشهورة ، التي منّ اللّه عليهم بها ، فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ أي : كافينى أمركم ، فإن قلت ذلك فإنه يكفيك شأنهم ويعينك عليهم ، أو فإن أعرضوا فاستعن باللّه وتوكل عليه ، فإنه كافيك ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فلا يتوكل إلا عليه ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، أي : الملك العظيم ، أو الجسم الأعظم المحيط ، الذي تنزل منه الأحكام والمقادير.
وعن أبى : آخر ما نزل هاتان الآيتان. وعن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما نزل القرآن علىّ إلّا آية آية ، وحرفا حرفا ، ما خلا سورة براءة ، و(قل هو اللّه أحد) فإنهما أنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» «١» قاله البيضاوي.
وهاتان الآيتان أيضا مما وجدتا عند خزيمة بن ثابت ، بعد جمع المصحف ، فألحقتا فى المصحف ، بعد تذكر الصحابة لهما وإجماعهم عليهما. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : ينبغى لورثته – عليه الصلاة والسلام – الداعين إلى اللّه ، أن يتخلقوا بأخلاقه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فيشق عليهم ما ينزل بالمؤمنين من المشاق والمكاره ، وييسرون ولا يعسرون عليهم ، ويحرصون على الخير للناس كافة ، ويبذلون جهدهم فى إيصاله إليهم ، ويرحمونهم ويشفقون عليهم ، فإن أدبروا عنهم استغنوا باللّه وتوكلوا عليه ، وفوضوا أمرهم إليه ، من غير أسف ولا حزن.
وقال الورتجبي : قوله تعالى : عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ ، اشتد عليه مخالفتنا مع الحق ، ومتابعتنا هوانا

واحتجابنا عن الحق. قال بعضهم : شق عليه ركوبكم مراكب الخلاف. قال سهل : شديد عليه غفلتكم عن اللّه ولو طرفة عين.

ثم قال فى قوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى اللّه ...) الآية : سلى قلبه بإعراضهم عن متابعته ، مع كونه حريصا على هدايتهم ، أي : ففى اللّه كفاية عن كل غير وسوى.

قال القشيري : أمره أن يدعو الخلق إلى التوحيد ، ثم قال له : فإن أعرضوا عن الإجابة فكن بنا ، بنعت التجريد. ويقال : قال له : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ، ثم أمره أن يقول : حسبى اللّه. قوله تعالى : حَسْبُكَ :

عين الجمع ، وقوله : حَسْبِيَ اللَّهُ فرق ، بل هو الجمع ، أي : قل ، ولكن بنا تقول ، فنحن المتولون عنك وأنت مستهلك فى عين التوحيد فأنت بنا ، ومحو عن غيرنا. هـ وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

---

(١) عزاه فى الفتح السماوي ، للثعلبى ، من حديث السيدة عائشة ، وقال الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف : (إسناده واه) ، وقال الولي العراقي : هو منكر جدا. وقال التفتازانيّ فى حاشيته على الكشاف : هذا يخالف ما ثبت فى أحاديث صحيحة وردت فى أسباب نزول كثير من الآيات ، فإنها نزلت منفردة. وذلك يدل على أن السورة لم تنزل جملة ، ولو لم لم تكن إلا آية : «وعلى الثلاثة الذين خلفوا ..» لكفى. هـ. راجع الفتح السماوي (٢/ ٧١١)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٧

سورة يونس

مكية. وهى مائة وتسع آيات. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» مع قوله : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فقد تعجبوا منه مع كونهم يعرفون أمانته وصدقه.

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (١) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (٢)

قلت : (عجبا) خبر كان ، واسمها : (أن أوحينا) ، ومن قرأ بالرفع فالأمر بالعكس ، أو كان تامة ، واللام

متعلقة بعجبا ، وهو مصدر للدلالة على أنهم جعلوه أعجوبة لهم ، يتوجهون نحوه بإنكارهم واستهزائهم.
قال في المغني : المصدر الذي ليس فى تقدير حرف الموصول وصلته لا يمنع التقديم عليه ، على أن السعد قال فى المطوّل : إن معمول المصدر إذا كان ظرفا أو شبهه ، الأظهر أنه جائز التقديم ، قال تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ «٢» ، وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ «٣» ومثل هذا كثير فى الكلام ، وليس كل ما أول بشيء حكمه حكم ما أول به ، مع أن الظرف مما يكيفه رائحة الفعل لأن له شأنا ليس لغيره لتنزله من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيه وعدم انفكاكه عنه ، ولهذا اتسع فى الظروف ما لم يتسع فى غيرها. هـ.
يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المجتبى المختار تِلْكَ الآيات التي تنزل عليك هى آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ، الذي اشتمل على الحكم الباهرة والعبر الظاهرة ، أو المحكم الذي لم ينسخ منه شيء بكتاب آخر بعده ، أو كلام حكيم. أَكانَ لِلنَّاسِ أي : كفار قريش وغيرهم عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ ولم يكن من عظمائهم؟ والاستفهام للإنكار ، والرد على من استبعد النبوة ، أو تعجب من أن يبعث اللّه رجلا من وسط الناس.

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الصافات. [.....]
(٣) من الآية ٢ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٨
قيل : كانوا يقولون : العجب أن اللّه تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب. وهذا من فرط حماقتهم ، وقصور نظرهم على الأمور العاجلة ، وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة.
هذا .. وأنه – عليه الصلاة والسلام – لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبرونه ، إلا فى المال ، وخفة الحال أعون شيء فى هذا الباب ، ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك – أي : خفافا من المال – وقيل : تعجبوا من أنه بعث بشرا رسولا ، كما سبق فى سورة الأنعام. قاله البيضاوي.
ثم فسّر الوحى المذكور فقال : أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ أي : أوحينا إليه بأن أنذر الناس أي : خوفهم من غضب ربهم ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ، عمم الإنذار ، إذ ليس من أحد إلا وفيه ما ينبغى أن ينذر منه ، وخصص البشارة إذ ليس للكفار ما يصح أن يبشروا به ، قاله البيضاوي.
أي : بشر المؤمنين بأنّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ أي : سابقة ومنزلة رفيعة ، سميت قدما لأن السبق

يكون بها ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد ، وأضيفت إلى الصدق لتحققها وللتنبيه على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية. قال ابن جزي : أي : عمل صالح قدموه ، وقال ابن عباس : السعادة السابقة لهم فى اللوح المحفوظ. هـ وقال ابن عطية : والصدق فى هذه الآية بمعنى الصلاح ، كما تقول : رجل صدق ورجل سوء. هـ.

قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا الكتاب ، أو ما جاء به الرسول ، لَسِحْرٌ «١» مُبِينٌ أي : بيّن ظاهر ، وقرأ ابن كثير والكوفيون : لَساحِرٌ ، على أن الإشارة إلى الرسول ، وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أمورا خارقة للعادة ، معجزة لهم عن المعارضة ، وكلامهم هذا يحتمل أن يكون تفسيرا لما ذكره قبل من تعجبهم ، أو يكون مستأنفا.

الإشارة : تعجب الناس من أهل الخصوصية سنة ماضية ، فكما خفى عن أعين الكفار سر النبوة ، خفى عن أعين الخفافيش سر الخصوصية ، فلا يطلع عليها إلا من سبق له قدم صدق عند ربه ، فسبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية فلم يدل عليها إلا من أراد أن يوصله إلى مشاهدة عظمة الربوبية.

قال فى لطائف المنن : فأولياء اللّه أهل كهف الإيواء ، فقليل من يعرفهم ، وسمعت الشيخ أبا العباس رضى اللّه عنه يقول : معرفة الولي أصعب من معرفة اللّه ، فإنّ اللّه تعالى معروف بكماله وجماله ، ومتى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ، ويشرب كما تشرب؟ ، وإذا أراد اللّه أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك وجود بشريته ، وأشهدك وجود خصوصيته. هـ.

---

(١) قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي «لساحر» بالألف وكسر الحاء. وقرأ الباقون «لسحر» بغير ألف ، إشارة إلى الوحى – انظر الإتحاف (٢/ ١٠٤).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٤٩

ثم فسر عظمة ربوبيته ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣ الى ٤]

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ رَبَّكُمُ الذي يستحق العبادة وحده هو اللَّهُ الذي أظهر الكائنات من العدم إلى الوجود ، وبه رد على من أنكر النبوة ، كأنه يقول : إنما أدعوكم إلى عبادة اللّه الذي خلق الأشياء ، فكيف تنكرون ذلك وهو الحق المبين؟ ثم فصّل ذلك فقال : الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ التي هى أصول الكائنات ، فِي مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ من أيام الدنيا ، ولم يكن حينئذ ليل ولا نهار ، والجمهور : أن ابتداء الخلق يوم الأحد. وفى حديث مسلم : يوم السبت ، وأنه خلق الأرض ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات ، ثم دحا الأرض بعد ذلك. ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، كاستواء الملك على سريره ليدبر أمر مملكته ، ولذلك رتب عليه : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، وقد تقدم الكلام عليه فى الأعراف «١».

قال البيضاوي : يدبر أمر الكائنات على ما تقتضيه حكمته ، وسبقت به كلمته ، بتحريك أفلاكها ، وتهييء أسبابها ، والتدبير : النظر فى عواقب الأمور لتجيء محمودة العاقبة. هـ.

ما مِنْ شَفِيعٍ تقبل شفاعته إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ له فى الشفاعة ، وهو تقرير لعظمته وعزة جلاله ، ورد على من يزعم أن آلهتهم تشفع لهم عند اللّه ، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ، كالأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء. ذلِكُمُ اللَّهُ أي : الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية هو اللَّهُ رَبُّكُمْ لا غير إذ لا يشاركه أحد فى شيء من ذلك ، فَاعْبُدُوهُ : أفردوه بالعبادة أَفَلا تَذَكَّرُونَ أي :

تتفكرون أدنى تفكر ، فتعرفون أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه من الأصنام.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ بالبعث جَمِيعاً فيجازيكم على أعمالكم ، ويعاقبكم على شرككم ، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا : مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وعد من اللّه. إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ بإظهاره فى الدنيا ثُمَّ يُعِيدُهُ بعد إهلاكه فى الآخرة. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، تعليل للعودة وهى البعثة ،

---

(١) راجع تفسير الآية : ٥٤ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٠

وقوله : بِالْقِسْطِ أي : بالعدل بأن يعدل فى جزائهم ، فلا يظلم مثقال ذرة ، أو بعدلهم وقيامهم على العمل فى أمورهم ، أو بإيمانهم لأنه العدل القويم ، كما أن الشرك ظلم عظيم. وهو الأوجه لمقابلة قوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بسبب كفرهم وشركهم – الذي هو الظلم العظيم – لكنه غيّر النظم للمبالغة فى استحقاقهم العذاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، وأما العقاب فإنما هو واقع بالعرض ، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ،

ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فإنه إنما ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.
والآية كالدليل لقوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ، فإنه لمّا كان المقصود من الإبداء والإعادة مجازاة اللّه المكلفين على أعمالهم ، كان مرجع الجميع إليه لا محالة ، ويؤيده قراءة من قرأ : «أنه يبدأ» بالفتح ، أي : لأنه ، ويجوز أن يكون منصوبا بما نصب «وعد اللّه». قاله البيضاوي.
الإشارة : تقدم بعض إشارة هذه الآية فى الأعراف ، وقال الورتجبي هنا : جعل العرش مرآت تجلى قدسه ومأوى أرواح أحبابه لقوله : ثُمَّ اسْتَوى ... الآية ، ثم قال : ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله : فَاعْبُدُوهُ. وقال القشيري : ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ تعريف ، وقوله : فَاعْبُدُوهُ تكليف ، فحصول التعريف بتحقيقه ، والوصول إلى ما ورد به التكليف بتوفيقه. هـ. وقال فى قوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً : الرجوع يقتضى ابتداء ، والأرواح قبل حصولها فى الأشباح كان لها فى مواطن التسبيح والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبّيه وذويه ، وأنشدوا :
أيا قادما من سفرة الهجر مرحبا أنا ذاك لا أنساك ما هبّت الصّبا. هـ.
وفى الإحياء : كل من نسى اللّه أنساه – لا محالة – نفسه ، ونزل إلى رتبة البهائم ، وترك الترقي إلى أفق الملأ الأعلى ، وخان فى الأمانة التي أودعها له تعالى ، وأنعم بها عليه ، وكان كافرا لنعمته ، ومتعرضا لنقمته فإن البهيمة تتخلص بالموت ، وأما هذا فعنده أمانة سترجع – لا محالة – إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها ، وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة ، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها ، وتعود إلى بارئها وخالقها ، إما مظلمة منكسة ، وإما زاهرة مشرقة ، والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية ، والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة إذ المرجع ومصير الكل إليه ، إلّا أنها ناكسة رؤوسها عن جهة أعلى عليين ، إلى جهة أسفل سافلين ، ولذلك قال تعالى : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ «١» فبيّن أنهم عند ربهم منكسون منحوسون ، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم ، وانتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم اللّه تعالى فيمن حرمه توفيقه ، ولم يهده طريقه ، فنعوذ باللّه من الضلال والنزول فى منازل الجهال. هـ.

---

(١) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥١
قلت : ظاهر كلامه : أن الروح لا ترجع إلى وطنها وتتصل بحضرة ربها إلا بعد خراب هذا البدن ،

والحق أنها ترجع لأصلها ، وتتصل بحضرة ربها مع قيام هذا البدن إذا كمل تطهيرها وتمت تصفيتها من بقايا الحس ، وانقطع عنها علائق هذا العالم الجسماني ، فتتصل حينئذ بالعالم الروحاني ، مع قيام العالم الجسماني ، كما هو مقرر عند أهل التحقيق ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إيجاد النيرين ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥ الى ٨]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (٧) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٨)

قلت : «ضياء» : مفعول ثان ، أي : ذات ضياء ، وهو مصدر كقيام ، أو جمع ضوء كسياط ، والياء منقلبة عن الواو ، وفى رواية عن ابن كثير بهمزتين فى كل القرآن على القلب ، بتقديم اللام على العين ، والضمير فى «قدره» للشمس والقمر ، كقوله : وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «١» ، أو للقمر فقط.

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً أي : ذات ضوء وإشراق أصلى ، وَالْقَمَرَ نُوراً أي : ذا نور عارض ، مقتبس من نور الشمس عند مقابلته إياها ، ولذلك يزيد نوره وينقص ، فقد نبه سبحانه بذلك على أنه خلق الشمس نيرة فى ذاتها ، والقمر نورا بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها ، فالنور أعم من الضياء ، والضياء أعظم من النور. وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ أي : قدر سير كل واحد منهما منازل ، أو القمر فقط ، وخصصه بالذكر لسرعة سيره ، ومعاينة منازله ، وإناطة أحكام الشرع به. ولذلك علله بقوله : لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ أي : حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالى فى معاملتكم وتصرفاتكم :

ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ الذي تقدم من أنواع المخلوقات إِلَّا بِالْحَقِّ أي : ملتبسا بالحق ، مراعيا فيه مقتضى الحكمة البالغة ، لا عبثا عاريا عن الحكمة ، أو ما خلق ذلك إلا ليعرف فيها ، فما نصبت الكائنات لتراها ، بل لترى

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

فيها مولاها. وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه : الحق الذي خلق اللّه به كل شيء كلمة

«كن». قال سبحانه :

وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ «١». هـ. وهو بعيد هنا.

يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٢» فإنهم المنتفعون بالنظر فيها والاعتبار بها.

ثم بيّن وجه الاعتبار فقال : إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : تعاقبهما بالذهاب والمجيء ، أو بالزيادة والنقصان ، وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من أنواع الكائنات وضروب المخلوقات ، لَآياتٍ دالة على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ، لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ اللّه ، ويخشون العواقب ، فإن ذلك يحملهم على التفكر والتدبر ، بخلاف المنهمكين فى الغفلة والمعاصي ، الذين أشار إليهم بقوله : إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا أي : لا يتوقعونه ، أو : لا يخافون بأسه لإنكارهم البعث ، وذهولهم بالمحسوسات عما وراءها ، وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا : قنعوا بها بدلا من الآخرة لغفلتهم عنها ، وَاطْمَأَنُّوا بِها أي : سكنوا إليها مقصرين هممهم على لذائذها وزخارفها ، وسكنوا فيها سكون من يظن أنه لا ينزعج عنها.

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا المتقدمة الدالة على كمال قدرتنا ، غافِلُونَ : لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون لانهماكهم فى الغفلة والذنوب.

قال البيضاوي : والعطف إما لتغاير الوصفين ، والتنبيه على أن الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسا ، والانهماك فى الشهوات ، بحيث لا تخطر الآخرة ببالهم أصلا ، وإما لتغاير الفريقين ، والمراد بالأولين : من أنكر البعث ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ، وبالآخرين من ألهاه حب العاجل عن التأمل فى الآجل والإعداد له. هـ.

أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : بما واظبوا عليه وتمرنوا به من المعاصي. قال ابن عطية : وفى هذه اللفظة رد على الجبرية ، ونص على تعلق العقاب بالتكسب. هـ.

الإشارة : هو الذي جعل شمس العيان مشرقة فى قلوب أهل العرفان ، لا غروب لها مدى الأزمان ، وجعل قمر توحيد الدليل والبرهان نورا يهتدى به إلى طريق الوصول إلى العيان ، وقدّر السير به منازل – وهى مقامات اليقين ومنازل السائرين – ينزلون فيها مقاما إلى صريح المعرفة ، وهى التوبة والخوف ، والرجاء والورع ، والزهد والصبر ، والشكر والرضى والتسليم والمحبة ، والمراقبة والمشاهدة. ما خلق اللّه ذلك إلا بالحق ، ليتوصل به إلى الحق. إن فى اختلاف ليل القبض ونهار البسط على قلب المريد لآيات دالة له على السير ، لقوم يتقون السّوى ، أو شواغل الحس.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة الأنعام.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بياء الغيب (يفصل). والباقون بنون العظمة (نفصل) انظر الإتحاف (٢/ ١٠٤).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٣

إن الذين لا يرجون الوصول إلينا لقصر همتهم ، ورضوا بالحياة الدنيا وشهواتها ، واطمأنوا بها ولم يرحلوا عنها ، إذ لا يتحقق سير السائرين إلا بمجاهدة تركها والرحيل بالقلب عنها ، والذين هم عن آياتنا غافلون لانهماكهم فى الهوى والحظوظ ، أولئك مأواهم نار القطيعة وغم الحجاب ، بما كانوا يكسبون من الاشتغال بالحظوظ والشهوات.

وبالله التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩ الى ١٠]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠)

قلت : (تجرى) : جملة استئنافية ، أو خبر ثان لإنّ ، أو حال من الضمير المنصوب فى يَهْدِيهِمْ.

و(دعواهم) :

مبتدأ ، و(سبحانك) : مقول للخبر – أي : قولهم سبحانك. والتحية مأخوذة من تمنى الحياة والدعاء بها ، يقال : حياه تحية ، ويقال للوجه : محيا لوقوع التحية عند رؤيته ، و(آخر) : مبتدأ ، و(أن الحمد لله) : خبر ، وأن مخففة.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ أي : يسددهم بِإِيمانِهِمْ بسبب إيمانهم إلى الاستقامة والنظر ، أو إلى سلوك سبيل يؤدى إلى الجنة ، أو إلى إدراك الحقائق العرفانية ، كما قال – عليه الصلاة والسلام – : «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم» ، أو لما يشتهونه فى الجنة ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ الأربعة ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، دَعْواهُمْ فِيها أي : دعاؤهم فيها : سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ أي : اللهم إنا نسبحك تسبيحا. وروى : أن هذه الكلمة هى ثمر أهل الجنة ، فإذا اشتهى أحدهم شيئا قال : سبحانك اللهم ، فينزل بين يديه. رواه ابن جريج وسفيان بن عيينة.

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ أي : ما يحيى به بعضهم بعضا ، أو تحية الملائكة إياهم ، أو تسليم اللّه تعالى عليهم فيها سلام ، وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ أي : وخاتمة دعائهم فى كل موطن حمده تعالى وشكره. والمعنى : أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمته وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال ، وقدّسوه عند مشاهدته عن كل تماثيل وخيال ، فحيّاهم بسلام من عنده ، وعند ما منحهم سلامه وأحلّ عليهم رضوانه ، وأدام لهم كرامته وجواره ، وأراهم وجهه ، حمدوه بما حمد به نفسه ، فكانت بدايتهم

بالتنزيه والتعظيم ، وخاتمة دعائهم فى كل موطن حمده وشكره على ما مكنهم فيه ، من رؤية وجهه الكريم ، ودوام النعيم المقيم ، وسمى دعاء لأنه يستدعى المزيد من فضله. قاله المحشى.

(٤٥٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٤

الإشارة : إن الذين استكملوا الإيمان ، وأخلصوا الأعمال ، يهديهم ربهم إلى من يوصلهم إلى جنة حضرته ، ببركة إيمانهم ، تجرى من تحت أفكارهم أنهار العلوم ، فى جنات مشاهدة طلعته ، والتنعم بأنوار معرفته ، فإذا عاينوا ذلك أدهشتهم الأنوار ، فبادروا إلى التنزيه والتقديس ، فيجيبهم الحق تعالى بإقباله عليهم بأنوار وجهه ، وأسرار ذاته ، فيحمدونه ويشكرونه على ما أولاهم من سوابغ نعمته ، والسكون فى جوار حضرته ، منحنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر ، آمين.

ولمّا تعجب الكفار من بعث الرسول منهم ، وكفروا به ، استعجلوا ما خوفهم به من العذاب ، فأنزل اللّه جوابا لهم :

[سورة يونس (١٠) : آية ١١]

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

قلت : (استعجالهم) : نصب على المصدر ، أي : استعجالا مثل استعجالهم بالخير. قال البيضاوي : وضع موضع تعجيله لهم بالخير إشعارا بسرعة إجابته لهم فى الخير ، حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم. هـ. (فنذر) :

عطف على فعل محذوف دلت عليه الشرطية ، كأنه قيل : ولكن لا نعجل ولا نقضى بل نمهلهم فنذر .. إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ حيث يطلبونه ، كقولهم : فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «١» ، ائْتِنا بِما تَعِدُنا «٢» اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ كما يعجل اللّه لهم الخير حين يسألونه لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي : لأميتوا وأهلكوا من ساعتهم ، وقرأ ابن عباس ويعقوب : «لقضى» بالبناء للفاعل ، أي : لقضى اللّه إليهم أجلهم ، ولكن من حلمه تعالى وكرمه يمهلهم إلى تمام أجلهم ، فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا استدراجا وإمهالا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ : يتحيرون. والعمه : الخبط فى الضلال ، وهذا التفسير أليق بمناسبة الكلام. وقيل : نزلت فى دعاء الإنسان على نفسه وماله وولده بالشر ، أي : لو عجل اللّه للناس الشر كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعا ، فهو كقوله وَيَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ «٣» ويكون قوله :

فَنَذَرُ .... إلخ استئنافا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من حلمه تعالى وسعة جوده أنه لا يعامل عبده بما يستحقه من العقاب ، ولا يعاجله بما يطلبه إن لم يكن فيه سداد وصواب ، حكى أن رجلا قال لبعض الأنبياء – عليهم السلام – : قل لربى : كم أعصيه وأخالفه ولم يعاقبنى ، فأوحى اللّه إلى ذلك النبي : ليعلم أنى أنا وأنت أنت. هـ. بل من عظيم كرمه تعالى أنه قد يعامل

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

(٢) من الآية ٧٧ من سورة الإسراء.

(٣) من الآية ١١ من سورة الإسراء.

السائرين بعكس ما يستحقونه فى جانب المخالفة فقد تهوى بهم أنفسهم إلى مقام الخفض فيرتفعون ، وإلى مقام البعد فيقتربون ، وهذا فى قوم سبقت لهم العناية ، فلم تضرهم الجناية ، وحفت بهم الرعاية ، فلم تستهوهم الغواية ، إذا صدرت منهم المخالفة ندموا وانكسروا. والغالب فيمن كان تحت جناح الأولياء الكبار أن يسلك به هذا المسلك العظيم وما ذلك على اللّه بعزيز.

وإذا كان الحق تعالى يعجل الخير ويمهل الشر ، كان الواجب على العبد شكره على الدوام ، لا الإعراض عنه ونسيانه ، كما نبه عليه تعالى بقوله :

[سورة يونس (١٠) : آية ١٢]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)

قلت : (لجنبه) : متعلق بحال محذوفة ، أي : مضطجعا لجنبه ، و(كأن) مخففة يقول الحق جل جلاله : وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ فى بدنه أو ماله أو أحبابه ، دَعانا لإزالته مخلصا فيه ، وتضرع إلينا حال كونه مضطجعا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً ، وفائدة الترديد تقسيم الدعاء لجميع الأحوال أو لأصناف المضار ، فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ أي : مضى على طريقه واستمر على كفره ، ولم يشكر اللّه على دفعه ، أو مرّ عن موقف الدعاء ، ولم يرجع إليه. كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا أي : كأنه لم يدعنا إلى كشف ضُرٍّ مَسَّهُ قط نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ «١» كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ أي : مثل هذا التزيين زين للمسرفين ما كانُوا يَعْمَلُونَ من الانهماك فى الشهوات ، والإعراض عن شكر المنعم عند المسرات وذهاب العاهات.

وفى الآية تهديد لمن تشبه بهذه الحالة ، بل الواجب على العبد دوام التجائه إلى ربه ، والشكر له عند ظهور إجابته وإسدال عافيته.

الإشارة : من حسن الأدب السكون تحت مجارى الأقدار ، والتسليم لأحكام الواحد القهار ، «فليس الشأن أن ترزق الطلب ، إنما الشأن أن تزرق حسن الأدب» ، وحسن الأدب : هو الفهم عن اللّه فإذا شرح صدرك للدعاء ، فادع ولا تكثر ، فإن المدعو قريب ، ليس بغافل فينبه ، ولا ببعيد فتنادى عليه ، فإذا دعوته وأجابك فاشكره ، وإن أخّر عنك

---

(١) الآية ٨ من سورة الزمر.

الإجابة فاصبر فقد ضمن الإجابة فيما يريد ، لا فيما تريد ، وفى الوقت الذي يريد لا فى الوقت الذي تريد. والله تعالى أعلم.

ثم هدد من أساء الأدب ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٣ الى ١٤]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ يا أهل مكة ، لَمَّا ظَلَمُوا بالكفر وتكذيب الرسل ، وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ : بالمعجزات الواضحات ، الدالة على صدقهم ، وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أي : ما استقام لهم أن يؤمنوا ، لما سبق لهم من الشقاء ولفساد استعدادهم ، أو ما كانوا ليؤمنوا بعد أن هلكوا لفوات محله ، كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء – وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم عليه ، بحيث تحقق أنه لا فائدة فى إمهالهم – نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ أي : نجزى كل مجرم ، أو نجزيهم ، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم ، وأنهم أعلام فيه. قاله البيضاوي.

ثُمَّ جَعَلْناكُمْ يا أمة محمد خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد إهلاكهم ، فقد استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها ، استخلاف من يختبر لِنَنْظُرَ أي : لنظهر ما سبق به العلم ، فيتبين فى الوجود ، كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، أخيرا أم شرا؟ فنعاملكم على مقتضى أعمالكم.

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه يقول : «إنما جعلنا خلفا لينظر كيف عملنا ، فأروا اللّه حسن أعمالكم فى السر والعلانية ، وكان أيضا يقول : (قد استخلفت يا ابن الخطاب ، فانظر كيف

تعمل).

الإشارة : ما هلك من هلك إلا لإخلاله بالشرائع أو بالحقائق ، فالشرائع ، صيانة للأشباح ، والحقائق صيانة للأرواح ، فمن قام بالشرائع كما ينبغى صان نفسه من الآفات الدنيوية والأخروية ، ومن قام بالحقائق على ما ينبغى ، صان روحه من الجهل بالله فى هذه الدار ، وفى تلك الدار ، ومن قام بهما معا صان جسمه وروحه ، وكان من المقربين ، ومن قام بالشرائع دون الحقائق صان جسمه وترك روحه معذبة فى هذه الدار بالخواطر والوساوس والأوهام ، وفى تلك الدار بالبعد والمقام مع العوام. ومن قام بالحقائق دون الشرائع فإن كان دعوى عذب جسمه وروحه لزندقته ، وإن كان حقا عذب جسمه هنا بالقتل ، كما فعل بالحلاج ، والتحق بالمقربين فى تلك الدار.

(٤٥٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٧

ويقال لأهل كل عصر : ولقد أهلكنا القرون من قبلكم بالبعد وغم الحجاب ، لما ظلموا بالوقوف مع الحظوظ والشهوات ، وجاءتهم رسلهم التي توصلهم إلى ربهم – وهم أولياء زمانهم – بالآيات الواضحة على صدقهم ، ولو لم يكن إلا هداية الخلق على يديهم – فأنكروهم ، وما كانوا ليؤمنوا بهم لما سبق لهم من البعد ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون مع شيوخ التربية فى زمانكم ، هل تنكرونهم أو تقرونهم. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر حال أهل الإنكار ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٥ الى ١٦]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ يعنى كفار قريش آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا من المشركين ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أي : بكتاب آخر ليس فيه ما نستبعده من البعث والحساب ، والعقاب بعد الموت ، أو ما ذكره من سب آلهتنا ، وعيب ديننا ، أو اجعل هذا الكلام الذي من قبلك على اختيارنا ، فأحل ما حرمته ، وحرم ما أحللته ليكون أمرنا واحدا وكلمتنا متصلة ، أَوْ بَدِّلْهُ بأن تجعل مكان الآية المشتملة على ذلك آية أخرى.

قُلْ لهم يا محمد : ما يَكُونُ : ما يصح لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي : من قبل نفسى ، وإنما اكتفى بالجواب المذكور عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر ، قل لهم : أَنْ أي : ما أَتَّبِعُ إِلَّا

ما يُوحى إِلَيَّ ، لا أقدر أن أقول شيئا من عندى. قال البيضاوي : هو تعليل لما يكون ، فإن المتبع لغيره فى أمر لم يستبد بالتصرف فيه بوجه ، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات لبعض ، ورد لما عرّضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه ، ولذلك قيد التبديل فى الجواب وسماه عصيانا فقال : إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يوم القيامة ، وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح. هـ.

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أرسلنى إليكم ، ولا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَلا أَدْراكُمْ أي : أعلمكم بِهِ على لسانى. وفى قراءة ابن كثير : «ولأدراكم» ، بلام التأكيد ، أي : لو شاء اللّه ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان غيرى.

(٤٥٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٨

والمعنى أنه الحق لا شك فيه ، لو لم أرسل به أنا لأرسل به غيرى. وحاصل المعنى : أن الأمر بمشيئة اللّه لا بمشيئتى ، حتى أجعله على نحو ما تشتهون. ثم قرر ذلك بقوله : فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً منذ أربعين سنة مِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل نزول هذا القرآن ، لا أتلوه ولا أعلم منه شيئا ، وفيه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق للعادة ، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يدرس فيها علما ، ولا يشاهد عالما ، ولم ينشد قريضا – أي شعرا – ولا خطبة ، ثم قرأ عليهم كتابا أعجزت فصاحته كل منطيق ، وفاق كل منظوم ومنثور ، واحتوى على قواعد علمى الأصول والفروع ، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هى عليه ، علم أنه معلم به من عند اللّه. قاله البيضاوي.

فكل من له عقل سليم أدرك حقّيته ، ولذلك قرعهم بقوله : أَفَلا تَعْقِلُونَ أي : أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر ، فتعلموا أنه ليس من طوق البشر ، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار.

الإشارة : إذا ظهر أهل التربية الداعون إلى اللّه بطريق صعبة على النفوس ، يسيرون الناس عليها ، كخرق العوائد وتخريب الظواهر والتجريد ، قال من لا يرجو الوصول إلى اللّه – لغلبة الهوى عليه : ائتونا بطريق غير هذا لنتبعكم عليه ، يكون سهلا على النفوس ، موافقا لعوائدنا ، أو بدلوا هذا بطريق أسهل ، وأما هذا الذي أتيتم به ، فلا نقدر عليه ، وربما رموه بالبدعة ، فيقولون لهم : ما يكون لنا أن نبدله من تلقاء أنفسنا ، إن نتبع إلا ما سلك عليه أشياخنا وأشياخهم ، فما ربّونا به نربّى به من تبعنا ، فإن خالفنا طريقهم خفنا من عقاب اللّه ، حيث غششنا من اتبعنا ، وقد مكثنا معكم قبل صحبة أشياخنا سنين ، فلم تروا علينا شيئا من ذلك حتى صحبناهم ، فدل ذلك على أنه موروث عن أشياخهم وأشياخ أشياخهم ، أفلا تعقلون؟.

ثم سجل بالظلم على من كذب أو كذّب ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٧ الى ١٨]

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : فَمَنْ أَظْلَمُ لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن تقوّل على اللّه ما لم يقل ، وهذا بيان لبراءته مما اتهموه به من اختراعه القرآن ، وإشارة إلى كذبهم على اللّه فى نسبة الشركاء له

(٤٥٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٥٩

والولد ، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ فكفر بها ، فلا أظلم منه إِنَّهُ أي : الأمر والشأن لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ أي : لا يظفرون ببغيتهم ، ولا تنجح مساعيهم لاشراكهم بالله. كما قال تعالى : وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ من الجمادات التي لا تقدر على ضر ولا نفع ، والمعبود ينبغى أن يكون مثيبا ومعاقبا حتى تكون عبادته لجلب نفع أو دفع ضر. وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ الأوثان شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا ، أو فى الآخرة إن يكن بعث ، وكأنهم كانوا شاكين فيه ، وهذا من فرط جهالتهم ، حيث تركوا عبادة الموجد للأشياء ، الضار النافع ، إلى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ أتخبرونه بِما لا يَعْلَمُ وجوده فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وهو أن له شريكا فيهما يستحق أن يعبد. وفيه تقريع وتهكم بهم.

قال ابن جزى : هو رد عليهم فى قولهم بشفاعة الأصنام ، والمعنى : أن شفاعة الأصنام ليست بمعلومة لله الذي هو عالم بما فى السموات والأرض ، وكل ما ليس بمعلوم له فهو عدم محض ، ليس بشيء ، فقوله : أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ تقرير لهم على وجه التوبيخ والتهكم ، أي : كيف تعلمون اللّه بما لا يعلم. هـ. قال ابن عطية : وفى التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم ، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا : لا نفعل ولا نقدر أن نخبر اللّه بما لا يعلم.

ثم نزّه نفسه عن ذلك فقال : سُبْحانَهُ وَتَعالى أي : تنزيها له وتعاظم عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : إشراكهم ، أو عن الشركاء الذين يشركونهم معه. وقرأ الأخوان : بالتاء ، أي : عما تشركون أيها الكفار.

الإشارة : فى هذه الآية زجر كبير لأهل الدعوى ، الذين ادعوا الخصوصية افتراء ، ولأهل الإنكار الذين كذبوا من ثبتت خصوصيته ، وتسجيل عليهم بالإجرام ، وبعدم النجاح والفلاح ، وفيها أيضا : زجر لمن

اعتمد على مخلوق فى جلب نفع أو دفع ضر ، أو اغتر بصحبة ولى يظن أنه يشفع له مع إصراره وعظيم أوزاره. واللّه تعالى أعلم.

ثم إن اختلاف الناس على الأنبياء وتكذيبهم وإشراكهم إنما هو أمر عارض ، حصل لهم باندراس العلم وقلة الإنذار ، كما قال تعالى :

[سورة يونس (١٠) : آية ١٩]

وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً موحّدين ، على الفطرة الأصلية ، أو متفقين على الحق ، وذلك فى عهد آدم ، إلى أن قتل قابيل أخاه هابيل ، أو بعد الطوفان إلى زمان اختلافهم ، أو الأرواح

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٠

حيث استخرجهم واستشهدهم ، فاتفقوا على الإقرار ، ثم اختلفوا فى عالم الأشباح باتباع الهوى والأباطيل ، أو ببعثة الرسل فتبعتهم طائفة وكفرت أخرى. وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ فى اللوح المحفوظ ، بتأخير الحكم ، أو العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ، فإنه يوم الفصل والجزاء ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ عاجلا فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ بإهلاك المبطل وإبقاء المحق.

الإشارة : اختلاف الناس على الأولياء كاختلافهم على الأنبياء ، أمر سبق به الحكم الأزلى لا محيد عنه ، فمن طلب اتفاقهم عليه فهو جاهل باللّه وبطريق أهل اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر اقتراحهم الآيات ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٢٠]

وَيَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُونَ يقول الكفار : لَوْ لا هلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ظاهرة مِنْ رَبِّهِ تدل على صدقه ، يعاينها الناس كلهم ، فتلجئهم إلى الإيمان به ، وهذا الأمر على هذا الوجه لم يكن لنبى قط ، إنما كانت الآية تظهر معرّضة للنظر ، فيهتدى بها قوم ، ويكفر بها آخرون ، فَقُلْ لهم : إِنَّمَا علم الْغَيْبُ لِلَّهِ مختص به ، فلم أطّلع عليه حتى أعلم وقت نزولها ، ولعله علم ما فى نزولها من الضرر لكم فصرفها عنكم ، فَانْتَظِرُوا نزول ما اقترحتموه ، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لذلك ، وهذا وعد قد صدقه اللّه بنصرته – عليه الصلاة السلام – وأخذهم ببدر وغيره ، أو من المنتظرين لما يفعل اللّه بكم لعنادكم وجحودكم

الآيات.

الإشارة : ما زالت العامة تطلب من مشايخ التربية الكرامات ، فجوابهم ما قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : (قل إنما الغيب لله) فانتظروا ما يظهر على أيديهم من الهداية والإرشاد ، وإحياء البلاد والعباد بذكر اللّه ، وهذا أعظم الكرامة ، فإن إخراج الناس عن عوائدهم وعن دنياهم خارق للعادة ، سيما فى هذا الزمان الذي احتوت فيه الدنيا على القلوب ، فلا ترى عالما ولا صالحا ولا منتسبا إلا وهو مغروق فى بحر ظلماتها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم ذكر جزئيات من الآيات لمن فهم واعتبر ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢١ الى ٢٣]

وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦١

قلت : (جاءتها) : جواب «إذا» ، وجملة (دعوا) : بدل من «ظنوا» بدل اشتمال لأن دعاءهم من لوازم الظن.

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ، كصحة وعافية وخصب مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ، كمرض أو قحط إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا بالطعن فيها ، والاحتيال فى دفعها ، فقد قحط أهل مكة حتى أكلوا الجلود والميتة ، ثم رحمهم بالغيث ، فطعنوا فى آياته بالتكذيب ، وكادوا رسوله – عليه الصلاة والسلام – قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً منكم ، فقد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، ووصف مكر اللّه بالسرعة وإن كان الاستدراج يمهلهم لأنه متيقن واقع لا محالة ، وكل آت قريب.

إِنَّ رُسُلَنا الحفظة يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ فنجازيكم عليه. قال البيضاوي : هو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما يدبرون فى إخفائه لم يخف على الحفظة فضلا أن يخفى على اللّه. وعن يعقوب : «يمكرون» بالياء ليوافق ما قبله. هـ. قال ابن جزى : هذه الآية للكفار ، وتتضمن النهى لمن كان كذلك من غيرهم ، والمكر هنا :

الطعن فى آيات اللّه وترك شكره ، ومكر اللّه الموصوف بالسرعة هو عقابه لهم ، سماه مكرا مشاكلة لفعلهم ، وتسمية للعقوبة باسم الذنب. هـ.

فنزول الرحمة بعد الشدة آية تدل على كمال قدرته. وقد ورد أنه لما نزل بهم القحط التجئوا إليه صلّى اللّه عليه وسلّم وقالوا :

يا محمد إنك جئت تأمر بمكارم الأخلاق ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع اللّه يغيثنا ، فدعا ، فنزل عليهم الغيث ، فكانت معجزة له – عليه الصلاة والسلام – .

ثم ذكر آية أخرى فقال : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ بقدرته فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ : السفن ، وَجَرَيْنَ بِهِمْ بمن فيها ، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ، كأنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم ، ففيه التفات. ومقتضى القياس : وجرين بكم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ : لينة الهبوب ، وَفَرِحُوا بِها لسهولة السير بها ، جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ أي : شديد الهبوب ، وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ من كل جهة لهيجان البحر حينئذ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ أي : أهلكوا ، أو سدت عليهم مسالك الخلاص ، كمن أحاط به العدو.

(٤٦١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٢

قال ابن عطية : ركوب البحر وقت حسن الظن به للجهاد والحج متفق على جوازه ، وكذا لضرورة المعاش بالصيد ويتصرف للتجر ، وأما ركوبه لطلب الدنيا والاستكثار فمكروه عند الأكثر. قلت : ما لم يكن لبلد تجرى فيه أحكام الكفار على المسلمين وإلّا حرم. ثم قال : وأما ركوبه وقت ارتجاجه فممنوع ، وفى الحديث : «من ركب البحر فى ارتجاجه فقد برئت منه الذمة» وقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «البحر لا أركبه أبدا».

وعن على – كرم اللّه وجهه – أنه قال : لو لا هذه الآية ، لضربت عنق من يركب البحر. فقال ابن عباس : إنى لأعلم كلمات من قالهن عند ركوب البحر وأصابه عطب فعلىّ ديته ، قيل : وما هى؟ قال : اللهم يا من له السموات خاشعة ، والأرضون السبع خاضعة ، والجبال الراسية طائعة ، أنت خير حفظا وأنت أرحم الراحمين ، وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ «١» صلى اللّه على محمد النبي المصطفى ، وعلى أهل بيته ، وأزواجه وذريته ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، والملائكة المقربين ، وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٢». قال بعض الفضلاء :

جربته فصح. هـ.

ثم قال تعالى فى وصف الكفار عند إحاطة البحر بهم : دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ من غير إشراك لتراجع الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف ، قائلين : لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ الشدة لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إجابة لدعائهم إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بالكفر والمعاصي ، بِغَيْرِ الْحَقِّ أي : سارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي والفساد فى الأرض بغير الحق ، واحترز بقوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ عن تخريب المسلمين ديار الكفرة ، وإحراق زروعهم ، وقلع أشجارهم ، فإنها إفساد بحق. قاله البيضاوي.

قلت : وفى كونه بغيا نظر ، والأظهر أن قوله : بِغَيْرِ الْحَقِّ تأكيد لا مفهوم له.

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ فإن وباله عائد عليكم ، أو على أبناء جنسكم ، وذلك مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا تتمتعون به ساعة ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فى القيامة ، فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ بالجزاء عليه.

الإشارة : وإذا أذقنا الناس حلاوة المعرفة والعلم ، بعد ضرر الجهل والغفلة ، إذا لهم مكر فى آياتنا وهم الأولياء والمشايخ ، الذين فتح اللّه بسببهم عليهم – بالطعن عليهم والانتقال عنهم ، كما يفعله بعض المريدين ، أو جلّ طلبة

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

(٢) الآية ٤١ من سورة هود.

العلم ، بنسيان مشايخهم ونسيان العهد إليهم ، قل اللّه أسرع مكرا بهم ، فيريهم أن الأمداد باقية ، تجرى عليهم استدراجا ، ثم يحبس ذلك عنهم فتيبس أشجار معانيهم ، وتظلم قلوبهم.

ثم قال تعالى : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ إليه فى بر الشريعة ، وبحر الحقيقة ، فيقع السير بينهما ، فإذا كانت الشريعة أقوى نقص له منها وزاد فى حقيقته ، وإذا قويت حقيقته نقص له منها إلى شريعته ، هكذا حتى تعتدلا ، فتكمل تربيته ، فإذا ركبوا سفن الأفكار وساروا بأرواحهم فى تيار البحار ، فخاضوا بأفكارهم بحار التوحيد وأسرار التفريد ، وجرت أفكارهم فى عالم الملكوت بريح طيبة – وهى ريح السلوك – جاءتها ريح عاصف ، وهى الواردات الإلهية ، تأتى من حضرة القهار ، لا تصادم شيئا إلا دمغته ، فإذا خافوا على نفوسهم صدمات الجذب أو المحو دعوا اللّه مخلصين له الدين ، فلما ردهم إلى السلوك اشتغلوا برياضة نفوسهم بالمجاهدة والمكابدة ، فبغوا عليها كما بغت عليهم فى أيام غفلتهم. وباللّه التوفيق.

ثم حذّر من زهرة الدنيا ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا فى سرعة تقضيها ، وذهاب نعيمها بعد إقبالها ، واغترار الناس بها كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ أي : اشتبك بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ حتى اختلط بعضه ببعض ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ من الزرع والبقول والحشيش ، حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها أي : زينتها وبهجتها بكمال نباتها ، وَازَّيَّنَتْ أي : تزينت بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة كعروس أخذت من ألوان الثياب والحلي فتزينت بها.

وَظَنَّ أَهْلُها أي : أهل الأرض أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها متمكنون من حصدها ورفع غلتها ، أَتاها أَمْرُنا أي : بعض الجوائح ، كالريح والمطر ، لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها أي : زرعها حَصِيداً : شبيها بما

(٤٦٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٤

حصد من أصله ، كَأَنْ لَمْ تَغْنَ : كأن لم تقم بِالْأَمْسِ ، أو كأن لم يغن زرعها ، أي : لم ينبت. والمراد : تشبيه الدنيا فى سرعة انقضائها بنبات أخضرّ ثم صار هشيما ، كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ويتدبرون عواقب الأمور ، فيعلمون أن الدنيا سريعة الزوال ، وشيكة التغير والانتقال ، فيزهدون فيها ويجعلونها مزرعة لدار السلام ، التي هى دار البقاء.

وهى التي دعا إليها عباده بقوله : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ أي : السلامة من الفناء وجميع الآفات ، أو دار اللّه الذي هو السلام. وتخصيص هذا الاسم للتنبيه على ذلك ، أو دار يسلم اللّه والملائكة فيها على من يدخلها ، وهى الجنة ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ توفيقه إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، التي توصل إليها وإلى رضوانه فيها ، وهو الإسلام والتدرع بلباس التقوى ، وفى تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة ، وأن المصرّ على الضلالة لم يرد اللّه رشده. قاله البيضاوي.

الإشارة : ما ذكره الحق تعالى فى هذه الآية هو مثال لمن صرف همته إلى الدنيا ، وأتعب نفسه فى جمعها ، فبنى وشيد وزخرف وغرس ، فلما أشرف على التمتع بذلك اختطفته المنية ، فلا ما كان أمّل أدرك ، ولا إلى ما فاته من العمل الصالح رجع.

وفى بعض خطبه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : «أما رأيتم المؤاخذين على الغرة ، المزعجين بعد

الطمأنينة ، الذين أقاموا على الشبهات ، وجنحوا إلى الشهوات ، حتى أتتهم رسل ربهم ، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا ، ولا ما فاتهم رجعوا ، قدموا على ما قدّموا ، وندموا على ما خلفوا ، ولم ينفع الندم وقد جف القلم». وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلّم :

«لا تخدعنكم زخارف دنيا دنية عن مراتب جنات عالية ، فكأن قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ولا فى كل امرئ مستقره ، وعرف مثواه ومنقلبه».

وروى عن جابر رضى اللّه عنه أنه قال : شهدت مجلسا من مجالس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، إذ أتاه رجل أبيض ، حسن الشعر واللون ، فقال : السلام عليك يا رسول اللّه ، قال : وعليك السلام. قال : يا رسول اللّه ، ما الدنيا؟ فقال : حلم النائم ، وأهلها مجازون ومعاقبون. قال : يا رسول اللّه ، فما الآخرة؟. قال : الأبد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، قال : يا رسول اللّه ، فما الجنة؟ قال : ترك الدنيا بنعيمها أبدا ، ثم قال : فما خير هذه الأمة؟ قال : الذي يعجل بطاعة اللّه ، قال :

فكيف يكون الرجل فيها؟ – أي فى الدنيا – قال : متشمرا كطالب قافلة ، قال : وكم القرار بها؟ قال : كقدر المتخلف عن القافلة ، قال : فكم ما بين الدنيا والآخرة؟ قال كغمضة عين. ثم ذهب الرجل فلم ير ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «هذا جبريل ، أتاكم يزهدكم فى الدنيا».

(٤٦٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٥

وقال الورتجبي عند قوله : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ : الله تعالى يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية ، لئلا يفتنوا بزخرفها وغرورها ، وليصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته. هـ.

قال المحشى : قلت : وذلك أن أعلى اللذات التحقق بصفات الربوبية ، وهى محبوبة للقلب والروح بالطبع ، لما فيه من المناسبة لها. ولذلك قال : قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي «١» ، ثم المناسب إنما هو بقاء لا فناء فيه ، وعز لا ذل فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمال لا نقص فيه ، وأمن لا خوف فيه ، وهذا كله من أوصاف الربوبية ، وحق كل عبد أن يطلب ملكا عظيما لا آخر له ، ولا يكون ذلك فى الدنيا لانصرافها وشوبها بآلام مكدّرات ، وإنما ذلك فى الآخرة ، ولكن الشيطان بتلبيسه وحسده يدعو إلى ما لا يدوم من العاجلة ، متوسلا بما فى الطبع من العجلة ، واللّه يدعو إلى الملك الحقيقي ، وذلك بالزهد فى العاجل والراحة منه عاجلا ، ليكون ملكا فى الدنيا ، وبالقرب من اللّه والرغبة فى التحقق به وبأوصافه ليكون ملكا فى الآخرة.

وفى الطيبي : قيل لابن أدهم : مالنا ندعو فلا نجاب؟ فقال : لأنه دعاكم فلم تجيبوه ، ثم قرأ : وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ ، وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا «٢». هـ.

ثم فسر ما دعا إليه ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٢٦]

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فيما بينهم وبين ربهم بتوحيده وعبادته ، وفيما بينهم وبين عباده بكف أذاهم وحمل جفاهم ، لهم الْحُسْنى أي : المثوبة الحسنى ، وهى الجنة وزيادة ، وهى النظر إلى وجهه الكريم ، أو الحسنى : ما يثيب به على العمل ، والزيادة : ما يزيد على ما يستحق العبد تفضلا كقوله :

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «٣» ، أو الحسنى : مثل حسناتهم ، والزيادة : التضعيف بعشر أمثالها إلى سبعمائة أو أكثر ، وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ : لا يغشاها قَتَرٌ : غبرة فيها سواد تغبر الوجه وَلا ذِلَّةٌ أي : هوان ، والمعنى لا يرهقهم ما يرهق أهل النار ، أو لا يرهقهم ما يوجب ذلك من خزى وسوء حال ، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ : دائمون ، لا زوال لهم عنها ، ولا انقراض لنعيمها ، بخلاف الدنيا وزخارفها فقد تقدم مثالها.

---

(١) من الآية ٨٥ من سورة الإسراء. [.....]

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الشورى.

(٣) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٦

الإشارة : للذين أحسنوا بالانقطاع إلى اللّه والزهد فيما سواه ، الحسنى ، وهى المعرفة ، وزيادة ، وهى الترقي فى المقامات ، والعروج فى سماء المشاهدات ، والازدياد من الأسرار والمكاشفات ، وترداف المناجاة والمكالمات ، ولا يغشى وجوههم قتر ولا ذلة ، بل وجوههم بنور البقاء ضاحكة مستبشرة ، وهم خالدون فى نعيم الفكرة والنظرة.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٢٧]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٧)

قلت : (و الذين) : مبتدأ على حذف مضاف ، أي : جزاء الذين كسبوا ، و(جزاء) : خبر. أو على تقدير «لهم» ، أو معطوف على (للذين أحسنوا) على مذهب من يجوز : فى الدار زيد والحجرة عمرو. أو (جزاء) : مبتدأ ، و(بمثلها) :

خبر ، والجملة حينئذ كبرى. ومن قرأ (قطعا) بفتح الطاء فجمع قطيع ، وهو مفعول ثان ، و(مظلما) : حال من الليل ، ومن قرأ (قطعا) بالسكون فمصدر ، و(مظلما) نعت له ، أو حال منه أو من الليل.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ كالكفر والشرك ، وما يتبعهما من المعاصي ، جزاؤهم سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها لا يزاد عليها ، فلا تضاعف سيئاتهم ، عدلا منه سبحانه ، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ أي : هوان عند حشرهم للنار ، ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ يعصمهم من عذاب اللّه وغضبه ، كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أي : يحشرون مسودة وجوههم ، كأنما أكسيت وجوههم قطعا كثيرة من الليل المظلم ، أو قطعا مظلما من الليل ، أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

قال البيضاوي : هذا مما يحتج به الوعيدية – يعنى المعتزلة – فى تخليد العصاة. والجواب : أن الآية فى الكفار لاشتمال السيئات على الكفر والشرك ، ولأن الذين أحسنوا يتناول الكثير من أهل القبلة ، فلا يتناوله قسيمه. هـ.

الإشارة : جزاء المعاصي البعد والهوان ، وتسويد وجوه القلوب والأبدان ، كما أن جزاء الطاعة التقريب والإبرار ، وتنوير وجوه القلوب والأسرار والإحسان ، وفى ذلك يقول ابن النحوي فى منفرجته :

ومعاصي اللّه سماجتها تزدان لذي الخلق السّمج «١»

ولطاعته وصباحتها أنوار صباح منبلج

---

(١) سماجتها : من سمج – بالضم – أي : قبح – وتزدان ، أي : تتزين وتحسن ، والسمج : القبيح.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٧

قيل لبعض الصالحين : ما بال المجتهدين من أحسن الناس خلقا؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره. هـ نعم ، إن صحب المعصية توبة وانكسار ، وصحب الطاعة عز واستكبار ، انقلبت حقيقتهما ، فقد تقرب المعصية وتبعد الطاعة. وفى الحكم : «معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبار ، وقال أيضا :

«وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول».

ثم ذكر موطن وعد المحسنين ووعيد المسيئين ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (٢٩) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

قلت : (مكانكم) : مفعول ، أي : الزموا مكانكم ، و(أنتم) تأكيد للضمير المنتقل إليه ، و(شركاؤكم) عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يعنى فريق الحسنى ، وفريق النار ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : الزموا مَكانَكُمْ من الخزي والهوان ، حتى تنظروا ما يفعل بكم ، أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ معكم ، تمثل حينئذ معهم ، فَزَيَّلْنا : فرّقنا بَيْنَهُمْ وقطعنا الوصل التي كانت بينهم ، وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ، ينطقها اللّه تعالى تكذيبا لهم فتقول : ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ ، وإنما عبدتم فى الحقيقة أهواءكم لأنها الأمارة لكم بالإشراك. وقيل المراد بالشركاء : الملائكة والمسيح.

فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ، فإنه العالم بحقيقة الحال ، إِنْ كُنَّا أي : إنه الأمر والشأن كنا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ ، لم نأمركم بها ولم نرضها. قال ابن عطية : وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هى مع الأصنام دون الملائكة وعيسى ، بدليل القول لهم : مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ. ودون فرعون ، ومن عبد من الجن ، بدليل قوله : إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ ، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم. هـ.

هُنالِكَ تَبْلُوا : فى ذلك المقام تبلوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ أي : تختبر ما قدمت من الأعمال خيرا أو شرا فتعاين نفعه وضرره ، وقرأ الأخوان : «تتلوا» من التلاوة ، أي : تقرأه فى صحائف أعمالها ، أو من التلو ، أي :

تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار. والمعنى : تفعل بها فعل المختبر لحالها المعرّف لسعادتها وشقاوتها ،

(٤٦٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٨

فتعرف ما أسلفت من أعمالها ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ : إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ، مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أي متولّى أمورهم على الحقيقة ، لا ما اتخذوه مولى بافترائهم ، وَضَلَّ أي : ضاع وغاب عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ من أن آلهتهم تشفع لهم ، أو ما كانوا يدّعون أنها آلهة.

الإشارة : من أحب شيئا كان عبدا له ، ومن عبد شيئا حشر معه. روى : أن الدنيا تبعث على صورة

عجوز شمطاء زرقاء ، تنادى : أين أولادى وأحبابى؟ ثم تذهب إلى جهنم فيذهبون معها. فمن عبد دنياه وهواه وقف موقف الهوان ، ومن أحب مولاه ولم يحب معه شيئا سواه ، وقف موقف العز والتقريب فى مواطن الإحسان. فهناك تفضح السرائر ، وتكشف الضمائر ، وتظهر مقامات الرجال ، ويفتضح من أسر النقص وادعى الكمال فيرتفع المقربون إلى شهود مولاهم الحق ، ويبقى المدعون مع حظوظهم فى حجاب الحس والخلق. واللّه تعالى أعلم.

ثم عرفهم من يستحق العبادة ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣١ الى ٣٣]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بإنزال الأمطار ، وإنبات الحبوب ، فإن الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية ، أو من كل واحد منهما توسعة عليكم ، أو من السماء لأهل التوكل ، وَمن الْأَرْضِ لأهل الأسباب. وقل لهم أيضا : أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ أي : من يستطيع خلقهما وتسويتهما ، أو من يحفظهما من الآفات مع كثرتهما ، وسرعة انفعالهما من ادنى شيء ، أو من أمرهما بيده ، إن شاء ذهب بهما؟ وقل لهم أيضا : وَمَنْ يقدر أن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، فيخرج الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان؟ وهكذا.

وقل لهم أيضا : وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ أي : ومن يلى تدبير العالم ، من عرشه إلى فرشه؟ وهو تعميم بعد تخصيص ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ، لا محيص لهم عن الإقرار بسواه إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد فى ذلك لفرط وضوحه. فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ عقاب اللّه وغضبه؟ بسبب إشراككم معه ما لا يشاركه فى شيء من ذلك ، فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ أي : المتولى لهذه الأمور هو ربكم ، الذي يستحق أن تعبدوه ، الثابت ربوبيته ، لأنه هو

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٦٩

الذي أنشأكم وأحياكم ورزقكم ودبر أموركم ، دون من تعبدونه من الأوثان. فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ أي :

ليس بعد الحق إلا الضلال ، فمن تخطى الحق – الذي هو عبادة اللّه – وقع فى الضلال.

قال ابن عطية : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسألة – التي هى توحيد اللّه تعالى – وكذلك هو الأمر فى نظائرها ، وهى مسائل الأصول التي الحقّ فيها فى طرف واحد ، لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى ، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال تعالى فيها : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً «١». هـ.

فَأَنَّى تُصْرَفُونَ عن الحق إلى الضلال.

كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي : كما حق الحق فى الاعتقادات كَذلِكَ حَقَّتْ أي : وجبت وثبتت – كَلِمَةُ رَبِّكَ فى اللوح المحفوظ أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، وذلك فى قوم مخصوصين. قال البيضاوي : أي : كما حقت الربوبية لله ، أو أن الحق بعده الضلال ، أو أنهم مصروفون عن الحق ، كذلك حقت كلمة اللّه وحكمه عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا : تمردوا فى كفرهم ، وخرجوا عن حد الإصلاح أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، وهو بدل من الكلمة ، أو تعليل لها ، والمراد بها العدة بالعذاب.

وقرأ نافع وابن عامر :

«كلمات» بالجمع هنا ، وفى آخر السورة ، وفى غافر «٢». هـ.

الإشارة : قل من يرزقكم من سماء الأرواح علوم الأسرار والحقائق ، ومن أرض النفوس علوم الشرائع والطرائق؟ أمّن يملك السمع والأبصار فيصرفهما إلى سماع الوعظ والتذكار ، ونظر التفكر والاعتبار ليلتحق صاحبهما بالمقربين الأبرار؟ وقدّم السمع لأنه أنفع لإيصال النفع إلى القلب من البصر. أم من يخرج الحي من الميت ، فيخرج العارف من الجاهل ، والذاكر من الغافل ، أو يخرج القلب الحي من الميت بحيث يحييه بالمعرفة بعد الجهل؟ ومن يدبر الأمر لخواص عباده؟ أي : تدبيرا خاصا ، بحيث يقوم لهم بتدبير شئونهم ، حيث لم يدبروا معه.

فمن لم يدبر دبر له ، فالفاعل لهذه الأمور هو الحق المنفرد بالوجود ، فكل ما سواه باطل ، كما قال القائل :

ألا كلّ شيء ما خلا اللّه باطل وكلّ نعيم لا محالة زائل

قال صلّى اللّه عليه وسلّم «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كلّ شيء ...» إلخ «٣». فكل من صرف عن شهود الحق إلى نظر السّوى فهو فى ضلال. قال تعالى فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ، لكن من حقت عليه

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة.

(٢) فى قوله تعالى : وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ الآية/ ٦.

(٣) راجع إشارة الآية ١٥٠ من سورة البقرة.

كلمة الشقاء لا يؤمن بأهل الفناء والبقاء ، فلا يزال فى تعب وشقاء ، إذ لا طريق إلى شهود الحق وإفراده بالوجود إلا بصحبة أهل الفناء والبقاء ، الموصوفين بالكرم والجود ، واعلم أن كل من لم يصل إلى مقام الشهود ، فهو ضال عندهم فى مذهبهم ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر عجز آلهتهم ، احتجاجا عليهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٤ الى ٣٥]

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)

قلت : من قرأ (يهدّى) «١» بفتح الهاء ، فأصله : يهتدى ، نقلت حركة التاء إلى الهاء ، وأدغمت فى الدال. ومن قرأ بكسر الهاء فعلى التقاء الساكنين ، حين سكنت التاء لتدغم. ومن كسر الياء فعلى الاتباع ، ومن قرأ بالاختلاس فإشارة إلى عروض الحركة ، ومن قرأ : «يهدى» بالسكون ، فمعناه يهدى غيره.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ بإظهاره للوجود ثُمَّ يُعِيدُهُ بالبعث. فإن قلت كيف يحتج عليهم بالإعادة ، وهم لا يعترفون بها؟ فالجواب : أنها لظهور برهانها وتواتر أخبارها كأنها معلومة عندهم ، فلو أنصفوا ونظروا لأقروا بها ، ولذلك أمر الرسول بأن ينوب عليهم فى الجواب ، فقال : قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لأن لجاجهم وجحودهم لا يتركهم يعترفون بها ، ولذلك قال لهم : فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ : تصرفون عن سواء السبيل. وقُلْ لهم أيضا : هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ بنصب الدلائل ، وإرسال الرسل ، والتوفيق للنظر والتدبر؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ. قال البيضاوي : وهدى كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء ، يعدى باللام للدلالة على منتهى غاية الهداية. انظر تمامه.

أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وهو اللّه أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إلى شىء ، فأولى ألا يهدى غيره إِلَّا أَنْ يُهْدى ؟ أي : إلا أن يهديه غيره ، وهى معبوداتهم ، كالملائكة والمسيح وعزير ، فلا يستطيعون أن يهدوا أنفسهم إلا أن يهديهم اللّه. وحمل ابن عطية الآية على الأصنام ، وقال : معنى قوله : أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى هى

---

(١) فى قوله تعالى : «أمن لا يهدى». وقد قرأ حفص ويعقوب بفتح الباء وكسر الهاء وتشديد الدال ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ أبو بكر بكسر الياء والهاء ، وقرأ

حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال. وقرأ قالون وأبو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال ، واختلف فى الهاء عنهما .. انظر الإتحاف (٢/ ١٠٩).

(٤٧٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧١

عبارة عن أنها لا تنتقل إلّا أن تنقل. قال : ويحتمل أن يكون ما ذكره اللّه من تسبيح الجمادات هو اهتداؤه.

ويحتمل أن يكون الاستثناء فى اهتدائها إشارة إلى مذاكرة الكفار يوم القيامة حسبما مضى فى هذه السورة. هـ.

فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أي : أىّ شىء حصل لعقولكم ، فكيف تحكمون بشىء يقتضى العقل بطلانه بأدنى تفكر؟.

الإشارة : فى الآية تحريض على رفع الهمة عن السّوى ، إلى من بيده البدء والإعادة ، والإرشاد والهداية ، إلا من جعل على يديه الإرشاد والهداية ، وهم الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء ، فالخضوع إليهم خضوع إلى اللّه على الحقيقة ، واتباعهم اتباع لله على الحقيقة ، وكل من تبع غيرهم فإنما يتبع الظن والهوى دون الحق ، كما أبان ذلك بقوله تعالى :

[سورة يونس (١٠) : آية ٣٦]

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما يَتَّبِعُ أكثر المشركين فى اعتقادهم إِلَّا ظَنًّا مستندا إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة ، كقياس الغائب على الشاهد ، والخالق على المخلوق ، بأدنى مشاركة موهومة. والمراد بالأكثر :

الجميع ، أو من ينتسب منهم إلى تمييز ونظر ، ولم يرض بالتقليد الصرف ، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ من علم التحقيق شَيْئاً ، أو مِنَ الاعتقاد الْحَقِّ شَيْئاً من الإغناء. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن تحصيل العلم فى الأصول واجب ، وأن الاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. هـ. وعدم الاكتفاء بالظن إنما هو فى الأصول ، وأما الفروع فالظن فيها كاف. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ ، هذا وعيد لهم على اتباعهم الظن ، وإعراضهم عن النظر والاستدلال ، وعلى عدم اتباعهم من يدلهم على الحق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الناس على قسمين : أهل تصديق وإيمان ، وأهل شهود وعيان. فأهل التصديق والإيمان هم عامة أهل اليمين ، وهم أكثر المسلمين من العلماء والصالحين ، يستندون فى معرفتهم بالله إلى الدليل

والبرهان ، فتارة يقوى عندهم الدليل فيترقّون عن اتباع الظن إلى الجزم والتصميم ، وتارة يضعف فيرجعون إلى اتباع الظن الراجح.

وأما أهل الشهود والعيان ، فقد غابت عنهم الأكوان فى شهود المكوّن ، فصاروا يستدلون بالله على وجود غيره ، فلا يجدونه ، حتى قال بعضهم : لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده ، محال أن تشهده وتشهد معه سواه. وقال شاعرهم :

مذ عرفت الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمّعت ما خشيت افتراقا فأنا اليوم واصل مجموع

(٤٧١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٢

وقال آخر :

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الّذى أشهدته كلّ شاهد

وقال فى الحكم : «شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه ، المستدل به عرف الحق لأهله ، فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه ، وإلا .. فمتى غاب حتى يستدل عليه ، ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التي توصل إليه!».

ولا مطمع لأحد فى التطهير من الظنون والأوهام إلا بصحبة شيخ كامل عارف بالله ، فيلقى إليه نفسه ، فلا يزال يسير به ، حتى يقول له : ها أنت وربك ، فحينئذ ترتفع عنه الشكوك والظنون والأوهام ، ويبلغ فى مشاهدة الحق إلى عين اليقين وحق اليقين. وأما قول الجنيد رضى اللّه عنه : (أدركت سبعين صديقا ، كلهم يعبدون اللّه على الظن والوهم ، حتى الشيخ أبا يزيد ، ولو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه). فقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى اللّه عنه :

معنى كلامه : أنهم ظنوا وتوهموا أنهم بلغوا إلى مقام النهاية ، بحيث لا مقام فوق ذلك ، ولو أدرك أحدهم صبيا لنبههم على أن ما فاتهم أكثر مما أدركوا ولا نقادوا له. هـ بالمعنى. واللّه تعالى أعلم.

ولما ذكر أن اتباع الظن غير كاف ، ذكر ما يجب اتباعه وهو القرآن ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٣٧ الى ٤٠]

وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ

(٤٠)

قلت : «تصديق» : مصدر ، والعامل فيه «كان» محذوفة ، أو «أنزل» ، و«لا ريب» : خبر ثالث لها ، و«من رب العالمين» : خبر آخر ، أي : كائنا من رب العالمين ، أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ، و«لا ريب» : اعتراض ، أو بالفعل المعلل بهما – وهو «نزل» – ويجوز أن يكون حالا من «الكتاب» ، أو من الضمير فى «فيه» ، و«أم» : منقطعة بمعنى بل مع الاستفهام الإنكارى ، و«كيف» خبر كان.

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : ما صح له أن يفترى من الخلق ، إذ لا قدرة له على ذلك ، وَلكِنْ كان تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب ، أو : ولكن أنزله تصديقا

(٤٧٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٣

لما سلف قبله من الكتب الإلهية ، المشهود على صدقها لأنه مطابق لها ، فلا يكون كذبا ، كيف وهو لكونه معجزا عيار عليها ، شاهد على صحتها؟ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ أي : وأنزله تفصيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع ، التي تضمنها الكتاب ، لا رَيْبَ فِيهِ : لا ينبغى أن يرتاب فيه لما احتفّت به من شواهد الحق ، وارتياب الكفار فيه كلا ريب. كائنا مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ، أو نزل منه.

أَمْ : بل يَقُولُونَ افْتَراهُ محمد من عند نفسه؟ قُلْ فَأْتُوا أنتم بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فى البلاغة وحسن النظم ، وجودة المعنى ، فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ : من قدرتم عليه من الجن والإنس ، يعينكم على ذلك ، مِنْ دُونِ اللَّهِ فإنه وحده قادر على ذلك ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه مفترى.

بَلْ كَذَّبُوا أي : سارعوا إلى التكذيب بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وهو القرآن ، بحيث لم يستمعوه ، ولم يتدبروا آياته ويحيطوا بالعلم بشأنه ، حتى يعلموا أحق هو أم لا ، أو بما جهلوه ولم يحيطوا به علما ، من ذكر البعث والجزاء ، وسائر ما يخالف دينهم ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أي : ولم يقفوا بعد على تأويله ، ولم تبلغ أذهانهم معانيه ، أو لم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، حتى يتبين لهم أنه صدق أو كذب ، والمعنى : أن القرآن معجز من جهة اللفظ والمعنى ، ثم إنهم فاجئوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ، ويتصفحوا معناه.

ومعنى التوقع فى لَمَّا : أنه قد ظهر بالآخرة إعجازه لمّا كرر عليهم التحدّى فزادوا أذهانهم فى معارضته فتضاءلت دونها ، أو لمّا شاهدوا وقوع ما أخبر به طبق ما أخبر مرارا فلم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا. قاله البيضاوي. قال ابن جزى : لمّا يأتهم ما فيه من الوعيد لهم ، أي : وسيأتيهم يوم القيامة أو قبله.

كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أنبياءهم ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ، فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم.

وَمِنْهُمْ من المكذبين مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ أي : يصدق به فى نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند ، أو من يؤمن به ويتوب عن كفره ، وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ فى نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره ، أولا يؤمن فيما يستقبل فيموت على كفره ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ : بالمعاندين أو المصرّين.

الإشارة : إذا تطهرت القلوب من الأغيار ، وتصفّت من الأكدار ، أوحى إليها بدقائق العلوم والأسرار ، وما كان لتلك العلوم أن تفترى من دون اللّه ولكن تكون تصديقا لما قبلها من علوم القوم وأسرارها ، التي يهبها اللّه لأوليائه ، وفيها تفصيل طريق السير ، وما أوجبه اللّه على المريدين من الآداب ، وشروط المعاملة ، فمن طعن فى ذلك فليأت بشيء من ذلك من عند نفسه ، ويستعن على ذلك بأبناء جنسه ، بل كذّب بما لم يحط به علمه ، ولم يبلغه عقله

(٤٧٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٤

وفهمه ، فإن كشفت عند الله الحقائق ظهر تأويل ما ينطق به أهل الحقائق ، ومن الناس من يؤمن بهذه الأسرار ، ومنهم من لا يؤمن بها ويطعن على أهلها ، حتى ربما رموهم بالزندقة لأجلها ، وربك أعلم بالمفسدين.

ثم أمر نبيه بالبراءة ممن كذبه ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

قلت : «من» الموصولة لفظها مفرد ، ومعناها واقع على الجمع أو غيره ، فإن عاد الضمير عليها جاز فيه مراعاة المعنى ومراعاة اللفظ ، فقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ راعى جانب المعنى ، وقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ راعى جانب اللفظ ، فإن راعى أولا اللفظ جاز أن يرجع إلى مراعاة المعنى ، كقوله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا «١» وأما إن راعى أولا المعنى فلا يرجع إلى مراعاة اللفظ ، لأن مراعاة المعنى أقوى. انظر الإتقان.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كَذَّبُوكَ كذبك قومك بعد إلزام الحجة لهم فَقُلْ لهم : لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أي : فتبرأ منهم وقل لهم : لى جزاء عملى ، ولكم جزاء عملكم ، حقا كان أو باطلا ، أَنْتُمْ

بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعملكم ، ولأجل ما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم قيل : إنه منسوخ بآية السيف.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ إذا قرأت القرآن ، أو علمت الشرائع ، ولكن لا يقبلون ، كالأصم الذي لا يسمع أصلا ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ تقدر على إسماعهم وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ أي : ولو انضم إلى صممهم فقد عقولهم ، فهو أحرى فى عدم الاستماع.

قال البيضاوي : وفيه تنبيه على أن حقيقة استماع الكلام هو فهم المعنى المقصود منه ، ولذلك لا توصف به – أي : بالاستماع – البهائم ، وهو لا يتأتى إلا باستعمال العقل وتدبره. وعقولهم لما كانت مؤوفة – أي : قاصرة بمعارضة الوهم ومشايعة الإلف والتقليد بعدت أفهامهم عن فهم الحكم والمعاني الدقيقة ، فلم ينتفعوا بسرد الألفاظ عليهم غير ما ينتفع به البهائم من كلام الناعق. هـ.

---

(١) من الآية ١٦ من سورة سيدنا (محمد صلّى اللّه عليه وسلّم).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٥

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أي : يعاينون دلائل نبوتك ، ولكن لا يصدقون ، كأنهم عمى عنها ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ : تقدر على هدايتهم وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ أي : وإن انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة ، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار ، والعمدة فى ذلك البصيرة ، فإذا فقدت فلا اعتبار ولا استبصار ، ولذلك يحدس الأعمى المتبصر ، ويتفطن لما لا يدركه البصير الأحمق. والآية كالتعليل للأمر بالتبري.

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً بسلب حواسهم وعقولهم ، وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بإفسادها وإهمالها ، وتفويت منافعها عليهم. وفيه دليل على أن للعبد كسبا ، وأنه ليس مسلوب الاختيار بالكلية ، كما زعمت الجبرية ، ويجوز أن يكون وعيدا لهم ، بمعنى : أن ما يحيق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من اللّه ، لا يظلمهم به ، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابه. قاله البيضاوي.

الإشارة : إذا رأى أهل الوعظ والتذكير قوما غرقوا فى بحر الهوى ، وأخذتهم شبكة الدنيا واستحوذت عليهم الغفلة ، فذكروهم وبذلوا جهدهم فى نصحهم ، فلم يقلعوا ، فليتبرؤا منهم ، وليقولوا : نحن براء مما تعملون ، وأنتم بريئون مما نعمل. ومنهم من يستمع إلى وعظك أيها الواعظ ، ولكن لا يتعظ ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون. ومنهم من يشاهد كرامتك وخصوصيتك ولكن لا يهتدى ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون؟ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ، بل فى كل زمان يبعث من يذكر

ويداوى أمراض القلوب ، (و لكن الناس أنفسهم يظلمون) ، حيث حادوا عنهم ، وأساءوا الظن بهم ، وبالله التوفيق.

ثم ذكر وقت مجيء تأويل ما كذبوا به ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٥ الى ٤٨]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨)

قلت : كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا : حال ، أي : نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. أو صفة ليوم ، والعائد محذوف ، أي : كأن لم يلبثوا قبله ، أو لمصدر محذوف ، أي : حشرا كأن لم يلبثوا قبله. وجملة : يَتَعارَفُونَ : حال أخرى مقدرة ، أو بيان لقوله : كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ، أو لتعلق الظرف ، والتقدير : يتعارفون يوم نحشرهم. و«إما» : شرط ،

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٦

ونُرِيَنَّكَ فعله ، أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ : عطف عليه. فَإِلَيْنا جواب نَتَوَفَّيَنَّكَ ، وجواب الأول محذوف ، أي : إن أريتك بعض عذابهم فى الدنيا فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا مرجعهم.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ونجمعهم للحساب ، فتقصر عندهم مدة لبثهم فى الدنيا وفى البرزخ ، كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا ، أو فى القبور لهول ما يرون ، حال كونهم يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ أي : يعرف بعضهم بعضا ، كأن لم يتفارفوا إلا قليلا ، وهذا فى أول حشرهم ، ثم ينقطع التعارف لشدة الأمر عليهم لقوله : وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً. يُبَصَّرُونَهُمْ «١».

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ خسرانا لاربح بعده ، وَما كانُوا مُهْتَدِينَ إلى طريق الربح أصلا ، أو إلى طريق توصلهم إلى معرفة اللّه ورضوانه ، لترك استعمال ما منحوه من العقل فيما يوصل إلى الإيمان بالله ورسله ، فاستكسبوا جهالات أدت بهم إلى الرّدى والعذاب الدائم.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ أي : مهما نبصرنك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ من العذاب فى حياتك ، كما أراه يوم بدر.

أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ قبل أن نريك فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فنريكه فى الآخرة ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ ، فيجازيهم عليه حينئذ ، فالترتيب إخبارى.

وقال البيضاوي ، تبعا للزمخشرى : ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها ، وهو العقاب ، ولذلك رتبها

على الرجوع بثم ، أو مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة. هـ.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم الماضية رَسُولٌ يبعثه إليهم ، يدعوهم إلى الحق ، فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ بالمعجزات «فكذبوه» قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ : بالعدل ، فأنجى الرسول ومن تبعه ، وأهلك المكذبين وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، حيث أعذر إليهم على ألسنة الرسل. وقيل معناه : لكل أمة يوم القيامة رسول تنسب إليه. كقوله : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ «٢» فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر أو بالإيمان قُضِيَ بَيْنَهُمْ بإنجاء المؤمنين وعقاب الكافرين ، كقوله : وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ «٣». وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ الذي تعدنا ، استبعادا له واستهزاء به إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيه ، وهو خطاب منهم للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم.

---

(١) من الآيتين ١٠ – ١١ من سورة المعارج.

(٢) الآية ٧١ من سورة الإسراء.

(٣) الآية ٦٩ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٧

الإشارة : أهل الغفلة إذا بعثوا أو ماتوا ندموا على ما فوّتوا ، وقصر بين أعينهم ما عاشوا فى البطالة والغفلة ، كأن لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار. فالبدار البدار أيها الغافل إلى التوبة واليقظة ، قبل أن تسقط إلى جنبك ، فتنفرد رهينا بذنبك.

فأما أهل اليقظة – وهم العارفون بالله – فقد حصل لهم اللقاء ، قبل يوم اللقاء ، قد خسر الوصول من كذّب بأهل الوصول ، وما كان أبدا ليهتدى إلى الوصول إلا بصحبة أهل الوصول. وإما نرينك أيها العارف بعض الذي نعدهم من الوصول لمن تعلق بك ، أو نتوفينك قبل ذلك ، فإلينا مرجعهم فنوصلهم بعدك بواسطة أو بغيرها. ولكل أمة رسول يبعثه اللّه يذكر الناس ويدعوهم إلى اللّه ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ، فيوصل من تبعه ويبعد من انتكبه. واللّه تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم أجاب عن قولهم متى هذا الوعد ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٤٩ الى ٥٢]

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ

إِلاَّ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)

قلت : قدّم فى الأعراف «١» النفع ، وهنا الضر لأن السؤال فى الأعراف عن مطلق الساعة المشتملة على النفع والضر ، وهنا السؤال عن العقاب الذي وعدهم به ، بدليل قوله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ. وقوله : إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ منقطع ، ويصح الاتصال. وقوله ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ وضع المظهر موضع المضمر ، أي : ماذا تستعجلون منه؟. والجملة الاستفهامية جواب الشرط ، كما يقال : إن أتيتك ماذا تعطينى؟ ، أو محذوف ، أي : إن أتاكم ألكم منه منعة أو به طاقة فماذا تستعجلون منه؟ وقال الواحدي : الاستفهام للتهويل والتفظيع ، أي : ما أعظم ما تستعجلون منه ، كما تقول : أعلمت ما ذا تجنى على نفسك؟. أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ ، دخلت همزة التقرير على «ثم» العاطفة ، أي : إن استعجلتم ثم وقع بكم العذاب آمنتم به حين لا ينفعكم.

---

(١) فى قوله تعالى : قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا .. الآية ١٨٨.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٨

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً ، فكيف أملك لكم ما تستعجلون من طلب العذاب؟ إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ : لكن ما شاء اللّه من ذلك يكون ، أو : لا أملك إلا ما ملكنى ربى بمشيئته وقدرته ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ مضروب إلى هلاكهم ، إذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعَةً ، وَلا هم يَسْتَقْدِمُونَ عنه ، فلا تستعجلوا ، فسيحين وقتكم وينجز وعدكم ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ الذي تستعجلون بَياتاً أي : وقت بيات واشتغال بالنوم ، أَوْ نَهاراً حين تشتغلون بطلب معاشكم ، ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ؟ أىّ شىء من العذاب يستعجلونه وكله مكروره لا يلائم الاستعجال؟ وهو متعلق بأرأيتم ، لأنه فى معنى أخبرونى ، و«المجرمون» وضع موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يفزعوا من مجىء العذاب ، لا أن يستعجلوه. قاله البيضاوي.

أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ أي : أثم تؤمنون إذا وقع العذاب وعاينتموه ، حين لا ينفعكم إيمانكم ، آلْآنَ أي : فيقال لكم الآن آمنتم حين فات وقته ، وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ تكذيبا واستهزاء ، ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بعد هلاكهم : ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ أي : العذاب المؤلم الذي تخلدون فيه ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ من الكفر والمعاصي.

الإشارة : لا يشترط فى الولي أن يكاشف بالأمور المغيبة حتى يحترز من المكاره أو يجلب المنافع ، إذ لم يكن ذلك للنبى ، فكيف يكون للولى؟ بل هو معرض للمقادير الجارية على الناس ، يجرى عليه ما

يجرى عليهم ، نعم ..
باطنه محفوظ من السخط أو القنط ، يتلقى كل ما يلقى إليه بالرضا والتسليم. فمن شرط ذلك فيه فهو محروم من بركة أولياء زمانه. واللّه تعالى أعلم.
ثم استخبروا عن العذاب أو الوحى ، هل هو حق أم لا؟ كما قال تعالى :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]
وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)
قلت : (أحق) : مبتدأ ، والضمير فاعله سد مسد الخبر ، و(إي) : حرف جواب ، بمعنى نعم ، وهو من لوازم القسم ، ولذلك يوصل بواوه ، فيقال : إي واللّه ، ولا يقال «إي» وحده.

(٤٧٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٧٩
يقول الحق جل جلاله : وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أي : يستخبرونك أَحَقٌّ هُوَ أي : ما تقول من الوعد أو ادعاء النبوة. قيل : قاله حيى بن أخطب لما قدم مكة. قُلْ لهم : إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ أي : العذاب الموعود لحق ، أو ما ادعيته من النبوة لثابت ، والأول أرجح لقوله : وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ : بفائتين العذاب الموعود.
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ بالشرك أو التعدي على الغير ما فِي الْأَرْضِ من خزائنها وأموالها لَافْتَدَتْ بِهِ : لجعلته فدية لها من العذاب ، وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ أي : أخفى رؤساء هؤلاء الكفار الندامة خوف الشماتة والتعيير من سفلتهم ، لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ ، أو جميعهم ، لأنهم بهتوا بما عاينوا ، مما لم يحتسبوا من فظاعة الأمر وهوله ، فلم يقدروا أن ينطقوا ، وقيل أظهروها ، من قولهم : أسر الشيء : أظهره ، ومنه : أسارير الوجه ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، ليس تكرارا لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم ، والثاني فى جزاء المشركين على شركهم. قاله البيضاوي.
الإشارة : كثير من الناس من يستخبر عن شيخ التربية ، أحق وجوده أم لا؟ قل : إي وربى إنه لحق ، ولا يخلو منه زمان ، إذ القطب والعدد الذي يقوم الوجود بهم لا ينقطع ، والقطبانية لا تدرك من غير تربية أصلا ، وما أنتم بفائتين عنه إن طلبتموه بصدق الاضطرار. ولو أن لكل نفس ظلمت نفسها – حيث بقيت بعيبها وغم حجابها حتى لقيت مولاها – ما فى الأرض جميعا لافتدت به من البعد وغم الحجاب ، وفوات القرب من الأحباب ، وقد قضى بين الخلائق بالحق ، فارتفع المقربون الذين لقوا اللّه بقلب سليم ، وانحط الغافلون ، الذين لقوا اللّه بقلب سقيم ، وندموا على ترك صحبة من يخلصهم من عيبهم

، فإن كانت لهم رئاسة علم أو صلاح أضمروا ذلك عمن قلدهم ، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً.
ولذلك قال :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٥ الى ٥٦]
أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)
يقول الحق جل جلاله : أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ خلقا وملكا وعبيدا ، يتصرف فيهم تصرف المالك فى ملكه ، فلا يتطرقه ظلم ولا جور. ويحتمل أن يكون تقريرا لقدرته على الإثابة والعقاب ، أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أي : ما وعد به من الثواب والعقاب ، لا خلف فيه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لقصور

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٠
عقولهم ، فلا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ يحيى من يريد إظهاره للدنيا ، ويميت من يريد نقله للآخرة ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بالموت والنشور لأن من قدر على الإيجاد والإعدام فى الدنيا قدر عليها فى العقبى لأن القادر لذاته لا تزول قدرته ، والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبدا. هـ. من البيضاوي.
الإشارة : ما وعد به الحق سبحانه القاصدين إليه من الوصول والمعرفة به حق ، إن وفوا بشرطه ، وهو صحبة من يوصل إليه ، مع الصدق والتعظيم ، وإخلاص القصد ، هو يحيى قلوبا بمعرفته ، ويميت قلوبا بالغفلة والجهل به ، وإليه ترجعون ، فيظهر العارف من الجاهل والذاكر من الغافل.
فهذه موعظة لمن اتعظ ، كما قال تعالى :
[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]
يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)
قلت : (بفضل اللّه) يتعلق بمحذوف ، يفسره ما بعده ، أي : ليفرحوا بفضل اللّه ، أو بقوله «فليفرحوا». وكرر قوله : (فبذلك) تأكيدا ، والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قال : إن فرحوا بشيء فبهما فليفرحوا.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ يعنى القرآن العظيم ، وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ من الشك والجهل ، وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ هداية فى بواطنهم بأنوار التحقيق ، ورحمة فى ظواهرهم بآداب التشريع.

قال البيضاوي : قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية «١» ، الكاشفة عن محاسن الأعمال وقبائحها ، والراغبة فى المحاسن ، والزاجرة عن القبائح ، والحكمة النظرية التي هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد ، وهدى إلى الحق واليقين ، ورحمة للمؤمنين حيث أنزلت عليهم فنجوا من ظلمات الضلال بنور الإيمان ، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران بمصاعد من درجات الجنان. والتنكير فيها للتعظيم. هـ.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ أي : بمطلق الفضل والرحمة ، فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا لا بغيره ، أو الفضل : الإسلام ، والرحمة : القرآن. وقرأ يعقوب بتاء الخطاب ، وروى مرفوعا ، ويؤيده قراءة من قرأ : «فافرحوا» ، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

---

(١) فى الأصول : «العلمية» والمثبت هو الذى فى البيضاوى وهو أنسب بالسياق.

من حطام الدنيا ، فإنها إلى الزوال ، وقرأ ابن عامر : «تجمعون» بالخطاب ، على معنى : فبذلك فليفرح المؤمنون ، فهو خير مما تجمعون أيها المخاطبون.

الإشارة : قد جعل اللّه فى خواصّ أوليائه موعظة للناس بما يسمعون منهم من التذكير والإرشاد ، وشفاء لما فى الصدور ، لما يسرى منهم إلى القلوب من الإمداد ، وما يكتسبه من صحبهم من أنوار التحقيق ، وهدى إلى صريح العرفان وإشراق أنوار الإحسان ، ورحمة بسكون القلوب والطمأنينة بذكر علام الغيوب ، قل بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، ففضل اللّه : أنوار الإسلام والإيمان ، ورحمته : أنوار الإحسان ، أو فضل اللّه : أحكام الشريعة ، ورحمته : الطريقة والحقيقة ، أو فضل اللّه : حلاوة المعاملة ، ورحمته : حلاوة المشاهدة ، أو فضل اللّه :

استقامة الظواهر ، ورحمته : استقامة البواطن ، أو فضل اللّه : محبته ، ورحمته : معرفته. إلى غير ذلك مما لا ينحصر ، ولم يقل : فبذلك فلتفرح يا محمد لأن فرحه صلّى اللّه عليه وسلّم باللّه ، لا بشىء دونه.

ولمّا كانت موعظة القرآن العظيم مشتملة على التحليل والتحريم ، رد اللّه تعالى على من افترى خلافه ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٥٩ الى ٦٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ

(٥٩) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠)

قلت : (ما أنزل) : نصب بأنزل أو بأرأيتم لأنه بمعنى أخبرونى.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ بقدرته ، وإن سترها بالأسباب العادية ، وقوله : لَكُمْ دل على أن المراد منه : ما حلّ ، ولذلك وبّخ على التبعيض بقوله : فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا كالبحائر وأخواتها ، وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا «١».

قُلْ لهم : آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ فى التحريم والتحليل ، فتقولون ذلك عنه ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ فى نسبة ذلك إليه؟ ، وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ ، أىّ شىء ظنهم يفعل بهم ، أيحسبون

---

(١) من الآية ١٣٩ من سورة الأنعام. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٢

أنه لا يجازيهم عليه؟ وفيه تهديد عظيم لهم ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، حيث أنعم عليهم بالعقل ، وهداهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وشرع لهم الأحكام ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ هذه النعمة.

قال ابن عطية : ثنّى بإيجاب الفضل على الناس فى الإمهال لهم مع الافتراء والعصيان ، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة ، ثم استدرك من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ، ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم ، والآية بعد هذا تعم جميع فضل اللّه ، وجميع تقصير الخلق فى شكره ، لا رب غيره. هـ.

الإشارة : الوقوف مع حدود الشريعة ، والتمسك بالسنة النبوية قولا وفعلا ، وأخذا وتركا ، والاهتداء بأنوار الطريقة تخلية وتجلية ، هو السير إلى أسرار الحقيقة ، فمن تخطى شيئا من ذلك فقد حاد عن طريق السير.

وباللّه التوفيق.

ثم هددهم بمراقبته عليهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٦١]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٦١)

قلت : الضمير فى مِنْهُ يعود على القرآن ، وإن لم يتقدم ذكره لدلالة ما بعده عليه ، كأنه قال : وما تتلو شيئا من القرآن ، وقيل : يعود على الشأن ، والأول أرجح لأن الإضمار قبل الذكر تفخيم للشيء. قاله ابن جزى. قلت :

والأحسن أن يعود على اللّه تعالى لتقدم ذكره قبل ، ومن قرأ : وَلا أَصْغَرَ ، وَلا أَكْبَرَ بالفتح فعطف على مِثْقالِ ممنوع من الصرف ، أو مبنى مع «لا» ، ومن قرأ بالرفع فعطف على موضعه ، أو مبتدأ ، وإِلَّا فِي كِتابٍ :

خبر.

يقول الحق جل جلاله : وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ أي : أمر من الأمور ، والخطاب للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم والمراد هو وجميع الخلق ، ولذلك قال فى آخرها. وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ، ومعنى الآية : إحاطة علم اللّه تعالى بكل شيء ، وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ أي : وما تتلو شيئا من القرآن ، أو وما تتلو من اللّه من قرآن ، أي : تأخذه عنه.

وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ أي عمل كان ، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم «١» ، ولذلك ذكر الحق تعالى ، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم ، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير ، أي : لا تعملون شيئا

---

(١) أي : رأس المخاطبين ، وهو رأس الوجود ، سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – .

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٣

إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً : رقباء مطلعين عليه ظاهرا وباطنا ، إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ : حين تخوضون فيه وتندفعون إليه ، يقال : أفاض الرجل فى الأمر : إذا أخذ فيه بجد واندفع إليه ، ومنه : فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ «١» ، وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ أي : ما يغيب عنه مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ : ما يوازن نملة ، فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ والمراد : لا يغيب عنه شيء فى الوجود بأسره ، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما. قال فى الكشاف : فإن قلت : لم قدّم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ»

؟ فالجواب : أن السماء قدمت فى سبأ لأن حقها التقديم ، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادة على أهل الأرض. هـ. وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ أي : اللوح المحفوظ ، أو علمه تعالى المحيط ، المبيّن للأشياء على ما هى عليه.

الإشارة : هذه الآية وأمثالها هى أصل المراقبة عند القوم ، وهى على ثلاثة أقسام : مراقبة الظواهر ،

ومراقبة القلوب ، ومراقبة السرائر. فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص.

فأما مراقبة الظواهر : فهى اعتقاد العبد أن اللّه يراه ، ومطلع عليه فى كل مكان ، فينتج له الحياء من اللّه ، فيستحيى أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه ، وفى بعض الأخبار القدسية : «إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم؟».

وقال – عليه الصلاة والسلام – : «أفضل الناس إيمانا من يعلم أن اللّه معه فى كل مكان» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلّم :

وروى أن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنه مرّ براعي غنم ، فقال له : أعطنا شاة من غنمك ، فقال له : ليست لى. فقال له : قل لصاحبها أكلها الذئب ، فقال له الراعي : وأين اللّه؟!. وروى أن رجلا خلا بجارية فراودها على المعصية ، وقال لها :

لا ترانا إلا الكواكب ، فقالت له : وأين مكوكبها؟.

وأما مراقبة القلوب فهى : تحقيق العبد أن اللّه مطلع على قلبه ، فيستحى منه أن يجول فيما لا يعنى ، أو يدبر ما لا يفيد ولا يجدى ، أو يهم بسوء أدب فإن جال فى ذلك استغفر وتاب.

وأما مراقبة السرائر فهى : كشف الحجاب عن الروح ، حتى ترى اللّه أقرب إليها من كل شيء ، فتستحى أن تجول فيما سواه من المحسوسات ، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار ، فالتوبة لا تفارق أهل المراقبة مطلقا ، وقد تقدم فى أول سورة النساء «٣» بعض الكلام على المراقبة ، فمن لم يحكم أمر المراقبة ، لم يذق أسرار المشاهدة.

---

(١) من الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

(٢) فى قوله تعالى «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ...» الآية : ٣.

(٣) راجع إشارة الآية الأولى من سورة النساء.

فالمراقبة مفتاح المشاهدة ، والمشاهدة مفتاح المعرفة ، والمعرفة هى الولاية ، التي أشار إليها بقوله : [سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٢ الى ٦٤]

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

قلت : «الذين آمنوا» : صفة للأولياء ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع به على تقدير : «هم» ، أو مبتدأ ، و«لهم البشرى» : خبر.

يقول الحق جل جلاله : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ الذين يتولونه بالطاعة ، وهو يتولاهم بالكرامة لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه ، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ بفوات مأمول.

ثم فسرهم بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ ، فمن جمع بين الإيمان والتقوى فهو ولى – أعنى الولاية العامة – وسيأتى بقية الكلام فى الإشارة إن شاء اللّه ، هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

وهو ما بشّر به المتقين فى كتابه ، على لسان نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم من الحفظ والعز والكفاية ، والنصر فى الدنيا وما يثيبهم به فى الآخرة ، أو ما يريهم من الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له. روى ذلك عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم «١» ، أو محبة الناس للرجل الصالح ، أو ما يتحفهم به من المكاشفات ، أو التوفيق لأنواع الطاعات ، أو بشرى الملائكة عند النزع ، أو رؤية المقعد قبل خروج الروح ، فِي الْآخِرَةِ

هى الجنة أو تلقّى الملائكة إياهم عند الحشر بالبشرى والكرامة.

تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

أي : لا تغيير لأقواله ولا اختلاف لمواعيده ، واستدل ابن عمر بالآية على أن القرآن لا يقدر أحد أن يغيره ، لِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الإشارة إلى كونهم مبشّرين فى الدارين ، أو لانتفاء الخوف والحزن عنهم مع ما بشروا به ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الولاية على قسمين : ولاية عامة ، وولاية عرفية خاصة ، فالولاية العامة ، هى التي ذكرها الحق تعالى ، فكل من حقق الإيمان والتقوى فله من الولاية على قدر ما حصّل منها ، والولاية الخاصة خاصة بأهل الفناء والبقاء ، الجامعين بين الحقيقة والشريعة ، بين الجذب والسلوك ، مع الزهد التام والمحبة الكاملة ، وصحبة من

---

(١) عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن قوله : (لهم البشرى فى الحياة الدنيا) قال : «هى الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣١٥) ، والترمذي فى : (الرؤيا ، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات) وابن ماجه فى (الرؤيا ح ٣٨٩٨) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٣٤٠) والدارمي فى : (الرؤيا).

تحققت ولايته. فقد سئل – عليه الصلاة السلام – عن أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقال : «الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر النّاس إلى ظاهرها ، واهتمّوا بآجل الدّنيا حين اهتمّ النّاس بعاجلها فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموا أن سيتركهم ، فما عارضهم من نائلها عارض إلا رفضوه ، ولا خادعهم من رفعتها خادع إلا وضعوه ، خلقت الدنيا فى قلوبهم فما يجددونها وخربت بينهم فما يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فما يحيونها ، بل يهدمونها ، فيبنون بها آخرتهم ، ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم ، نظروا إلى أهلها صرعى قد حلّت بهم المثلات ، فما يرون أمانا دون ما يرجون ، ولا خوفا دون ما يجدون».

وفى حديث آخر : قيل : يا رسول اللّه من أولياء اللّه؟ قال «المتحابّون فى اللّه». وقال القشيري رضى اللّه عنه : علامة الولي ثلاث : شغله بالله ، وفراره إلى اللّه ، وهمه اللّه. هـ وقال أبو سعيد الخراز رضى اللّه عنه : إذا أراد اللّه أن يوالى عبدا من عباده فتح عليه باب ذكره ، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب ، ثم رفع إلى مجلس الأنس ، ثم أجلسه على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا عاين ذلك بقي بلا هو ، فحينئذ يفنى نفسه ويبرأ من دعاويها. هـ.

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية ، فمن لا فناء له لا محبة له ، ومن لا محبة له لا ولاية له. وإلى ذلك أشار ابن الفارض رضى اللّه عنه ، فى تائيته بقوله :

فلم تهونى ما لم تكن فىّ فانيّا ولم تفن ما لم تجتل فيك صورتى

وقوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا أي : إيمان الخصوص ، وَكانُوا يَتَّقُونَ ما سوى اللّه فلا يطمئنون إلى شىء سواه ، هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

حلاوة الذوق والوجدان ، مع مقام الشهود والعيان ، فِي الْآخِرَةِ

بإدراك ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر ببال من المعارف والأسرار ، فمن أدرك هذا فليوطن نفسه على الإنكار.

ولذلك سلّى نبيه ، وينسحب على ورثته مما يلقونه من أهل الإنكار ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٦٥]

وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)

قلت : (إن) استئناف ، ومن قرأ بالفتح فعلى إسقاط لام العلة.

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فى جانب الربوبية ، أو فى جانبك بالطعن والشتم والتهديد ، فالعاقبة لك بالنصر والعز فإن اللّه يعز أولياءه ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً أي : إن الغلبة لله جميعا ،

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٦

لا يملك غيره منها شيئا ، فهو يقهرهم وينصرك عليهم ، هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم ، الْعَلِيمُ بمكائدهم ، فيجازيهم عليها.

الإشارة : الداخل على اللّه منكور ، فكل من رام الخصوصية فليعوّل على الطعن والإنكار ، وليتسلّ بما تسلى به النبي المختار ، ولينتظر العز والنصر من الواحد القهار ، فإن الأمر كله بيده كما قال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٦ الى ٦٧]

أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

قلت : (و ما يتبع) : يحتمل الاستفهام ، فتكون منصوبة بيتبع ، أي : أىّ شيء يتبعون ما يتبعون؟ إلا الظن ، ويحتمل النفي ، أي : ما يتبع الذين يدعون الشركاء يقينا إن يتبعون إلا الظن ، أو تكون «إن» تأكيدا لها ، و«إلا الظن» إبطال لنفى «ما».

يقول الحق جل جلاله : أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ من الملائكة والثقلين ملكا وعبيدا ، فلا يصلح أحد منهم للألوهية ، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات لا تصلح للربوبية ، فأحرى الجامدات التي يدعونها آلهة ، وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ أي : أىّ شيء يتبعون ، تحقيرا لهم ، أو ما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء يقينا ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وما سولت لهم أنفسهم ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ : يكذبون فيما ينسبون إلى اللّه ، أو يحزرون «١» ويقدرون أنها شركاء تقديرا باطلا ، بل الواجب أن يعبدوا من عمت قدرته ونعمه على خلقه ، ولذلك قال : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ راحة لأبدانكم ، وَالنَّهارَ مُبْصِراً طلبا لمعاشكم ، وفيه تنبيه على كمال قدرته وعظيم نعمته ، ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ سماع تدبر واعتبار.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء دون اللّه ، محبة أو خوفا أو طمعا فيه ، فقد أشرك مع اللّه ، ولم يتبع إلا الظن والوهم ، وفى الحكم : «ما قادك شيء مثل الوهم ، أنت حر مما أنت عنه آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع ، فكيف يترك العبد سيده الذي بيده ملك السموات والأرض ، ويتعلق بعبد مثله حقير؟. يترك الملك الكبير ويتعلق بالعبد الصغير».

---

(١) حزر الشيء : قدره تخمينا.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٧

هو الذي جعل ليل القبض لتسكنوا فيه عن التعلق بالغير ، ونهار البسط لتبصروا فى انتشاركم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، إن كنتم تسمعون به ومنه ، فتنزهونه عما لا يليق به ، كما قال تعالى :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٦٨ الى ٧٠]

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

قلت : (عندكم) : متعلق بالاستقرار ، و(من سلطان) فاعل به لأن المجرور والظرف إذا نفى يرفع الفاعل بالاستقرار ، و(متاع) : خبر ، أي : ذلك متاع ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : قالُوا أي : المشركون ومن تبعهم : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً أي : تبنّاه كالملائكة وغيرهم ، سُبْحانَهُ أي : تنزيها له عما يقول الظالمون ، فإن التبني لا يصح إلا ممن يتصور منه الولد ، هُوَ الْغَنِيُّ عن كل شيء ، مفتقر إليه كلّ شيء ، والولد مسبب عن الحاجة ، والحق تعالى لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ملكا وعبيدا ، فلا يفتقر إلى اتخاذ الولد ، وهو الغنى بالإطلاق ، لا يحتاج إلى من يعينه ، واجب الوجود لا يفتقر إلى من يخلفه فى ملكه. إِنْ عِنْدَكُمْ أي : ما عندكم مِنْ سُلْطانٍ أي : برهان بِهذا ، بل افتريتموه من عندكم ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ، وهو توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم ، وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لا بد فيها من قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ. قاله البيضاوي.

قلت : والتحقيق أن إيمان المقلّد صحيح ، وأن تقليد الأنبياء والرسل والكتب السماوية صحيح مكتف عن الدليل.

ثم هدد أهل الشرك فقال : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ، لا يُفْلِحُونَ : لا ينجون من النار ، ولا يفوزون بالجنة ، إنما ذلك الافتراء مَتاعٌ فِي الدُّنْيا يقيمون به رئاستهم فى الكفر ، فيتمتعون به قليلا ، أو لهم تمتع فى الدنيا مدة أعمارهم ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ بالموت ، فيلقون الشقاء المؤبد ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ.

الإشارة : إظهار الكائنات من الغيب إلى الشهادة كلها على حد سواء فى الاختراع والافتقار ، ليس بعضها أقرب من بعض ، وأما قوله : – عليه الصلاة والسلام – : «الخلق عيال اللّه وأحبّ الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله» فمعناه أنهم فى حفظه وكفالته مفتقرون إليه فى إيصال المادة ، كافتقار الولد إلى أبيه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٨

وأما قرب العبد من ربه بطاعته فمعناه قرب محبة ورضا ، لا قرب مسافة أو نسب إذ أوصاف العبودية غير مجانسة لأوصاف الربوبية ، بل هى بعيدة منها مع شدة قربها ، ولذلك قال فى الحكم : «إلهى ما أقربك منّى وما أبعدنى عنك ..» إلخ ، ، وقد تشرق على العبد أنوار الربوبية فتكسوه حتى يغيب عن حسه ورسمه فلا يرى إلا أنوار ربه ، فربما تغلبه الأنوار ، فيدّعى الاتحاد أو الحلول ، وهو معذور عند أهل الباطن لسكره ، وقد رفع التكليف عن السكران ، فإذا صحى وبقي على دعواه قتل شرعا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر بعض قصص الأنبياء عليهم السلام ، تسلية لرسوله صلّى اللّه عليه وسلّم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

قلت : (و شركاءكم) : مفعول معه ، أو بفعل محذوف أي : اعزموا أمركم وأجمعوا شركاءكم ومن قرأ : «اجمعوا» بهمزة وصل ، فشركاءكم : معطوف ، و«غمة» : خفيّا ، وفى الحديث : «فإن غمّ عليكم فاقدروا له».

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ أي : خبره مع قومه ، قيل : اسمه عبد الغفار ، وسمى نوحا لكثرة نوحه من هيبة ربه ، إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ أي : عظم وشقّ عَلَيْكُمْ مَقامِي أي : كونى بين أظهركم ، وإقامتى بينكم مدة مديدة أذكركم بالله ، أو قيامى عليكم لوعظكم ، أو نفسى ووجودى معكم ، كقولك :

فعلت كذا لمكان فلان ، أي : له ، أي : لو صعب عليكم وجودى بينكم ، وَتَذْكِيرِي لكم بِآياتِ اللَّهِ أدعوكم بها إلى اللّه ، فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ : وثقت به ، فلا أبالى ببعدكم عنى وتخويفكم إياى ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ أي : اعزموا عليه ، وَشُرَكاءَكُمْ مع شركائكم ، أو وأمر شركائكم ، أو أجمعوا أمركم واتّفقوا عليه وأجمعوا شركاءكم. والمعنى : أنه أمرهم بالعزم والإجماع على قصده ، والسعى فى إهلاكه ، على أي وجه يمكنهم لشدة ثقته بالله وعدم مبالاته بهم.

ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ فى قصد إهلاكى عَلَيْكُمْ غُمَّةً : مستورا خفيّا ، بل اجعلوه ظاهرا مكشوفا تتمكنون فيه

، لأن من يكتم أمرا ويخفيه لا يقدر أن يفعل ما يريد ، أو ثم لا يكن حالكم عليكم غما ، أي : لا يلحقكم غم إذا

(٤٨٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٨٩

أهلكتمونى وتخلصتم من ثقل مقامى وتذكيرى. ثُمَّ اقْضُوا أي : أنفذوا قضاءكم إِلَيَّ فيما تريدون. وقرأ السرى بن ينعم : «أفضوا» بالفاء وقطع الهمزة ، أي : انتهوا إلىّ بشرّكم ، وَلا تُنْظِرُونِ : ولا تمهلون.

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ : أعرضتم عن تذكيرى ، فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ يوجب توليكم وإعراضكم لثقله عليكم.

واتهامكم إياى لأجله ، أو يفوتنى إذا توليتم عنى ، إِنْ أَجْرِيَ : ما ثوابى على الدعوة والتذكير إِلَّا عَلَى اللَّهِ لا تعلق لى بشىء دونه ، آمنتم أو توليتم ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ المنقادين لحكمه ، لا أخالف أمره ، ولا أرجو غيره.

فَكَذَّبُوهُ : فأصروا على تكذيبه بعد إلزامهم الحجة ، وتبين أن توليهم ليس إلا لعنادهم وتمرّدهم فلا جرم حقت عليهم كلمة العذاب ، فهلكوا بالغرق ، فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ آمن مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ، وكانوا ثمانين ، وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ عمروا الأرض بعد الهالكين وخلفوهم فيها ، ولم يعقب منهم إلا أولاد نوح عليه السّلام ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا بالطوفان ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ، تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن كذب الرسول ، وتسلية له. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا يكون الرجل كامل اليقين حتى يسقط من قلبه خوف المخلوقين ، فلا يبالى بهم ولو أجمعوا على كيده ، إذ ليس بيدهم شىء ، وإنما أمرهم بيد اللّه ، ويقول لهم كما قال نوح عليه السّلام : (فأجمعوا أمركم وشركاءكم.)

وكما قال هود عليه السّلام : فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ «١». وفى الحديث : «لو اجتمع الخلق كلهم على أن يضرّوك بشىء لم يضرّوك إلّا بشىء قدّره اللّه عليك ، جفّت الأقلام وطويت الصّحف». وقال أيضا صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا يكمل إيمان العبد حتّى يكون الناس عنده كالأباعد» ، يعنى : لا يهابهم ولا يراقبهم. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ما بين نوح وموسى – عليهما السلام – من الأنبياء ، على سبيل الإجمال ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٧٤]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

(١) الآيتان ٥٥ – ٥٦ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٠

قلت : (بما كذبوا به) ذكر هنا الرابط ، وحذفه فى سورة الأعراف ، إشارة إلى جواز الأمرين ، وإليه أشار فى الألفية ، بقوله :

كذا الذي جرّ بما الموصول جر ك «مرّ بالّذى مررت فهو بر» «١»

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ : من بعد نوح عليه السّلام رُسُلًا كهود وصالح وإبراهيم وغيرهم إِلى قَوْمِهِمْ ، كل رسول إلى قومه ، فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ : بالمعجزات الواضحات المثبتة لدعواهم ، فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة شكيمتهم فى الكفر ، ولسبق شقاوتهم ، فما آمنوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ مجيئهم المعجزات ، يعنى أنهم طلبوا المعجزات ليؤمنوا ، فلما جاءتهم استمروا على تكذيبهم ، كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ فلا تنفع فيهم معجزة ولا تذكير ، وفيه دليل على أن الأفعال واقعة بقدرة اللّه ، مع إثبات كسب العبد ، لقيام عالم الحكمة – الذي هو رداء لتصرف القدرة – . واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كما بعث اللّه فى كل أمة رسولا يذكرهم ويدعوهم إلى اللّه ، بعث اللّه فى كل عصر وليّا عارفا ، يدعو الخلق إلى معرفة اللّه وتوحيده الخاص ، فمن سبقت له العناية آمن به من غير طلب آية ، ومن سبق له الخذلان لا يصدق به ولو رأى ألف برهان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر بعثة موسى وهارون – عليهما السلام – مفصلة لما فيها من التأسى والتسلية ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٥ الى ٧٨]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ بَعَثْنا ، من بعد هؤلاء الرسل مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآياتِنا التسع ، فَاسْتَكْبَرُوا عن اتباعها ، وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ معتادين الإجرام ، فلذلك تهاونوا برسالة ربهم ، واجترءوا على ردها ، فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا وعرفوه ، وهو بعثة موسى عليه السّلام لتظاهر المعجزات على يديه ، القاهرة المزيحة للشك ، قالُوا من فرط تمردهم : إِنَّ هذا الذي جئت به لَسِحْرٌ مُبِينٌ : ظاهر.

قالَ لهم مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ إنه سحر ، فكيف يقدر السحرة على مثله؟ أَسِحْرٌ هذا : أيتوهم أحد أن يكون هذا سحرا؟ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ أي : لو كان سحرا لا ضمحلّ ، ولم يبطل سحر

---

(١) انظر باب الموصول (حذف العائد).

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩١

السحرة ، والعالم بأن الساحر لا يفلح لا يستعمل السحر ، فهذا كله من كلام موسى عليه السّلام ، أو من تمام قولهم إن جعل قوله : «أسحر هذا» محكيا لقولهم ، كأنهم قالوا : أجئتنا بالسحر لتطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون ، والأول أرجح.

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا لتصرفنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا من عبادة الأصنام ، وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ : الملك فيها ، سمى الملك كبرياء لاتّصاف الملوك بالتكبر ، وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ : بمصدّقين.

الإشارة : السحر على قسمين : سحر يسحر القلوب الى حضرة الرحمن ، وسحر يسحرها إلى حضرة الشيطان ، فالسحر الذي يسحر إلى حضرة الرحمن : هو ما جاءت به الأنبياء والرسل ، وقامت به الأولياء بعدهم من الأمور التي تقرب إلى الحضرة ، إمّا ما يتعلق بالظواهر ، كتبيين الشرائع ، وإمّا ما يتعلق بالبواطن ، كتبيين الطرائق والأمور التي تشرق بها أسرار الحقائق ، وأما السحر الذي يسحر إلى حضرة الشيطان : فكل ما يشغل عن ذكر الرحمن ، ولذلك قال عليه السّلام : «اتّقوا الدّنيا فإنّها أسحر من هاروت وماروت».

ثم ذكر معارضة فرعون ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

قلت : (ما جئتم به) موصولة على من قرأ : «السحر» بلا استفهام ، ومن قرأ بالاستفهام ف «ما» مبتدأ ، و(جئتم) خبرها ، و(السحر) : بدل منه ، أو خبر لمحذوف ، أي : أهو السحر؟ أو مبتدأ حذف خبره ، أي : السحر هو.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ فِرْعَوْنُ لما أراد معارضة موسى عليه السّلام : ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ وفى قراءة الأخوين : «سحّار» ، عَلِيمٍ : حاذق فى فنه ، فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ

مُلْقُونَ ، فَلَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم ، فانقلبت حيّات فى أعين الناس ، يركب بعضها بعضا ، قالَ لهم مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ أي : الذي جئتم به هو السحر ، لا ما سماه فرعون وقومه سحرا من معجزات العصا. وقرأ البصري : «آلسحر» أي : أىّ شىء جئتم به هو السحر هو؟ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ : سيمحقه ، أو سيظهر بطلانه ، إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ لا يثبته ولا يديمه ، وفيه دليل على أن السحر تمويه لا حقيقة له ، وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ السابقة الأزلية ، أو بأوامره وقضاياه ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ذلك.

الإشارة : الأكوان كلها عند أهل التحقيق شعوذة سحرية ، خيالية كخيال السحر الذي يظهره المشعوذ ، تظهر ثم تبطن ، وليس فى الوجود حقيقة إلا الواحد الأحد الفرد الصمد ، فهى ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته. وهى أيضا

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٢

أشبه شىء بالظلال ، والظلال لا وجود لها من ذاتها ، وإنما تابعة لشواخصها ، ولذلك قالوا : ظلال الأشجار لا تعوق السفن عن التّسيار ، فظلال الأكوان وأجرامها لا تعوق سفن الأفكار عن التسيار فى بحار معانى الأسرار ، بل تغيب عن ظلال حسها إلى فضاء شهود معانيها ، فالعارف لا يحجبه عن اللّه شىء لنفوذه إلى شهود أسرار الربوبية فى كل شىء ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر من تبع موسى ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٨٣]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)

قلت : الضمير فى «ملئهم» يعود على فرعون ، وجمعه على ما هو المعتاد فى ضمير العظماء ، أو باعتبار آل فرعون ، كما يقال : ربيعة ومضر ، أو على الذرية ، أو على «قومه» ، و(أن يفتنهم) بدل من فرعون ، أو مفعول بخوف ، وأفرد ضمير الفاعل ، فلم يقل : أن يفتنوهم للدلالة على أن الخوف من الملأ كان بسبب فرعون.

يقول الحق جل جلاله : فَما آمَنَ لِمُوسى أي : صدّقه فى أول مبعثه إِلَّا ذُرِّيَّةٌ : إلا شباب وفتيان مِنْ قَوْمِهِ : من بنى إسرائيل ، آمنوا عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أي : مع خوف من فرعون وقومه ، أو على خوف من فرعون وملأ بنى إسرائيل لأن الأكابر من بنى إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من الإيمان خوفا من فرعون ، وهذا أرجح. خافوا أَنْ يَفْتِنَهُمْ : يعذبهم حتى يردهم عن دينهم ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي

الْأَرْضِ : لغالب فيها ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ فى الكفر والعتوّ حتى ادعى الربوبية ، واسترقّ أسباط الأنبياء.

الإشارة : أهل التصديق بأهل الخصوصية قليل فى كل زمان ، وإيذاء المنتسبين لهم سنة جارية فى كل أوان ، فكل زمان له فراعين يؤذون المنتسبين ، والعاقبة للمتقين.

ثم أمرهم بالتوكل والثبات ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٤ الى ٨٦]

وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (٨٦)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٣

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ مُوسى لقومه ، لمّا رأى خوفهم من فرعون : يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا أي : ثقوا به واعتمدوا عليه ، ولا تبالوا بغيره ، إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ مستسلمين لقضاء اللّه ، أو منقادين لأحكامه ، قائمين بطاعته بعد تحصيل الإيمان به ، وقال لهم ذلك مع علمه بإيمانهم وإسلامهم إنهاضا لهم وتحريضا على الصبر ، كما تقول : إن كنت رجلا فافعل كذا.

فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا لأنّا مؤمنون مخلصون ، رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً أي : موضع فتنة لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ أي : من كيدهم ، أو من شؤم مشاهدتهم.

وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته لأنه يتسبب فى نجاح أمره ، ثم يدعو. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التوكل هو ثمرة الإيمان ونتيجته ، فكلما قوى الإيمان واشتدت أركانه قوى التوكل وظهرت أسراره ، وكلما ضعف الإيمان ضعف التوكل ، فالتّوغل فى الأسباب نتيجة ضعف الإيمان ، والتقلل منها نتيجة صحة التوكل والإيقان ، والتوكل : أن تكون بما فى يد اللّه أوثق مما فى يدك. قال تعالى : ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ «١» والتوكل قد يوجد مع الأسباب ، ومع التجريد أنفع ، وقد تقدم الكلام عليه فى آل عمران «٢». وباللّه التوفيق.

ثم أمر بنى إسرائيل باتخاذ المساجد ، وجعلها فى البيوت خوفا من فرعون ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٨٧]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا أي : اتخذا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً للصلاة والعبادة ، وقيل : أراد الإسكندرية ، وهى من مصر ، وَاجْعَلُوا أنتما وقومكما بُيُوتَكُمْ التي تسكنون فيها قِبْلَةً : مصلّى ومساجد. روى أن فرعون أخافهم ، وهدم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ، فأمروا بإخفائها وجعلها فى بيوتهم ، وتكون متوجهة نحو القبلة – يعنى مكة – وكان موسى يصلى إليها.

فإن قلت : لم خصّ موسى وهارون بالخطاب فى قوله : أَنْ تَبَوَّءا ، ثم خوطب بها بنو إسرائيل فى قوله :

وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ؟ ، فالجواب : أن التبوأ واتخاذ المساجد مما يتعاطاه رؤوس القوم للتشاور ، بخلاف جعل البيوت قبلة فمما ينبغى أن يفعله كل أحد.

---

(١) الآية ٩٦ من سورة النحل.

(٢) عند إشارة قوله تعالى : فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الآية ١٥٩.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٤

وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ فى تلك البيوت ، أمروا بذلك أول مرة لئلا تظهر عليهم الكفرة ويفتنونهم عن دينهم ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بالنصر والعز فى الدنيا ، وبالجنة فى العقبى.

الإشارة : اتخاذ الأماكن للعبادة والعزلة مطلوب عند القوم ، وفى الحكم : «ما نفع القلب شىء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة» ، وأصلهم فى ذلك : اعتزاله صلّى اللّه عليه وسلّم فى غار حراء فى مبدأ الوحى ، فالخلوة للمريد لا بد منها فى ابتداء أمره ، فإذا قوى نوره ودخل مقام الفناء صلح له حينئذ الخلطة مع الناس ، بحيث يكون جسده مع الخلق وقلبه مع الحق ، فإن لله رجالا أشباحهم مع الخلق تسعى ، وأرواحهم فى الملكوت ترعى. وقال بعضهم : [الجسد فى الحانوت والقلب فى الملكوت] ، فإذا رجع إلى البقاء لم يختر حالا على حال لأنه مع اللّه على كل حال ، وهذا من أقوياء الرجال. نفعنا اللّه بهم.

ثم ذكر دعاء موسى على فرعون ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٨٨ الى ٨٩]

وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩)

قلت : اللام فى (ليضلوا) لام كى ، متعلقة بآتيت محذوفة ، أو بالمذكورة ، ولفظ (ربنا) تكرار ، أو تكون لام الأمر ، فيكون دعاء عليهم بلفظ الأمر ، بما علم من قرائن أحوالهم أنه لا يكون غيره. فَلا يُؤْمِنُوا : جواب الدعاء ، أو عطف على (ليضلوا).

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً : ما يتزين به من الملابس والمراكب ونحوها ، وَأَمْوالًا : أنواعا من المال فِي الْحَياةِ الدُّنْيا استدراجا ، رَبَّنا آتيتهم ذلك لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ طغيانا وبطرا بها ، وصرفها فى غير محلها ، أو ربنا اجعلهم ضالين عن سبيلك ، كقول نوح عليه السّلام : وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالًا «١» لما أيس من إيمانهم ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ أي : أهلكها وامحقها ، وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ بالقسوة ، واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان ، فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ أي : إن تطمس على أموالهم وتشدد على قلوبهم لا يؤمنوا إلا قهرا.

---

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٥

وفى الآية دليل على جواز الدعاء على الظالم بالمعصية ، أو الكفر ، وقد فعله سعد بن أبى وقاص على الذي شهد فيه بالباطل ، ووجه جوازه مع استلزامه وقوع المعاصي : أنه لم يعتبر من حيث تأديته إلى المعاصي ، ولكن من حيث تأديته إلى نكاية الظالم وعقوبته ، وهذا كما قيل فى تمنى الشهادة أنه مشروع ، وإن كان يؤدى إلى قتل الكافر للمسلم ، وهو معصية ووهن فى الدين ، ولكن الغرض من تمنى الشهادة ثوابها ، لا نفسها.

قالَ تعالى : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما يعنى موسى وهارون ، وكان يؤمّن على دعاء أخيه ، فَاسْتَقِيما أي : اثبتا على ما أنتما عليه من الاستقامة والدعوة وإلزام الحجة ، ولا تستعجلا ، فإن ما طلبتما كائن ولكن فى وقته ، روى أنه مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ، وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ : طريق الجهلة فى استعجال الأشياء قبل وقتها ، أو فى عدم الوثوق والاطمئنان بوعدنا ، وقرأ ابن ذكوان : «ولا تتبعان» بالنون الخفيفة وكسرها لالتقاء الساكنين ، وهو قليل ، قال ابن مالك :

ولم تقع خفيفة بعد الألف «١».

ويحتمل أن تكون نون الرفع ، و«لا» نافية ، أي : والأمر لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون.

الإشارة : دعاء الأولياء على الظالم مشروع بعد الإذن الإلهامى على ما يفهمونه ، وقد مكث الشيخ أبو الحسن سنين لم يدع على ابن البراء «٢» حتى كان سنة فى عرفة ، فقال : الآن أذن لى فى الدعاء

على ابن البراء .... إلخ.

فإن لم يكن إذن فالصبر أولى ، بل الأولى الدعاء له بالهداية ، حتى يأخذ اللّه بيده وهذا مقام الصديقين ، فإذا وقع الدعاء مطلقا وتأخرت الإجابة فلا يستعجل ، فيكون تبع سبيل الذين لا يعلمون ، وفى الحكم : «لا يكن تأخّر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبا ليأسك ، فقد ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختار أنت لنفسك ، وفى الوقت الذي يريد ، لا فى الوقت الذي تريد» ، وقال أيضا : «لا يشككنّك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحا فى بصيرتك ، وإخمادا لنور سريرتك». وباللّه التوفيق.

ثم أجاب دعاءهما ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٠ الى ٩٢]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (٩٢)

---

(١) عجز البيت : لكن شديدة وكسرها ألف.

(٢) هو أبو القاسم ابن البراء ، قاضى تونس عند دخول الشيخ الشاذلى إليها. وقد رأى ابن البراء إقبال الناس على الشاذلى ، فسعى فى الكيد له واتهامه عند السلطان بالعمل على قلب نظام الحكم. ولكن اللّه نجاه من كل هذه المكائد.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٦

قلت : (فأتبعهم) أي : تبعهم ، يقال : تبع وأتبع ، لغتان.

يقول الحق جل جلاله : وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ أي : جوزناهم فى البحر يبسا حتى بلغوا الشط الآخر حافظين لهم. روى أن بنى إسرائيل حين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف ، وكان يعقوب عليه السّلام قد دخل مصر فى نيف وسبعين من ذريته ، فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور.

فَأَتْبَعَهُمْ : فأدركهم فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ ، روى أنهم كانوا ثمانمائة ألف أدهم ، سوى ما يناسبها من أواسط الخيل. تبعهم بَغْياً وَعَدْواً : باغين وعادين عليهم. مستمرا على بغيه حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ أي : بأنه لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فآمن حين لا ينفع الإيمان بمعاينة

الموت ، ومن قال بصحة إيمانه فغلط كالحاتمى «١» فإنه قال فى الفصوص : إنه من الناجين ، وذلك من جملة هفواته.

قال تعالى لفرعون : آلْآنَ أي : أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ، وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ مدة عمرك وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ : الضالين المضلين ، فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ أي : ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ونجعلك طافيا على وجه الماء ، أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك الناس ، فيتحققوا بغرق من معك ، حال كونك بِبَدَنِكَ عاريا عن الروح ، أو عريانا بلا لباس ، أو بدرعك ، وكانت له دروع من ذهب يعرف بها ، وكان مظاهرا بينها.

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً : لمن وراءك علامة يعرفون أنك من الهالكين ، والمراد : بنو إسرائيل إذ كان فى نفوسهم من عظمته ما خيّل إليهم أنه لا يهلك ، حتى كذبوا موسى عليه السّلام حين أخبرهم بغرقه ، إلى أن عاينوه منطرحا على ممرهم من الساحل ، أو لمن يأتى بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ، فيكون ذلك عبرة ونكالا للطغيان ، أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظيم الشأن وكبرياء الملك مملوك مقهور ، بعيد عن مظانّ الربوبية ، أو آية تدل على كمال قدرته وإحاطة علمه وحكمته ، فإن إفراده بالإلقاء إلى الساحل دون غيره يفيد أنه مقصود لازاحة الشك فى أمره.

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، والإخبار بهذا الأخذ الذي وقع فى قعر البحر من أعلام النبوة إذ لا يمكن أن يخبر بها إلّا علّام الغيوب الذي لا يخفى عليه شىء ، ولا يخلو منه مكان. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أي : الشيخ محيى الدين بن عربى. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٧

الإشارة : كل من دخل بحر التوحيد علما – وهو فرعون برؤية نفسه – ، ولم يصحب من يغيبه عنها غرق فى بحر الزندقة والدعوى ، فإن رجع إلى الإيمان بعد معاينة الهلاك بسيف الشريعة قيل له : الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟ فإن تاب حقيقة رجى له النجاة ، وإن قتل كان آية ونكالا لمن خلفه.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكّر بنى إسرائيل بما أنعم عليهم ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٩٣]

وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

قلت : (مبوّأ) : ظرف بمعنى منزل يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ بَوَّأْنا أي : أنزلنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ أي : منزل صدق ، أي :

منزلا صالحا مرضيا يصدق فيه ظن قاصده وساكنه ، فما ظن فيه من الكمالات وجدها صدقا وحقا ، والمراد به : الشام وقراها ، وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ من اللذائذ ، وكانوا متفقين على دينهم ، وعلى ظهور دين الإسلام ، فَمَا اخْتَلَفُوا فى أمر دينهم حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ بأن قرؤوا التوراة وعلموا أحكامها ، ثم طغوا وعصوا ، أو فى أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلّم إلا من بعد ما علموا صدقه بنعوته وتظاهر معجزاته ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، فيميز المحقّ من المبطل بالإنجاء والإهلاك.

الإشارة : قد يمد اللّه عباده بأنواع النعم ، ثم يبعث لهم من يذكرهم بأيام اللّه ، ويعرفهم به ، فإذا اختلفوا عليه ظهر الشاكر من غيره ، فيغير عليهم تلك النعم ، فيوصل إليه أهل التصديق والاستماع والاتباع ، ويبعد أهل الإنكار والابتداع. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالسؤال لأهل العلم لمن وقعت له شبهة ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٤ الى ٩٥]

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (٩٥)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٨

يقول الحق جل جلاله : فَإِنْ كُنْتَ يا محمد فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ الخطاب للرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمراد به : من وقع له شك ، فإن الملك إذا أراد أن يعرض بأحد خاطب كبير القوم وهو يريد غيره ، فهو كقول العامة : الكلام مع السارية وافهمى يا جارية. وأما النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فهو بعيد من الشك لأنه عين اليقين ، وهو الذي علّم الناس اليقين ، ولذلك قال – عليه الصلاة السلام – لما نزلت : «لا أشكّ ولا أسأل» «١» والمراد بالذين يقرءون الكتاب : من أسلم منهم ، كعبد اللّه بن سلام وغيره ، أو فإن كنت أيها المستمع فى شك مما أنزلنا إليك على لسان فاسأل ... إلخ ، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها ، بالرجوع إلى أهل اليقين إن كانت فى التوحيد ، أو إلى أهل العلم إن كانت فى الفروع.

قال ابن عطية : الخواطر التي لا ينجو منها أحد ، هى خلاف الشك الذي يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. هـ.

أي : فإنها معفوّ عنها.

ثم قال تعالى : لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ واضحا لا مدخل للمرية فيه بالآيات القاطعة فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ : الشاكّين بالتزلزل على ما أنت عليه من الجزم واليقين ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ ، وهذا كله يجرى على ما تقدم من أنه لكل سامع. وقال البيضاوي : هو من باب التهييج والتثبيت ، وقطع الأطماع عنه ، كقوله : فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ «٢» هـ.

الإشارة : لا تنقطع عن العبد الأوهام والشكوك والخواطر ، حتى يدخل مقام الإحسان ويكاشف بمقام الشهود والعيان ، بالغيبة عن حس الأكوان ، بسطوع أنوار المعاني عند غيبة الأوانى ، ومن غاب عن حس نفسه غاب عنه حس جميع الأكوان وذلك بصحبة أهل العرفان ، الذين سلكوا الطريق حتى أفضوا إلى عين التحقيق ، فزاحت عنهم الشكوك والأوهام ، وانحلت عنهم الشّبه ، وزالت عن قلوبهم الأسقام ، واطلعوا على تأويل المتشابه من القرآن ، فبصحبة هؤلاء ترتفع الخواطر والشكوك ، ويرتفع العبد إلى حضرة ملك الملوك ، فجلوس ساعة مع هؤلاء تعدل عبادة سنين. وفى بعض الآثار : (تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين) قلت : وقد من اللّه علينا بمعرفتهم وصحبتهم ، بعد أن تحققنا بخصوصيتهم ، فلله الحمد وله الشكر.

ثم أخبر عمن سبق له الشقاء ، فلا ينفع فيه سؤال ولا صحبة ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٦ الى ٩٧]

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

---

(١) أخرجه ابن جرير فى تفسيره (١١/ ١٦٨) ، عن قتادة وسعيد بن جبير ، وزاد المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٧١٦) عزوه لعبد الرزاق فى تفسيره.

(٢) من الآية ٨٦ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٤٩٩

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ أي : ثبتت عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ بأنهم لا يؤمنون ، أو بأنهم مخلدون فى العذاب لا يُؤْمِنُونَ أبدا إذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاؤه ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ وعاينوها فإن السبب الأصلى لإيمانهم هو تعلق إرادته تعالى ، وقد أراد خلافه ، فلا يؤمنوا حَتَّى يَرَوُا

الْعَذابَ الْأَلِيمَ وحينئذ لا ينفعهم ، كما لم ينفع فرعون ، وبالله التوفيق.

الإشارة : من انتكبه التوفيق لا يصدق بأهل التحقيق ، ولو رأى منهم ألف كرامة ، فلا تنفك عنه الشكوك والأوهام حتى يفضى إلى شرب كأس الحمام ، فيلقى اللّه بقلب سقيم ، وربما مات على الشك ، فيلحقه العذاب الأليم ، عائذا بالله من ذلك.

ثم وبخ من فوت إيمانه عن وقته ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : آية ٩٨]

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (٩٨)

قلت : (فلو لا) تحضيضية ، و(إلا قوم يونس) : استثناء منقطع ، ويجوز الاتصال فيكون الاستثناء من معنى النفي الذي تضمنه حرف التحضيض لأن المراد بالقرى : أهلها ، كأنه قال : ما آمن أهل قرية من القرى الماضية فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ، ويؤيده قراءة الرفع. و«يونس» : عجمى مثلث النون.

يقول الحق جل جلاله : فَلَوْ لا كانَتْ هلا وجدت قَرْيَةٌ من القرى التي أهلكناها آمَنَتْ قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخر الإيمان إلى نزوله كما فعل فرعون ، فَنَفَعَها حينئذ إِيمانُها بأن يقبله اللّه منها فيكشف عنها العذاب ، إِلَّا لكن قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ، فرفعنا عنهم العذاب حين آمنوا بعد أن ظهرت مخايله ، فنجوا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ : إلى تمام آجالهم.

روى أن يونس عليه السّلام بعث إلى أهل نينوى من الموصل ، فكذبوه وأصروا على تكذيبه ، فوعدهم بالعذاب إلى ثلاث ، فلما دنا الموعد وأغامت السماء غيما أسود ذا دخان شديد فهبط حتى غشى مدينتهم ، فهابوا ، فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها ، فحن بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والضجيج ، وأخلصوا التوبة والإيمان ، وتضرعوا إلى اللّه تعالى ، فرحمهم وكشف العذاب عنهم ، وكان يوم عاشوراء ويوم الجمعة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يعتنى بتربية إيمانه وتقوية إيقانه قبل فوات إبّانه ، وهو انصرام أجله. وتربيته تكون بصحبة أهل اليقين ، فإن لم يعثر بهم فبمطالعة كتبهم ، والوقوف على أخبارهم ومناقبهم ، مع دوام التفكر والاعتبار ،

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٠

والإكثار من الطاعة والخضوع والافتقار ، والتمسك بالذل والانكسار. قال تعالى فى بعض الأخبار :

«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى» وبالله التوفيق.

كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ٩٩ الى ١٠٠]

وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ هداية الخلق كلهم لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً بحيث لا يتخلف عنه أحد ، لكن حكمته اقتضت وجود الخلاف ، فمن رام اتفاقهم على الإيمان فقد رام المحال ، ولذلك قال : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ بالقهر على ما لم يشأ اللّه منهم حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ كلهم.

قال البيضاوي : وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء ، وإيلاؤها حرف الاستفهام الإنكارى ، وتقديم الضمير على الفعل ، للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل ، فلا يمكنه تحصيله بالإكراه فضلا عن الحث والتحريض عليه ، إذ روى أنه – عليه الصلاة السلام – كان حريصا على إيمان قومه ، شديد الاهتمام به ، فنزلت ، ولذلك قرره بقوله : وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ بمشيئته وألطافه وتوفيقه فلا تجهد نفسك فى هداها ، فإنه إلى اللّه تعالى. وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ : العذاب أو الخذلان فإنه سببه عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ : لا يستعملون عقولهم بالنظر فى الحجج والآيات ، أو لا يعقلون دلائل القرآن وأحكامه لما على قلوبهم من الطبع. ويؤيد الأول قوله قُلِ انْظُرُوا ... إلخ. هـ.

الإشارة : فى الآية تسلية لأهل التذكير حين يرون الناس لم ينفع فيهم تذكيرهم ، وفيها تأديب لمن حرص على هداية الناس كلهم ، أو يتمنى أن يكونوا كلهم خصوصا ، فإن هذا خلاف حكمته تعالى.

قال تعالى : وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ «١» فالداعون إلى اللّه لا يكونون حرصا على الناس أبدا ، بل يدعون إلى اللّه ، ويذكّرون بالله ، وينظرون ما يفعل اللّه اقتداء بنبي اللّه ، بعد أن علمه اللّه كيف يكون مع عباد اللّه. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر باستعمال العقل فى التفكر والاعتبار ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

---

(١) من الآية ١١٨ من سورة هود.

قلت : (ماذا) إن كانت استفهامية علقت (انظروا) عن العمل ، وإن كانت موصولة فمفعول به ، و(ما تغنى الآيات) : يحتمل الاستفهام فى محل نصب بتغنى ، أو النفي. «ثم ننجى» معطوف على محذوف دل عليه : (إلا مثل أيام) أي : فكانت عادتنا معهم أن نهلك المكذبين ، ثم ننجى رسلنا ومن آمن معهم. و«كذلك» مصدر معمول لننجى ، و(حقا) اعتراض بينهما ، وهو مصدر لفعل محذوف ، أي : مثل ذلك الإنجاء ننجى المؤمنين يحق ذلك حقا ، وعلى هذا يوقف على : (الذين آمنوا) ، ثم يبتدأ بقوله : (كذلك حقّا ..) إلخ. وقيل : خبر عن (الذين آمنوا) أي : والذين آمنوا مثلهم فى الإنجاء ، وهو ضعيف.

يقول الحق جل جلاله : قُلِ للمشركين الذين طلبوا منك الآية : انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الآيات والعبر ، وعجائب الصنع ليدلكم على وحدانية اللّه تعالى ، وكمال قدرته ، ثم بيّن أن الآيات لا تفيد من سبق عليه الشقاء ، فقال : وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ فى علم اللّه وحكمه ، ثم هددهم بالهلاك فقال : فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ أي : مثل وقائعهم ونزول العذاب بهم إذ لا يستحقون غيره ، فهو من قولهم : أيام العرب ، لوقائعها.

قُلْ لهم : فَانْتَظِرُوا هلاككم إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ لذلك ، أو فانتظروا هلاكى إنى معكم من المنتظرين هلاككم ، ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا أي : عادتنا أن ننجى رسلنا وَالَّذِينَ آمَنُوا معهم من ذلك الهلاك ، كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ من أصحاب محمد صلّى اللّه عليه وسلّم حين نهلك المجرمين حقّا واجبا علينا كما هى عادتنا مع من تحبب إلينا بالإيمان والطاعة.

الإشارة : أمر الحق – جل جلاله – أهل النظر والاستبصار بأن ينظروا ماذا فى السموات والأرض من الأسرار والأنوار ، أمرهم أن يشاهدوا أسرار الذات وأنوار الصفات ، دون الوقوف مع الأجرام الحسّيات ، أمرهم أن ينظروا المعاني خلف رقة الأوانى ، لا أن يقفوا مع الأوانى ، وإليه أشار ابن الفارض فى خمريته ، حيث قال :

ولطف الأوانى – فى الحقيقة – تابع للطف المعاني ، والمعاني بها تسمو

فالأكوان كلها أوانى حاملة للطف المعاني ، وأصل الأوانى معانى ، تحسست وتكثفت فمن لطّف الأوانى وذوّبها بفكرته رجعت معانى ، واتصلت المعاني بالمعاني ، وغابت حينئذ الأوانى ، ولا يعرف هذا إلا من صحب أهل المعاني ، وهم أهل الفناء والبقاء ، ومن لم يصحبهم فحسبه الوقوف مع الأجرام الحسية ، ويستعمل فكرة التصديق والإيمان ، وهى عبادة التفكر والاعتبار والأولى فكرة أهل الشهود والاستبصار ، وفى أمثالهم قال الشاعر :

هم الرّجال وغبن أن يقال لمن لم يتّصف بمعاني وصفهم رجل

وقد ذكر فى الحكم هذه الإشارة فقال : «أباح لك أن تنظر ما فى المكوّنات ، وما أباح لك أن تقف

مع ذوات المكونات ، (قل انظروا ماذا فى السموات) فتح لك باب الأفهام ، ولم يقل : انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الأجرام».

(٥٠١/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٢

ومن سبق له فى العلم القديم الخذلان لا يخرج عن دائرة الأكوان ، فلا يؤمن بوجود أهل الشهود والعيان ، فما ينتظر مثل هذا إلا ما نزل بأمثاله ، من هجوم الحمام قبل خروجه من سجن الأجرام ، فإنه لا ينجو من سجن الأكوان إلا من صحب أهل العرفان ، الذين أفضوا إلى فضاء الشهود والعيان ، وقليل ما هم.

ثم أمر نبيه بالتبرء من الشرك وأهله ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٧]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

قلت : (و أن أقم) : عطف على (أن أكون) وإن كان بصيغة الأمر لأنّ الغرض وصل «أن» بما يتضمن معنى المصدر ليدل معه عليه ، وصيغ الأفعال كلها كذلك ، سواء الخبر منها والطلب ، والمعنى : وأمرت بالإيمان والاستقامة.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لأهل مكة أو لجميع الناس : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي بأن شككتم فى صحته حتى عبدتم غير اللّه ، فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فهذا خلاصة دينى اعتقادا وعملا ، فاعرضوها على العقل السليم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا صحتها ، وهو أنى لا أعبد ما تخلقونه وتعبدونه ، ولكن أعبد خالقكم ، الذي هو يوجدكم ويتوفاكم.

وإنما خص التوفى بالذكر لأنه أليق بالتهديد ، انظر البيضاوي. وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بالله وحده ، الذي دل عليه العقل ونطق به الوحى.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً مائلا عن الأديان الفاسدة ، أي : أمرت بالاستقامة بذاتى كلها فى الدين والتوغل فيه ، بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح ، أو : أن أقيم وجهى فى الصلاة باستقبال القبلة.

وقيل لى : وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بالله فى شىء ، وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ بنفسه ولا بدعوته ، فَإِنْ فَعَلْتَ ودعوته فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ ، وهو تنفير وتحذير للغير من الميل اليه.

ثم بيّن من يستحق العبادة والدعاء ، وهو اللّه تعالى فقال : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ أي : يصيبك بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ : لا رافع له إِلَّا هُوَ أي : اللّه ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ : لا دافع لِفَضْلِهِ الذي أرادك به.

(٥٠٢/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٣

قال البيضاوي : ولعله ذكر الإرادة مع الخير ، والمس مع الضر ، مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات ، وأن الضر إنما مسهم لا بالقصد الأول ، ووضع الفضل موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريد بهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه ، ولم يستثن لأن مراد اللّه لا يمكن رده. هـ.

يُصِيبُ بِهِ بذلك الخير مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، فتعرّضوا لخيره بالتضرع والسؤال ، ولا يمنعكم من ذلك ما اقترفتم من العصيان والزلل ، فإنه غفور رحيم.

الإشارة : ينبغى لمن تمسك بطريق الخصوص ، وانقطع بكليته إلى مولاه ، أن يقول لمن خالفه فى ذلك : إن كنتم فى شك من دينى – من طريقى – فلا أعبد ما تعبدون من دون اللّه ، من متابعة الهوى والحرص على الدنيا ، ولكن أعبد اللّه الذي يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وأن أقيم وجهى للدين حنيفا مائلا عن دينكم ودنياكم ، كما قال القائل :

تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

وقال آخر :

تركت للنّاس ما تهوى نفوسهم من حبّ دنيا ومن عزّ ومن جاه

كذاك ترك المقامات هنا وهنا والقصد غيبتنا عمّا سوى اللّه.

وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ، وهو ما سوى اللّه ، فليس بيد أحد ضر ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، قال فى الحكم : «لا ترفعنّ إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع إلى غيره ما كان هو له واضعا؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟!».

قال بعضهم : من اعتمد على غير اللّه فهو فى غرور لأن الغرور ما لا يدوم ، ولا يدوم شىء سواه ، وهو الدائم القديم ، لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان ، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء ، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ.

وقال وهب بن منبّه : أوحى اللّه إلى داود عليه السّلام : يا داود أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بي عبد من عبادى دون خلقى ، أعلم ذلك من نيته فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا ، أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق ، دونى ، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخطت الأرض من تحته ولا أبالى فى أي واد هلك. هـ.

وقال بعضهم : قرأت فى بعض الكتب : أن اللّه عز وجل يقول : [وعزتى وجلالى ، وجودى وكرمى ، وارتفاعي فوق عرشى فى علو مكانى ، لأقطعن آمال كل مؤمّل لغيرى بالإياس ، ولأكسونه ثوب المذلة بين

(٥٠٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٤

الناس ، ولأنحيّنه من قربى ، ولأقطعنه من وصلي ، أيؤمّل غيرى فى النوائب ، والشدائد بيدي ، وأنا الحي ، ويرجى غيرى ويقرع بالفكر باب غيرى ، وبيدي مفاتح الأبواب ، وهى مغلقة وبابى مفتوح لمن دعانى ، ومن ذا الذي أملنى لنائبة فقطعت به دونها؟ ومن ذا الذي رجانى بعظيم جرمه فقطعت رجاءه منى؟ ومن ذا الذي قرع بابى فلم أفتح له؟ جعلت آمال خلقى بينى وبينهم متصلة ، فقطعت بغيري ، وجعلت رجاءهم مدخورا لهم عندى فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سمواتى بمن لا يملون تسبيحى من ملائكتى ، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها أحد غيرى؟ فما لى أراه بآماله معرضا عنى؟ ومالى أراه لاهيا إلى سواى ، أعطيته بجودي ما لم يسألنى ، ثم انتزعته منه فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، أفتراني أبدا بالعطية قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلى؟ أبخيل أنا فيبخلنى خلقى؟ أليس الدنيا والآخرة لى؟ أوليس الفضل والرحمة بيدي؟ أوليس الجود والكرم لى؟ أوليس أنا محل الآمال؟ فمن ذا الذي يقطعها دونى؟ وما عسى أن يؤمّل المؤملون لو قلت لأهل سمواتى وأهل أرضى : أمّلونى ، ثم أعطيت كل واحد منهم من الفكر مثل ما أعطيت الجميع ، ما انتقص ذلك من ملكى عضو ذرّة ، وكيف ينقص ملك كامل أنا فيه؟. فيا بؤس القانطين من رحمتى ، ويا بؤس من عصانى ولم يراقبنى ، وثب على محارمى ولم يستح منّى.] هـ.

ثم أزاح عذرهم بإرسال النذير ، فقال :

[سورة يونس (١٠) : الآيات ١٠٨ الى ١٠٩]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها

وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (١٠٩) يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ الرسول أو القرآن ، فَمَنِ اهْتَدى بالإيمان والمتابعة فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ لأن نفعه لها ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها لأن وبال الضلال عليها ، وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أي : موكل عليكم ، فأقهركم على الإيمان ، وإنما أنا بشير ونذير. وهو منسوخ بآية السيف. وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ بالامتثال والتبليغ ، وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بينك وبين عدوك ، بالأمر بالقتال ثم بالنصر والعز ، وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ إذ لا يمكن الخطأ فى حكمه ، لاطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

(٥٠٤/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٥

الإشارة : يا أيها الناس قد جاءكم من يعرفكم بالحق من ربكم ، فمن اهتدى بمعرفته واتباعه نفع نفسه ، حيث أخرجها من غم الحجاب ، وشفاها من سقم الشك والارتياب ، ومن ضل عن معرفته فوباله عليه ، حيث ترك نفسه فى أودية الخواطر تجول ، وحرمها من اللّه حقيقة الوصول. ويقال للعارف إذا أعرض الخلق عنه ، ولم ينفع فيهم تذكيره ووعظه : اتبع ما يوحى إليك من وحي الإلهام ، فإنه حق فى حق الخصوص إذ لا يتجلى فى قلوبهم إلا ما هو حق ، حيث تطهرت من خواطر الخلق. واصبر حتى يحكم اللّه بإرسال ريح الهداية ، وهو خير الحاكمين. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

(٥٠٥/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٦

(٥٠٦/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٧

سورة هود

مكية إلا قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ نزلت فى نبهان التمار بالمدينة ، وهى مائة وثلاث وعشرون آية. ووجه المناسبة لما قبلها : قوله تعالى : وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ «١» وهو كتاب أحكمت آياته.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الر.

[سورة هود (١١) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٥)

قال فى القوت ، فى تفسير الر : هذه ثلاثة أسماء : (اللّه ، لطيف ، رحيم). وقيل : هى حرف من اسم الرحمن.

قلت : أو مختصرة من الرسول خطابا للنبى صلّى اللّه عليه وسلّم. ويمكن أن يشير بالحروف للعوالم الثلاثة فالألف لوحدة الجبروت ، واللام لتدفق أنوار الملكوت ، والراء لسريان إمداد الرحموت فى سائر الموجودات ، وأعظمها وعنصرها :

نزول الكتاب العزيز. ولذلك بدأ بذكره ، فقال :

الر كِتابٌ ...

قلت : (كتاب) : خبر ، أي : هذا كتاب. و(أحكمت) : صفة. و(من لدن) : خبر ثان ، أو خبر «كتاب» إن جعل مبتدأ ، أو صفة له ، إن كان خبرا. و(ألّا تعبدوا) : «أن» : مفسرة ، أو مصدرية فى موضع مفعول لأجله ، أو بدل من الآيات ، أو مستأنف. و(أن استغفروا) : عطف عليه. و(حين) : متعلق بمحذوف ، أي : ألا إنهم يثنونها حين يستغشون ... إلخ. و(يعلم) : استئناف لبيان النقص عليهم.

يقول الحق جل جلاله : أيها الرسول المصطفى ، هذا الذي تقرؤه كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ أتقنت ، ونظمت نظما محكما ، لا يعتريه خلل من جهة اللفظ ولا المعنى ، أو أحكمت من النسخ بشريعة أخرى ، أو أحكمت

---

(١) من الآية : ١٠٩ من سورة يونس.

بالحجج والبراهين ، أو جعلت حكيمة لأنها مشتملة على أمهات الحكم العملية. ثُمَّ فُصِّلَتْ بينت لاشتمالها على بيان العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار. أو فصلت سورة سورة ليسهل حفظها ، وفصلت بالإنزال نجما نجما ، فى أزمنة مختلفة. أو فصل فيها ولخص ما يحتاج إليه من الأحكام.
و(ثم) : للتفاوت فى الحكم لأن الأحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له. نزل ذلك الكتاب مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، ولذلك كان محكما مفصلا بالغا فى ذلك الغاية لأن الحكيم الخبير لا يخفى عليه ما يخل بنظم الكلام.
قائلا ذلك الكتاب : ألا تعبدوا معه غيره. وقال فى القوت : كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ يعنى : بالتوحيد ، ثُمَّ فُصِّلَتْ أي : بالوعد والوعيد. ثم قال : مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ أي : بالإحكام للأحكام ، خَبِيرٍ بالتفصيل للحلال والحرام. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ هذا هو التوحيد الذي أحكمه. إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ بالعذاب ، وَبَشِيرٌ بالثواب لمن آمن به. هذا هو الوعد والوعيد. قال البيضاوي : إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ أي : من اللّه ، (نذير وبشير) بالعقاب على الشرك والثواب على التوحيد. وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ : عطف على «ألا تعبدوا» ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ثم توصلوا إلى مطلبكم بالتوبة فإن المعرض عن طريق الحق لا بد له من رجوع. وقيل : استغفروا من الشرك ، ثم توبوا إليه بالطاعة ، ويجوز أن يكون «ثم» : للتفاوت بين الأمرين. هـ.
قال ابن جزى : (استغفروا ربكم) مما تقدم من الشرك والمعاصي ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة. هـ.
وقال الواحدي : (استغفروا ربكم) من ذنوبكم السابقة ، (ثم توبوا إليه) من المستأنفة متى وقعت. هـ. يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً يحييكم حياة طيبة بالأرزاق والنعم والخيرات ، فتعيشوا فى أمن ودعة. إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى تمام أجلكم ، فلا يستأصلكم بالعذاب ، أو يمتعكم بالرجاء فيه والرضا بقضائه لأن الكافر قد يمتع بالأرزاق فى الدنيا استدراجا ، وَيُؤْتِ فى الآخرة كُلَّ ذِي فَضْلٍ عمل صالحا ، فَضْلَهُ أي : جزاء فضله ، فيوفى ثواب عمله ، أو يعطى كل ذى فضل فى دينه جزاء فضله فى الدنيا والآخرة. وهو وعد للمؤمن التائب بخير الدارين.
وَإِنْ تَوَلَّوْا أي : وإن تتولوا عما أمرتكم به ، فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ يوم القيامة ، أو يوم الشدة بالقحط والجوع ، وقد نزل بهم حتى أكلوا الجيف. أو يوم بدر إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ أي : رجوعكم فى ذلك اليوم الكبير ، أو بالموت ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على بعثهم وعذابهم أشد العذاب. وكأنه تقرير لكبر اليوم.
أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ يلوونها عن الحق وينحرفون عنه ، أو يعطفونها على الكفر وعداوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو يولون ظهورهم إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لئلا يروه من شدة البغض والعداوة ، لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أي : من الرسول – عليه الصلاة والسلام – أو : من اللّه بسرهم ، فلا يطلع رسوله

والمؤمنين عليه. قيل : إنها نزلت فى طائفة من المشركين ، قالوا : إن أرخينا ستورنا ، واستغشينا ثيابنا ، وطوينا صدورنا على عداوة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم كيف يعلم ذلك؟

(٥٠٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٠٩

والحاصل : إن الإثناء إن كان عن الحق – فالضمير فى : (منه) ، يعود على اللّه ، وإن كان عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فالضمير يعود عليه وفى البخاري عن ابن عباس : (أنها نزلت فيمن كان يستحى أن يتخلّى أو يجامع فيفضى إلى السماء).

وقوله : أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ : يحتمل أن يكون عند النوم ، فيكون الإثناء عن الحق ، أو عن اللّه ، أو عند مواجهة الرسول ، فيكون الإثناء عن رؤيته – عليه الصلاة السلام ، أو عن سماع القرآن. قال تعالى : يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ فى قلوبهم ، وَما يُعْلِنُونَ بأفواههم ، – فقد استوى فى علمه سرهم وعلانيتهم ، فكيف يخفى عليه أمرهم واستخفاؤهم منه؟ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أي : بالأسرار صاحبة الصدور ، أو بحقائق الصدور وما احتوت عليه.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله : هذا كتاب أحكمت آياته بالتعريف بالذات ، ثم فصلت ببيان الصفات ، أو :

أحكمت بتبيين الحقائق ، ثم فصلت بتبيين الشرائع. أو : أحكمت ببيان ما يتعلق بعالم الأرواح من التعريف ، ثم فصلت ببيان ما يتعلق بعالم الأشباح من التكليف ، أو : أحكمت ببيان أسرار الملكوت ، ثم فصلت ببيان أحكام الملك. ثم بيّن ما يتعلق بالذات فقال : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، وبيّن ما يتعلق بالصفات من التفصيل فقال : (و أن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) ، أو : بيّن ما يتعلق بالحقائق ، ثم ما يتعلق بالشرائع ، وهكذا. فإن جمعتم بين الحقائق والشرائع يمتعكم متاعا حسنا بشهود ذاته ، والتنزه فى أنوار صفاته ، إلى أجل مسمى ، وهو : النزول فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ويؤت كل ذى فضل من المعرفة جزاء فضله من الشهود ، فمن تولى عن هذا خاف من عذاب يوم كبير ، وهو : غم الحجاب ، والتخلف عن الأحباب. ثم عاتب أهل الشهود حيث تركوا مقام المشاهدة وتنزلوا إلى مقام المراقبة ، بقوله : (ألا إنهم يثنون صدورهم ...) الآية.

ثم بيّن كمال علمه تكميلا لقوله : (يعلم ما يسرون وما يعلنون) ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٦]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ أي : كل ما يدب عليها عاقلا أو غيره ، إِلَّا عَلَى اللَّهِ

رِزْقُها غذاؤها ومعاشها لتكفله إياه بذلك تفضلا وإحسانا. وإنما أتى بعلى التي تقتضى الوجوب تحقيقا لوصوله ، وتهييجا على التوكل وقطع الوساوس فيه ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها أماكنها فى الحياة والممات ، أو الأصلاب والأرحام. أو : مستقرها فى الأرض بعد وجودها ، ومستودعها : موادها قبل إيجادها. أو بالعكس : مستقرها : موادها فى العلم قبل الظهور ، ومستودعها : إقامتها فى الدنيا بعد الوجود. كُلٌّ واحد من الدواب على اختلاف أجناسها وأصنافها فِي كِتابٍ مُبِينٍ مذكور فى اللوح المحفوظ ، أو فى العلم القديم المبين للأشياء ، قال البيضاوي : وكأنه أريد بالآية كونه عالما بالمعلومات كلها ، وبما بعدها بيان كونه قادرا على الممكنات بأسرها ، تقريرا للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد. هـ.

(٥٠٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٠

الإشارة : هم الرزق ، وخوف الخلق ، من أمراض القلوب ، ولا ينقطعان عن العبد حتى يكاشف بعلم الغيوب وهو التوحيد الخاص أعنى : الرسوخ فى الشهود والعيان. وإنما يضر العبد ما كان ساكنا ، وأما الخواطر التي تلمع وتذهب ، فلا تضر لأن الإنسان خلق ضعيفا.

واعلم أن الرزق على قسمين : رزق الأرواح ، ورزق الأشباح. فرزق الأرواح معنوى ، وهو : قوت الروح من المعرفة وعلم اليقين. ورزق الأشباح حسى ، وهو : الطعام والشراب. وقد تكفل الله بالأمرين معا ، وأمر بالتسبب فيهما ، قياما برسم الحكمة. فالتكفل حقيقة ، والتسبب شريعة ، فالعامة اشتغلوا بالتسبب فى الرزق الحسى والبحث عنه ، ولم يعبأوا بالرزق المعنوي ، ولا عرفوه من شدة إعراضهم عنه ، مع أنهم لو فقدوا الرزق المعنوي لماتت أرواحهم. والخاصة اشتغلوا بالتسبب فى الرزق المعنوي والبحث عنه ، ولم يعبأوا بالرزق الحسى من شدة إعراضهم عنه ، مع أنهم لو فقدوا الرزق الحسى لهلكت أشباحهم. وخاصة الخاصة يتسببون فى الرزق الحسى والمعنوي ، وليس هم مع إرادتهم فى واحد منهما ، وإنما هم أبدا مع إرادة مولاهم راتعين أبدا ، حيث دفعتهم إرادة سيدهم فى الحسى أو فى المعنوي من غير تبرم ولا التفات لغيره ، كما قال القائل «١»:

أراني كالآلات وهو محركى أنا قلم ، والاقتدار أصابع

العامة قد حجبوا عن اللّه بإرادتهم للرزق الحسى ، حيث صار الرزق الحسى هو حظ النفوس. صاروا مع حظ نفوسهم لا غير ، والخاصة وجدوا اللّه فى طلبهم للرزق المعنوي ، لأنه حق اللّه ، لا حظ للنفس فيه ، لأجل ذلك لمّا كانوا لله كان اللّه لهم. وخاصة الخاصة ليس هم مع إرادتهم فى شىء ، بل هم بالله فى الأحوال كلها لا بنفوسهم.

قد انمحت إرادتهم فى إرادة اللّه ، فصارت إرادتهم إرادة اللّه ، وفعلهم فعله. وهذا المقام يقال له : التمكين بالتلوين.

هـ. قاله شيخ شيوخنا سيدى على الجمل العمراني رضى اللّه عنه فى كتابه ، نفعنا اللّه بهم جميعا.

قوله تعالى : وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها أي : يعلم مستقرها فى العلم ، ومستودعها فى العمل ، أو مستقرها فى الحال ، ومستودعها فى المقام ، أو مستقرها فى الفناء ، ومستودعها فى البقاء ، أو مستقرها فى التلوين ومستودعها فى التمكين ، أو مستقرها فى عالم الأشباح ، ومستودعها فى عالم الأرواح. وأنشدوا :

كلّ شيء سمعته أو تراه فهو للقبضتين يشير

ضع قميصى عن العيون ترى ما غاب عنك فقد أتاك البشير

---

(١) وهو الشيخ عبد الكريم الجيلي ، فى العينية.

فالمراد بالقبضتين : الحس والمعنى ، وإن كانا فى الأصل قبضة واحدة ، لكن لما تجلت بالضدين سمّاها قبضتين.

فالحس رداء للمعانى. وسماه هنا قميصا لأنه يستر كالرداء ، فإذا رفع القميص عن عيون البصيرة رأت ما غاب عنها من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وهذا معنى قوله : ضع قميصى عن العيون. إلخ ... ورفع حجاب المعنى عن البصيرة هو بشير الولاية وعنوانها. واللّه تعالى أعلم.

ولما بيّن كمال علمه ذكر كمال قدرته ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٧]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وما بينهما وما فيهما فِي مقدار سِتَّةِ أَيَّامٍ من أيام الدنيا ، أو خلق العالم العلوي والسفلى فى مقدار ذلك. وجمع السموات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات. وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ قيل : لم يكن بينهما حائل ، وكان موضوعا على متن الماء. واستدل به على إمكان الخلاء ، وعلى أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم. وقيل : كان الماء على متن الريح. واللّه أعلم بذلك. قاله البيضاوي.

قلت : الخلاء هو الفضاء الخارج عن دائرة الأكوان. وهو عند المتكلمين من جملة الممكنات ، ووجه الاستدلال من الآية على إمكانه : أن العرش والماء لما كانا محصورين لزم أن يكون ما خرج عنهما خلاء ، وكل ما سوى اللّه فهو ممكن. وعند الصوفية : هو أسرار الذات الأزلية الجبروتية ، كما أن الأكوان هى أنوار الصفات الملكوتية ، ولا شيء معه ، سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ. ونقل بعض أهل التاريخ : أن اللّه تعالى خلق بعد العرش ياقوتة صفراء ، ذكروا من عظمتها وسعتها ، ثم نظر إليها ، فذابت من هيبته ، فصارت ماء ، فكان العرش مرتفعا فوقها ، ثم اضطرب ذلك الماء ، فعلته زبدة ، خلق منها الأرض ، ثم ارتفع من الماء دخان خلق منه السموات «١». هـ.

خلق ذلك لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي : ليختبركم اختبارا تقوم به الحجة عليكم ، أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا بالزهد فى هذا العالم الفاني ، وتعلق ألهمه بالعالم الباقي قال البيضاوي : أي : يعاملكم معاملة المبتلى لأحوالكم ، كيف تعملون؟ فإن جملة ذلك أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم ، وما تحتاج إليه أعمالكم ، ودلائل

---

(١) كلام أهل التاريخ لا برهان عليه ، والأصح : أن يرجع فى هذا – إن أمكن معرفته – إلى علماء الطبيعة .. وإلا فإن اللّه تعالى يقول :

ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ .. الآية ٥١ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٢

وأمارات تستدلون بها وتستنبطون منها. ثم قال : فالمراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح. ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلّم :

«أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم اللّه وأسرع فى طاعة اللّه.» والمعنى : أكمل علما وعملا. هـ.

قال المحشى : ويتجه كون المعنى : أيكم أكثر شكرا للّه على تمهيد تلك المنافع والمصالح. والشكر يشمل الطاعات القلبية والبدنية. ويحتمل أنه كآية : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «١». وأن بقاء الدنيا وخلقها إنما هو للتكليف ، فإذا لم يبق فى الأرض من يعبد اللّه انقضت الدنيا ، وجاءت الساعة ، كما تقتضيه الأحاديث الصحاح «٢» والمتبادر ما قدمناه ، وحاصله : أنه خلق الأشياء من أجل ابن آدم ، ولتدله على خالقه فيجنى بها ثمار معرفته تعالى ، ويعترف بشكره ، وإفراد عبادته. وقد جاء. «خلقت الأشياء من أجلك وخلقتك من أجلى».

قلت : فيكون المعنى : هو الذي أظهر الوجود من عرشه إلى فرشه ، ليختبركم أيكم أحسن عملا

بالاشتغال باللّه ، والعكوف فى حضرته دون الوقوف مع ظاهر الكون ، والاشتغال بحسه ، مع كونه خلق من أجله. ثم قال : وقوله تعالى : (وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ...) الآيه ، هو : تنبيه على أن إنكار الكفار للبعث بعد إقرارهم بأن اللّه تعالى خالق العالم ، الذي هو أعظم من البعث ، تناقض منهم لأن إقرارهم بقدرته على الأكبر ، ثم إنكارهم لما هو أيسر تناقض هـ أي : ولئن ذكرت لهم البعث بعد الموت لقالوا ما هذا إلا سحر ظاهر. أي : ما البعث أو القول به ، أو القرآن المتضمن لذكره إلا كالسحر فى الخديعة أو البطلان. وقرأ حمزة ساحر أي : القائل بهذا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : فى صحيح البخاري قال صلّى اللّه عليه وسلّم : «كان اللّه ولا شيء معه ، وكان عرشه على الماء» الحديث.

فأخبر صلّى اللّه عليه وسلّم أن الحق جل جلاله كان فى أزله لا شيء معه ، ثم أظهر الأشياء من نوره بنوره لنوره ، فهو الآن على ما كان عليه. وعن أبى رزين : قلنا : يا رسول اللّه! أين كان ربّنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال : «كان فى عماء ما فوقه هواء ، وما تحته هواء ، وخلق عرشه على الماء» «٣» والعماء هو : الخفاء ، قال تعالى : فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ «٤» ، أي : خفيت. ويقال للسحاب عماء لأنه يخفى ما فيه ، وقال الششترى : فى المقاليد «٥» : كان فى عمى ، ما فوقه هواء وما تحته هواء. هى الوحدة المصمتة الصّمدية ، البحر الطامس «٦» الذي هو الأزل والأبد ، فلم يكن موجود غير الوجود الذي هو هو. هـ.

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

(٢) ومنها قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : اللّه اللّه». أخرجه مسلم (كتاب الإيمان ، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان).

(٣) أخرجه الترمذي فى سننه ، (كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة هود) ، وحسنه. وأخرجه ابن ماجه (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية). قلت : وهذا من حديث الصفات. نؤمن به ونكل علمه إلى اللّه تعالى.

(٤) من الآية : ٦٦ من سورة القصص.

(٥) اسمه كاملا : المقاليد الوجودية فى أسرار الصوفية.

(٦) يقال : طريق طامس ، أي : بعيد لا مسلك فيه.

والحاصل : أن الحق جل جلاله كان فى سابق أزله ذاتا مقدسة ، لطيفة خفية عن العقول ، نورانيه متصفة بصفات الكمال ، ليس معها رسوم ولا أشكال ، ثم أظهر الحق تعالى قبضة من نوره حسية معنوية إذ لا ظهور للمعنى إلا بالحس ، فقال لها : كونى محمدا ، فمن جهة حسها محصورة ، ومن جهة معناها لا نهاية لها ، متصلة ببحر المعاني الأزلى ، الذي برزت منه ، وما نسبتها من ذلك البحر من جهة حسها إلا كخردلة فى الهواء. وقد أشار ابن الفارض إلى وصف هذه الخمرة الأزلية – وهو تفسير للعماء المذكور قبل – فقال :

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقدّم كلّ الكائنات حديثها قديما ولا شكل هناك ، ولا رسم
وقامت بها الأشياء ثمّ لحكمة بها احتجبت عن كلّ من لا له فهم

فالأشكال والرسوم متفرعة من تلك القبضة المحمدية ، والقبضة متدفقة من بحر الجبروت الذي لا نهاية له ، فهى منه حقيقة ، وما ظهر تحديدها إلا من جهة حسها. فهى كثلجة فى بحر ، ماؤها الباطني متصل فى البحر ، وظاهرها محدود محصور. فالأشكال كلها غريقة فى بحر الجبروت ، ولذلك قال صاحب العينية «١» :

هو العرش والكرسىّ والمنظر البهي هو السّدرة التي إليها المراجع

وقال أيضا :

هو الموجد الأشياء وهو وجودها وعين ذوات الكلّ وهو الجوامع
فأوصافه والاسم والأثر الذي هو الكون عين الذّات واللّه جامع

فالأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته ، فالحق تعالى كما كان لا شىء معه ، فهو الآن كما كان. إذ التغير فى حقه تعالى محال ، ولا يعلم هذه الأسرار إلا من صحب أهل الأسرار ، وحسب من لم يصحبهم التسليم. كما رمزوا وأشاروا إليه :

وإن لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

وقوله تعالى : لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أي : ليظهر منكم من يقف مع الأكوان ، ومن ينفذ إلى شهود المكون. وهو الذي حسن عمله ، وارتفعت همته. ولئن قلت أيها العامي : إنكم تحيون بالمعرفة من بعد موت قلوبكم بالجهل والغفلة إن صحبتمونى ، ليقولن أهل الإنكار : إن هذا إلا سحر مبين.

---

(١) غفر اللّه له. ولو لا الأمانة العلمية لحذفت هذه الأبيات.

ثم خوفهم بالعذاب الذي استعجلوه ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٨]

وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٨)

قلت : (يوم) : معمول لخبر ليس ، وهو دليل جواز تقديمه إن كان ظرفا.

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ الموعود فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، إِلى أُمَّةٍ أي : أوقات معدودة قلائل ، لَيَقُولُنَّ استهزاء : ما يَحْبِسُهُ؟ أي : ما يمنعه من الوقوع الآن؟ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ وينزل بهم كيوم بدر ، أو يوم القيامة لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ليس مدفوعا عنهم حين ينزل بهم ، وَحاقَ نزل وأحاط بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، وضع الماضي موضع الاستقبال تحقيقا للوقوع ، ومبالغة فى التهديد.

الإشارة : إمهال العاصي ليس بإهمال له فإن اللّه تعالى يمهل ولا يهمل. فإمهاله إما استدراج ، أو انتظار لتوبته ، فليبادر العبد بالتوبة قبل الفوات ، وبالعمل الصالح قبل الممات. فما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت ، وباللّه التوفيق.

ومما وقع به الاختبار : الوقوف مع النعم دون شهود المنعم ، كما أبان ذلك بقوله :

[سورة هود (١١) : الآيات ٩ الى ١١]

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

قلت : (و لئن) : شرط وقسم ، ذكر جواب القسم ، واستغنى به عن جواب الشرط.

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً أي : أعطيناه نعمة يجد لذتها. ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ أي : سلبنا تلك النعمة منه إِنَّهُ لَيَؤُسٌ قنوط ، حيث قلّ رجاؤه من فضل اللّه لقلة صبره ، وعدم ثقته بربه ، كَفُورٌ : مبالغ فى كفران ما سلف له من النعم ، كأنه لم ير نعمة قط. وَلَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ كصحة بعد سقم ، وغنى بعد فقر ، أو علم بعد جهل ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ. أي : المصائب التي مستثنى ، عَنِّي ، ونسى مقام الشكر. إِنَّهُ لَفَرِحٌ أي : بطر متعزز بها ، فَخُورٌ على الناس ، متكبر بها ، مشغول بذلك عن شكرها ، والقيام بحقها. قال البيضاوي : وفى لفظ الإذاقة والمس تنبيه على أن ما يجده الإنسان فى الدنيا من النعم

والمحن كالأنموذج لما يجده فى الآخرة ، وأنه يقع فى الكفر والبطر بأدنى شىء لأن الذوق : إدراك المطعم ، والمس مبدأ الوصول إليه. هـ.

إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا على الضراء إيمانا بالله ، واستسلاما لقضائه ، وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ شكرا لآلائه ، سابقها ولا حقها ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لذنوبهم ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ أقله الجنة ، وغايته النظرة. والاستثناء من الإنسان لأن المراد به الجنس. ومن حمله على الكافر – لسبق ذكرهم – جعله منقطعا. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للعبد أن يكون شاكرا للنعم ، صابرا عند النقم ، واقفا مع المنعم دون النعم. إن ذهبت من يده نعمة رجى رجوعها ، وإن أصابته نقمة انتظر انصرافها. والحاصل : أنه يكون عبد اللّه فى جميع الحالات.

حكى أن سيدنا موسى عليه السّلام قال : يا رب دلنى على عمل إذا عملته رضيت عنى. قال : إنك لا تطيق ذلك ، فخر موسى ساجدا متضرعا ، فقال : يا ابن عمران إن رضاى فى رضائك بقضائي. هـ.

وقال ابن عباس – رضى اللّه عنه – أول شىء كتبه اللّه فى اللوح المحفوظ : أنا اللّه لا إله إلا أنا ، محمد رسولى ، فمن استسلم لقضائى ، وصبر على بلائي ، وشكر نعمائى ، كتبته صديقا ، وبعثته مع الصديقين ، ومن لم يستسلم لقضائى ، ولم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نعمائى ، فليتخذ ربا سوائى. هـ. وروى عن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال : ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة : الرضا بالقضاء ، والصبر على الأذى ، والدعاء فى الرخاء. هـ.

من جملة الأذى : التكذيب والإنكار ، كما أبان ذلك بقوله تعالى لنبيه – عليه الصلاة والسلام – :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٢ الى ١٤]

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم : فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ ، فلا تبلغه وهو ما فيه تشديد على المشركين ، مخافة ردهم واستهزائهم به. ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه. فالعصمة مانعة من ذلك. فالرسول – عليه الصلاة والسلام – لم يترك شيئا من الوحي إلا بلغه ، ولكن الحق تعالى شجعه وحرضه على التبليغ فى المستقبل. ولو قوبل بالإنكار.

ثم قال له : وَضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أي : ولعله يعرض لك فى بعض الأحيان ضيق فى صدرك ، فلا تتلوه عليهم مخافة أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ينفقه للاستتباع كالملوك ، أو يستغنى به عن طلب المعاش ، أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يشهد له ، والقصد تسليته صلّى اللّه عليه وسلّم عن قولهم ، حتى يبلغ الرسالة ولا يبالى بهم. وإنما قال :
ضائِقٌ ليدل على اتساع صدره صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقلة ضيقه فى الحال. إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، ولا عليك ، ردوا أو اقترحوا ، فلا يضيق صدرك بذلك. وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ فتوكل عليه ، فإنه عالم بحالهم ومجازيهم على أقوالهم وأفعالهم.
أَمْ بل يَقُولُونَ افْتَراهُ أي : ما يوحى إليه ، قُلْ لهم : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ فى البيان وحسن النظم. تحداهم أولا بعشر سور ، فلما عجزوا سهل الأمر عليهم وتحداهم بسورة. وتوحيد المثل باعتبار كل واحد. مُفْتَرَياتٍ مختلقات من عند أنفسكم ، إن صح أنى اختلقته من عند نفسى فإنكم عرب فصحاء مثلى.
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ للمعاونة على المعارضة ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنه مفترى. فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فإن عجزوا عن الإتيان ، فَاعْلَمُوا أيها الرسول والمؤمنون أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ بإذنه ، أو بما لا يعلمه إلا اللّه من الغيوب. والمعنى : دوموا على إيمانكم ، وزيدوا يقينا فيه.
قال البيضاوي : وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم ، أو لأن المؤمنين كانوا يتحدونهم ، فكان أمر الرسول – عليه الصلاة والسلام – متناولا لهم من حيث إنه يجب اتباعه عليهم فى كل أمر إلا ما خصه الدليل. أو للتنبيه على أن التحدي مما يوجب رسوخ إيمانهم وقوة يقينهم.
ولذلك رتب عليه قوله : فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ملتبسا بما لا يعلمه إلا اللّه ، لأنه العالم والقادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره. وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لظهور عجز آلهتهم. فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ ثابتون على الإسلام ، راسخون مخلصون فيه ، إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقا.
ويجوز أن يكون الكل خطابا للمشركين ، والضمير فى يَسْتَجِيبُوا لمن استطعتم ، أي : فإن لم يستجيبوا لكم ، أي : من استعنتم به على المعارضة لعجزهم ، وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة ، فَاعْلَمُوا أنه نظم لا يعلمه إلا اللّه وأنه منزل من عنده ، وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق ، فهل أنتم داخلون فى الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة؟ وفى مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب ، والتنبيه على قيام الموجب ، وزوال العذر. هـ. وقال فى الوجيز : فإن لم يستجيبوا لكم من تدعون إلى المعاونة ، ولا تهيأ لكم المعارضة ، فقد قامت عليكم الحجة ، فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ أي : أنزل واللّه عالم بإنزاله ، وعالم أنه من عنده ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟ استفهام ، معناه الأمر ، كقوله : فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ «١». هـ.

(١) من الآية ٩١ من سورة المائدة. [.....]

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٧

الإشارة : ينبغى لأهل الوعظ والتذكير أن يعمموا الناس فى التذكير ، ولا يفرقوا بين أهل الصدق ، وأهل التنكير. بل ينصحوا العباد كلهم ، ولا يتركوا تذكيرهم ، مخافة الرد عليهم ، ولا تضيق صدورهم بما يسمعون منهم ، اقتداء بنبيهم صلّى اللّه عليه وسلّم ، وقد قال لقمان لابنه حين أمره بالتذكير : وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ «١» ، فإن طلبوا من المذكر الدليل فليقل : إنما أنا نذير ، واللّه على كل شيىء وكيل. فإن قالوا : هذا الذي تذكر كلنا نعرفه ، فليقل : فأتوا بسورة من مثله ، أو بعشر سور من مثله. واللّه تعالى أعلم.

ولا ينفع الوعظ والإنذار إن كانت همته كلها مصروفة للدنيا ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ١٥ الى ١٦]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

قلت : «ما صنعوا فيها» : الضمير يعود على الدنيا ، والظرف يتعلق بصنعوا. أو يعود على الآخرة ، ويتعلق الظرف بحبط ، أي : حبط فى الآخرة ما صنعوا من الأعمال فى الدنيا.

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ بعمله الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها ، فكان إحسانه وبره رياء وسمعة ، نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها أي : نوصل إليهم جزاء أعمالهم فى الدنيا ، من الصحة والرئاسة ، وسعة الأرزاق ، وينالون ما قصدوا من حمد الناس ، وإحسانهم وبرهم ، وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ لا ينقصون شيئا من أجورهم ، فيحتمل : أن تكون الآية نزلت فى أهل الرياء من المؤمنين الذين يراؤون بأعمالهم كما ورد فى حديث الغازي والغنى القارئ المرائين ، وأنهم أول من تسعر بهم جهنم. ويحتمل أن تكون نزلت فى الكفار ، وهو أليق بقوله : أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة ، وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة. وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها أي : فى الدنيا ، فكل ماصنعوا فى الدنيا من الإحسان حبط يوم القيامة لأنهم لم يريدوا به وجه اللّه. والعمدة فى انتظار ثواب الأعمال هو الإخلاص ، وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لأنه لم تتوفر فيه شروط الصحة التي من جملتها الإخلاص.

الإشارة : فى الحديث : «من كانت الدّنيا همّه : فرّق اللّه عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته

من الدّنيا إلا ما قسم له. ومن كانت الآخرة نيته : جمع اللّه عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدّنيا وهى صاغرة» «٢».

---

(١) الآية : ١٧ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه الترمذي فى [صفة القيامة ، باب ٣٠] من حديث أنس بن مالك. وابن ماجه : [الزهد ، باب الهمّ بالدنيا] من حديث زيد بن ثابت.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٨

قلت : ومن كان اللّه همه كفاه هم الدارين. فطالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير. فارفع همتك أيها العبد عن الدار الفانية ، وعلق قلبك بالدار الباقية ، ثم ارفعها إلى شهود الذات العالية ، ولا تكن ممن قصر همته على هذه الدار فتكن ممن ليس له فى الآخرة إلا النار. وحصّن أعمالك بالإخلاص ، وإياك وملاحظة الناس فتبوأ بالخيبة والإفلاس ، وباللّه التوفيق.

ثم ذكر ضد من تقدم ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ١٧]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١٧)

قلت : (أ فمن كان) : مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : كمن كان يريد الدنيا وزينتها.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ ، طريقة واضحة مِنْ رَبِّهِ وهو النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمؤمنون ، كمن ليس كذلك ، ممن همه الدنيا؟! والمراد بالبينة : ما أدرك صحته العقل والذوق ، أي : على برهان واضح من ربه ، وهو الدليل العقلي والأمر الجلى. أو برهان من اللّه يدله على الحق والصواب فيما يأتيه ويذره ، وَيَتْلُوهُ ويتبع ذلك البرهان – الذي هو دليل العقل ، شاهِدٌ مِنْهُ أي : من اللّه يشهد بصحته ، وهو : القرآن ، لأنه مصباح البصيرة والقلب فهو يشهد بصحة ما أدركه العقل من البرهان.

وَمِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل القرآن ، كِتابُ مُوسى يعنى : التوراة ، فإنها أيضا متلوة شاهدة بما عليه الرسول ومن تبعه من البينة الواضحة. أو البينة : القرآن ، والشاهد : جبريل عليه السّلام ، أو علىّ – كرم اللّه وجهه – ، أو الإنجيل. وهو حسن ، لقوله : وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى فإن التوراة قبل الإنجيل. قال ابن

عطية : وهنا اعتراض وهو أن الضمير فى «قبله» عائد على القرآن ، فلم لم يذكر الإنجيل – وهو قبله – بينه وبين كتاب موسى؟

فالانفصال عنه : أنه خصّ التوراة بالذكر لأن الملّتين متفقتان على أنها «١» من عند اللّه ، والإنجيل قد خالف فيها.

فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الكتابين أولى. وهذا كقول الجن : إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى «٢». وقول النجاشي : «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة». هـ. وإذا فسرنا الشاهد بالإنجيل سقط الاعتراض.

---

(١) فى ابن عطية : مجتمعتان أنهما.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأحقاف.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥١٩

ثم وصف التوراة بقوله : إِماماً. أي : مؤتما به فى الدين ، لأجله ، وَرَحْمَةً على المنزل عليهم.

أُولئِكَ أي : من كان على بينة من ربه ، يُؤْمِنُونَ بِهِ أي : بالقرآن ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ : كأهل مكة ، ومن تحزب منهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ يدخلها لا محالة ، فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ شك مِنْهُ أي : من ذلك الموعد ، أو القرآن ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ الثابت وقوعه ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ لقلة نظرهم ، وإخلال فكرتهم.

الإشارة : لا يكون العبد على بينة من ربه حتى يتحقق فيه أمران ، أولهما : التوبة النصوح ، والثاني : الزهد التام. فإذا تحقق فيه الأمران كان على بينة من ربه. وهى درجات أولها : بينة ناشئة عن صحيح النظر والاعتبار ، وهى لقوم نظروا فى الحجج والبراهين العقلية والدلائل السمعية ، فأدركوا وجود الحق من طريق الإيمان بالغيب ، وهم : أهل الدليل والبرهان. وثانيها : بينة ناشئة عن الرياضات والمجاهدات والاعتزال فى الخلوات ، فخرقت لهم العوائد الحسيات فرأوا كرامات وخوارق عادات ، فأدركوا وجود الحق على وجه التحقيق والبيان ، مع رقة الحجاب والوقوف بالباب. وهم : العبّاد ، والزهاد ، والصالحون من أهل الجد والاجتهاد. وثالثها : بينة ناشئة عن الذوق والوجدان ، والمكاشفة والعيان ، وهى لقوم دخلوا فى تربية المشايخ ، فتأدبوا وتهذبوا ، وشربوا خمرة غيبتهم عن حسهم ورسمهم فغابوا عن الأكوان بشهود المكون. فهم يستدلون باللّه على غيره. قدّسوا الحق أن يحتاج الى دليل ، وهؤلاء هم الأفراد وخواص العباد ، وإليهم أشار الشاعر بقوله :

الطّرق شتّى وطريق الحقّ مقفرة والسّالكون طريق الحقّ أفراد
لا يعرفون ولا تدرى مسالكهم فهم على مهل يمشون قصّاد
والنّاس فى غفلة عمّا يراد بهم فجّلهم عن سبيل الحق رقّاد
وقال فى القوت : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أي : من شهد مقام اللّه – عز وجل – بالبيان ، فقام له بشهادة الإيقان ، فليس هذا كمن زين له سوء عمله ، واتبع هواه ، فآثره على طاعة مولاه. بل هذا قائم بشهادته ، متبع لشهيده ، مستقيم على محبة معبوده. هـ. وقال الورتجبي : تقدير الآية على وجه الاستفهام : أفمن كان على بينة من ربه كمن هو فى الضلالة والجهالة؟ أفمن كان على معرفة من ربه ، وولاية وسلامة وكرامة ، وكل عارف إذا شاهد الحق سبحانه بقلبه وروحه ، وعقله وسره ، فأدرك فيض أنوار جماله ، وقربه ، يؤثر ذلك فى هيكله حتى يبرز من وجهه نور اللّه الساطع ، ويراه كل صاحب نظر ، قال تعالى : وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ ، والبينة : بصيرة المعرفة ، والشاهد : بروز نور المشاهدة منه. وأيضا : البينة : كلام المعرفة. والشاهد : الكتاب والسنة. ثم قال عن الجنيد : البينة :
حقيقة يؤيدها ظاهر العلم. هـ.

(٥١٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٢٠
والحاصل : أن البينة أمر باطني ، وهى : المعرفة ، إما بالبرهان ، أو بالعيان ، والشاهد الذي يتلو هو العلم الظاهر ، فيتفق ما أدركه العقل أو الذوق مع ما أفاده النقل ، فتتفق الحقيقة مع الشريعة. كلّ فى محله ، الباطن منور بالحقائق ، والظاهر مؤيد بالشرائع. وهذا غاية المطلوب والمرغوب. رزقنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر بمنّه وكرمه.
ثم ذكر وعيد من كذب بها فقال :
[سورة هود (١١) : الآيات ١٨ الى ٢٤]
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (١٩) أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

قلت : (مثلا) : تمييز.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ أَظْلَمُ أي : لا أحد أظلم مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً بأن أسند إليه مالم يقله ، وكذب بما أنزله ، أو نسب للّه ما لا يليق بجلاله. أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ يوم القيامة ، بأن يحبسوا فى الموقف ، وتعرض عليهم أعمالهم على رؤوس الأشهاد ، وَيَقُولُ الْأَشْهادُ من الملائكة والنبيين ، أو كل من شهد الموقف : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ وهو تهويل عظيم لما يحيق بهم حينئذ ، لظلمهم بالكذب على اللّه ، ورد الناس عن طريق اللّه.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن دينه ، وَيَبْغُونَها عِوَجاً يصفونها بالانحراف عن الحق والصواب.

أو يبغون أهلها أن يعوجوا عنها بالردة والكفر ، أو يطلبون اعوجاجها بالطعن فيها. وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ أي :

والحال أنهم كافرون بالبعث. وتكرير الضمير لتأكيد كفرهم واختصاصهم به.

(٥٢٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٢١

أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ أي : ما كانوا ليعجزوا اللّه فى الدنيا أن يعاقبهم. بل هو قادر على ذلك ، وأخرهم ليوم الموعود ، ليكون أشد وأدوم. وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ يمنعونهم من العقاب ، يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ بسبب ما اتصفوا به ، كما ذكره بقوله : ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَما كانُوا يُبْصِرُونَ لتصاممهم عن الحق ، وبغضهم اهله. أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

حين اشتروا عبادة الأصنام بعبادة اللّه ، وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

من أن الأصنام تشفع لهم ، أو خسروا بما بدلوا وضاع عنهم ما أملوا ، فلم يبق لهم سوى الحسرة والندامة. لا جَرَمَ لا شك ، أو لا بد أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ : فلا أحد أكثر خسرانا منهم حيث حرموا النعيم المخلد ، واستبدلوه بالعذاب المؤيد.

ثم ذكر ضدهم فقال : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَخْبَتُوا ، أي : اطمأنوا أو خشعوا ، أو تابوا إِلى رَبِّهِمْ. أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ دائمون.

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ المتقدمين فريق الكافر ، وفريق المؤمن : كَالْأَعْمى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، فمثل الكافر كمن جميع بين العمى والصمم ، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات ، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط ، وبمن هو أصم فقط ، والمؤمن بضدهما ، فهو تمثيل للكافرين بمثالين ، قاله ابن جزى. وقال البيضاوي : يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات اللّه ، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام اللّه ، وتأبيه عن تدبره معانيه. وتشبيه المؤمن

بالسميع والبصير لأن أمره بالضد ، فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم ، والمؤمن بالجامع بين ضديهما ، والعاطف لعطف الصفة على الصفة ، كقوله : فالأيب الصّابح فالغانم «١» فهذا من بيان اللف والطباق. هـ. هَلْ يَسْتَوِيانِ : هل يستوى الفريقان؟ مَثَلًا أي : من جهة التمثيل ، بل لا استواء بينهما ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم.

الإشارة : كل من ترامى على مراتب الرجال ، أو ادعى مقاما من المقامات وهو لم يدركه ، يريد بذلك إمالة وجوه الناس إليه ، يفضح يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، ويقال له : هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ ...

الآية. فكل آية فى الكفار تجر ذيلها على عصاة المؤمنين. وقد تقدم أمارات من كان على بنية من ربه ، فمن أدعى مقاما من تلك المقامات وهو يعلم أنه لم يصله نادت عليه الآية.

---

(١) فى الأصول : (القائم والصالح والأديب). والمثبت هو الذي فى البيضاوي. والشاهد فيه عطف صفات موصوف واحد بالفاء.

ثم شرع فى ذكر قصص الأنبياء – عليهم السلام – تسلية لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم وتتميما لقوله : (فلعلك تارك) ، (و ضائق).

فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (٢٧)

قلت : من قرأ : إنى بالكسر ، فعلى إرادة القول ، ومن قرأ بالفتح ، فعلى إسقاط الخافض ، أي : بأنى ، و(بادى الرأى) : ظرف ل (اتبعك) ، على حذف مضاف أي : وقت حدوث أول رأيهم. وهو من البدء أي : الحدوث ، أو من البدوّ ، أي : الظهور. أي :

اتبعوك فى ظاهر الرأى دون التعمق فى النظر.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فقال لهم : إِنِّي لَكُمْ ، أو بأنى لكم نَذِيرٌ مُبِينٌ أي :

بين ظاهر ، أو أبين لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه ، قائلا : أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، ولا تعبدوا معه غيره ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ مؤلم ، وهو فى الحقيقة صفة للعذاب ، ووصف به زمانه على طريقة [جدّ جدّه ، ونهاره صائم] للمبالغة.

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا لا مزية لك علينا تخصك بالنبوءة ووجوب الطاعة ، وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا أخساؤنا وسقاطنا جمع أرذل. بادِيَ الرَّأْيِ من أول الرأى من غير تفكر ولا تدبر ، أي : اتبعك هؤلاء بادى الرأى من غير ترو. أو ظاهرا رأيهم خفيفا عقلهم. وإنما استرذلوهم ، لأجل فقرهم ، جهلا منهم ، واعتقادا أن الشرف هو المال والجاه. وليس الأمر كذلك. بل الشرف إنما هو بالإيمان والطاعة ، ومعرفة الحق. وقيل : إنهم كانوا حاكة وحجامين. وقيل : أراذل فى أفعالهم ، لقوله : وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ «١». ثم قالوا : وَما نَرى لَكُمْ أي : لك ولمتبعيك عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ يؤهلكم للنبوءة ، واستحقاق المتابعة. بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ أنت فى دعوى النبوءة ، وهم فى دعوى العلم بصدقك. فغلب المخاطب على الغائبين.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة الشعراء.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنة ماضية ، وأتباع الخصوص موسومون بالذلة والقلة ، وهم أتباع الرسل والأولياء ، وهم أيضا جل أهل الجنة لأن المصطفى صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «أهل الجنّة كلّ ضعيف مستضعف» «١» وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا سقّط الناس؟ فقال لها الحق تعالى : «أنت رحمتى أرحم بك من أشاء» حسبما فى الصحيح.

ثم أجابهم بقوله :

[سورة هود (١١) : آية ٢٨]

قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (٢٨)

قلت : «أنلزمكموها» : يصح فى الضمير الثاني الوصل والفصل لتقدم الأخص.

يقول الحق جل جلاله : قالَ نوح لقومه : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ : أخبرونى ، إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي على طريقة واضحة من عند ربى ، أو حجة واضحة شاهدة بصحة دعواى ، وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ النبوة ، فَعُمِّيَتْ خفيت عَلَيْكُمْ فلم تهتدوا إليها ، أَنُلْزِمُكُمُوها أنكرهكم على الاهتداء بها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ لا

تختارونها ولا تتأملون فيها. ولم يؤمر بالجهاد ، بل تركهم حتى نزل بهم العذاب.
الإشارة : طريقة أهل التذكير – الذين هم على بينة من ربهم – : أنهم يذكرون الناس ، ولا يكرهون أحدا على الدخول فى طريقهم ، إذا عميت عليهم. واللّه تعالى أعلم.
ثم قال :
[سورة هود (١١) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]
وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠)
يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن نوح عليه السّلام : وَيا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ على التبليغ المفهوم من السياق ، مالًا : جعلا أنتفع به ، إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فإنه المأمول منه. ثم طلبوا منه طرد الضعفاء ليجالسوه ، فقال لهم : وَما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ فيخاصمونى إن طردتهم ، أو : إنهم ملاقوه

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى (الزهد ، باب من لا يؤبه له) من حديث معاذ بن جبل.

فيفوزون بقربه ، فكيف أطردهم؟ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ لقاء ربكم ، أو بأقدارهم ، أو تسفهون عليهم فتدعوهم أراذل ، أو قوما جهالا استحكم فيكم الجهل وشختم فيه ، فلا ينفع فيكم الوعظ والتذكير. وَيا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ : من يدفع انتقامه عنى إِنْ طَرَدْتُهُمْ وهم بتلك الصفة الكاملة من الإيمان والخوف منه؟
أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعلموا أن التماس طردهم ، وتوقيف الإيمان عليه ليس بصواب.
الإشارة : قال القشيري : قوله تعالى : لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا ، فيه تنبيه للعلماء – الذين هم ورثة الأنبياء أن يتأدبوا بأنبيائهم ، وألا يطلبوا من الناس شيئا فى بث علومهم ، ولا يرتفقوا منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم ، وما ارتفق من المستمعين فى بث فائدة يذكّر بها من الدين ، ويعظ بها المسلمين فلا يبارك اللّه فيما يسمعون به عن اللّه ، ولا ينتفعون به ، ويحصلون به على سخط من اللّه هـ «١».
قلت : هذا إن كان له تشوف وتطلع بذلك ، بحيث لو لم يعلم ، أو لم يذكر. وأما إن كان يعلم ويذكر للّه ، ثم يتصدق عليه للّه ، فلا بأس به إن شاء اللّه. وما زالت الأشياخ والأولياء يقبضون زيارات الفقراء ، وكل من يأتيهم ، ويذكرونهم ويعرفونهم باللّه ، لأن ذلك ربح للمعطى وتقريب له. وما ربح الناس إلا

من فلسهم ونفسهم بذلوها للّه ، فأغناهم اللّه. وقد تقدم عند قوله : خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً ... «٢» بعض الكلام على هذا المعنى ، واللّه تعالى أعلم.

ولما قالوا له : لو كنت نبياللّه ، لأغناك اللّه عن التكسب ، ولأعلمك بما يفعل أتباعك فإنهم ما اتبعوك إلا فى الظاهر دون الباطن ، قال لهم :

[سورة هود (١١) : آية ٣١]

وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)

يقول الحق جل جلاله : قال نوح لقومه : وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ حتى أنفق منها متى شئت ، فأستغنى عن مباشرة الأسباب ، بل ما أنا إلا بشر ، أو لا أدعى ما ليس لى فتنكروا قولى ، أي : لا أفوه لكم ، ولا أتعاطى غير ما ألهمنى اللّه له ، فلست أقول : عندى خزائن اللّه ، أي : القوة التي توجد بها الأشياء بعد عدمها. أو :

عندى خزائن اللّه التي ينزل منها الأشياء ، كالريح والمياه ونحوها ، كما قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ «٣» فتبرأ عليه السّلام من هذه الدعوى.

---

(١) بالمعنى.

(٢) من الآية : ١٠٣ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٢١ من سورة الحجر.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٢٥

ثم قال : وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ أي : ولا أقول : إنى أعلم الغيب ، فأعلم من أصحابى ما يسترونه عنى فى نفوسهم ، فسبيلى قبول ما ظهر منهم. أو : لا أعلم أنهم اتبعونى فى بادى الرأى من غير بصيرة وعقد قلب وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ حتى تقولوا : ما نراك إلا بشرا مثلنا. وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ أي : تحتقرهم. من زريت على الرجل : قصرت به. قلبت تاؤه دالا لتجانس الزاى للتاء «١» ، والمراد بهم ضعفاء المؤمنين ، أي : لا أقول فى شأن من احتقرتموهم ، لفقرهم : لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً فإنّ ما أعد اللّه لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى الدنيا. اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ من خير أو غيره. إِنِّي إِذاً أي : إن قلت شيئا من ذلك ، لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

قال البيضاوي : وإسناده إلى الأعين للمبالغة ، والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادى الرأى من غير روية ،

مما عاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم ، دون تأمل فى معانيهم وكمالاتهم. وقال أيضا : وإنما استرذلوهم لفقرهم لأنهم لمّا لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا كان الأحظ «٢» بها أشرف عندهم ، والمحروم منها أرذل. هـ.

الإشارة : لا يشترط فى وجود الخصوصية ظهور الكرامة فقد تظهر الكرامة على من لم تكمل له الاستقامة ، فلا يشترط فيه الاطلاع على خزائن الغيوب ، وإنما يشترط فيه التطهير من نقائص العيوب ، لا يشترط فيه الإنفاق من الغيب ، وإنما يشترط فيه الثقة بما ضمن له فى الغيب. واللّه تعالى أعلم.

ثم استعجلوا العذاب ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ٣٢ الى ٣٤]

قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

قلت : إِنْ أَرَدْتُ : شرط حذف جوابه لتقدم ما يدل عليه ، وكذا (إن كان اللّه يريد أن يغويكم) ، والتقدير : إن كان اللّه يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم. أي : فكذلك. فهو من تعليق الشرط ، كقولك : إن دخلت الدار ، إن كلمت زيدا ، فأنت طالق. فلا تطلق إلا بهما ، ثم استأنف : (هو ربكم).

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا : خاصمتنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا : خصامنا ومخاطبتنا ، فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى الدعوى والوعيد ، فإن مناظرتك

---

(١) لأن الزاى مجهورة والتاء مهموسة ، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها.

(٢) فى الأصول : (اللاحظ لها). والمثبت هو الذي فى تفسير البيضاوي.

ووعظك لا يؤثر فينا. قالَ نوح عليه السّلام : إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ دونى إِنْ شاءَ عاجلا أو آجلا ، وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ بدفع العذاب عنكم ، أو الهرب منه حتى تعجزوا القدرة الإلهية ، وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ، وأراد اللّه أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، فإن النصح مع سابق الشقاء عنت. وهذا جواب لما أوهموا من أن جداله كلام لا طائل تحته ، وهو دليل على أن إرادة اللّه تعالى يصح تعلقها بالإغواء ، وأن خلاف مراد اللّه تعالى محال. ولذلك قيل : مراد اللّه من خلقه ما هم عليه. ثم قال : هُوَ رَبُّكُمْ

خالقكم والمتصرف فيكم وفق إرادته.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فيجازيكم على أعمالكم.

الإشارة : ينبغى لأهل الوعظ ، والتذكير أن لا يملوا – ولو أكثروا – إذا قابلهم الناس بالبعد والإنكار ، وليقولوا : ولا ينفعكم نصحنا إن أردنا أن ننصحكم إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ... الآية.

ولما كان المقصود من القصة تسلية رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم خاطبه فى أثنائها بقوله :

[سورة هود (١١) : آية ٣٥]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : أَمْ يَقُولُونَ أي : كفار قريش : هذا الذي يقرؤه محمد علينا ، ويقصه من خبر من قبلنا افْتَراهُ من عنده. قُلْ لهم : إِنِ افْتَرَيْتُهُ تقديرا فَعَلَيَّ إِجْرامِي أي : وباله على دونكم ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ مما ترتكبون من الإجرام بتكذيبكم وكفركم.

الإشارة : ينبغى لمن قوبل بالتكذيب والإنكار أن يكتفى بعلم اللّه ، ويقول لمن كذبه ما قال نبيه صلّى اللّه عليه وسلّم لمن كذبه : (إن افتريته فعلى إجرامي ...) الآية. وفى الحكم : «متى آلمك عدم إقبال الناس عليك ، أو توجههم بالذم إليك ، فارجع إلى علم اللّه فيك ، فإن كان لا يقنعك علمه فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم ..».

قال الشيخ زروق رضى اللّه عنه : وذلك لأن عدم قناعتك بعلمه يصيبك فى قلبك ودينك ، وأذاهم يصيبك فى عرضك وبدنك ودنياك ، وأيضا : أذاهم يردك إليه ، فهو فائدتك ، وعدم القناعة بعلمه يردك إليهم ، فهى مصيبة توجب ثلاثا ، هى علامة عدم القناعة بعلمه : أولها : التصنع والمراءة ، الثاني : طلب رضاهم بما أمكن فى جميع الحالات. الثالث : إظهار علمه وعمله وحاله ، ليعلموا برتبته.

والقناعة بعلمه علامتها ثلاث : أولها : قصد الإخلاص فى كلّ ، بحيث لا يبالى أين رآه الخلق ، وكيف رأوه.

الثاني : طلب رضاه بالعمل بطاعته ، وترك ما لا يرضيه ، رضوا بذلك أو سخطوا. الثالث : الاكتفاء بعلمه فيما يجرى عليه من حكمه وحكمته ، قال إبراهيم التيمي رضى اللّه عنه لبعض أصحابه : ما يقول الناس فىّ؟ فقال :

يقولون إنه مرائى ، فقال : الآن طاب العمل. قال بشر الحافى : اكتفى – واللّه – بعلم اللّه. فلم يحب أن يدخل مع علم اللّه غيره ، وقال أيضا : سكون النفس لقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي.

وقال أحمد بن أبى الحوارى رضى اللّه عنه : من أحب أن يعرف بشيء من الخير ، أو يذكر به ، فقد أشرك مع اللّه فى عبادته لأن من عمل على المحبة لا يحب أن يرى عمله غير محبوبه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى اللّه عنه. لا تنشر علمك ، ليصدقك الناس ، وانشر علمك ليصدقك اللّه. وإن كان لام العلة موجودا ، فعلّة تكون بينك وبين اللّه من حيث أمرك ، خير لك من علّة تكون بينك وبين الناس ، من حيث نهاك.

ولعلّة تردك إلى اللّه خير لك من علة تقطعك عن اللّه. هـ. المراد منه.

ثم تمم قصة نوح عليه السّلام ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٣٦ الى ٣٩]

وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ بعد هذا إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ قبل ، وكان هذا الوحى بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى اللّه تعالى. فكان الرجل منهم يأتيه بابنه ، ويقول : يا بنى لا تصدق هذا الشيخ ، فهكذا عهد إلىّ أبى وجدى. فلما نزل الوحى وأيس من إيمانهم دعا عليهم ، وقال : رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١». قال له تعالى : فَلا تَبْتَئِسْ : تحزن وتغتم بِما كانُوا يَفْعَلُونَ من التكذيب والإيذاء ، أقنطه أولا من إيمانهم ، ونهاه أن يغتم لأجلهم.

ثم أمره بصنع السفينة ، فقال : وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا بحفظنا ورعايتنا ، أو بمرأى منا ومسمع غير محتاج إلى آلة حفظ وحرس ، وَوَحْيِنا إليك ، كيف تصنعها ، روى أنه لما جهل صنعها أوحى اللّه إليه : أن اصنعها على مثال جؤجؤ الطائر. وروى أيضا : أنها كانت مربعة الشكل ، طويلة فى السماء ، ضيقة الأعلى ، وأن المراد منها إنما كان الحفظ ، لا سرعة المشي. والأول أرجح. أعنى : على صورة ظهر الطائر. قال فى الأساس : عملت سفينة نوح عليه السّلام

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح.

من ساج ، وهو خشب أسود ، رزان ، لا تكاد الأرض تبليه ، يجلب من الهند. هـ. وفى رواية أخرى : صنعها نوح عليه السّلام ، وجبريل يصف له ، فكان أسفلها كأسفل السفن وأعلاها كالسقف ، وداخلها كالبيت ، ولها أبواب فى جوانبها. هـ.

ثم إن نوحا عليه السّلام لما تحقق هلاك قومه ، رق عليهم ، فهمّ أن يراجع اللّه فى شأنهم ، فقال له تعالى : وَلا تُخاطِبْنِي ولا تراجعنى فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ، ولا تدع باستدفاع العذاب عنهم إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ : محكوم عليهم بالغرق لا محالة. فلا سبيل إلى كفه.

وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، حكى ما وقع بصيغة الحال استحضارا لتلك الحال العجيبة ، وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ : جماعة مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ : استهزءوا به ، لأنه كان يعمل السفينة فى برية بعيدة من الماء. أو أن عزته تنفى صنعته ، فكانوا يضحكون منه ، ويقولون له : صرت نجارا بعد أن كنت نبيا. قالَ لهم : إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ ، فنسخر منكم حين يأخذكم فى الدنيا الغرق ، وفى الآخرة الحرق. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ ، وهو : الغرق ، والحرق بعده ، وَيَحِلُّ أي : ينزل عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ : دائم ، وهو النار يوم القيامة.

الإشارة : إذا تحقق الولي بإعراض الخلق عنه ، وأيس منهم أن يتبعوه. فلا يحزن ، ولا يغتم منهم ، ففى اللّه غنى عن كل شيء ، وليس يغنى عنه شيء. وفى إعراض الخلق راحة لقلب الولي ولبدنه ، فإذا سخروا منه فليقل فى نفسه :

إن تسخروا منا اليوم ، فنسخر منكم حين تحقق الحقائق ، فيرتفع المقربون ، وينسفل الباطلون ، وكان شيخ أشياخنا سيدى على العمراني رضى اللّه عنه كثيرا ما يقول : ليت القيامة قامت ، حتى يظهر الرجال من غيرهم. أو ما هذا معناه.

ثم ذكر مبدأ الطوفان ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٤٠]

حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)

قلت : حتى : غاية لقوله : (و يصنع الفلك) ، أو ابتدائية. و(اثنين) مفعول باحمل ، و(أهلك) : عطف عليه.

يقول الحق جل جلاله : حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا بغرقهم ، أو أمرنا للأرض بالفوران وللسحاب بالإرسال ، وَفارَ التَّنُّورُ نبع الماء منه وارتفع كالقدر تفور. والتنور : تنور الخبز ، ابتدأ منه النبوع ، على خرق العادة ، أرادت ابنته أن تسجره ففار الماء فى النار ، روى أنه كان تنور آدم ، خلص إلى نوح ، فكان يوقد فيه ، وقيل : كان فى الكوفة فى موضع مسجدها. وقيل : فى الهند ، وقيل : التنور : وجه الأرض «١». قاله ابن عباس.

(١) ورجح الطبري القول الأول لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. [.....]

(٥٢٨/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٢٩

فلما فار بالماء قُلْنَا احْمِلْ فِيها فى السفينة ، مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كل نوع من الحيوان ذكرا وأنثى – روى أن نوحا عليه السّلام وقف على باب السفينة ، وحشر إليه الوحوش ، فكان الذكر يقع فى يمينه ، والأنثى فى شماله ، وهو يدخل فى السفينة. وآخر ما دخل الحمار ، فتمسك الشيطان بذنبه فزجره نوح فلم ينعق ، فدخل معه ، فجلس عند مؤخر السفينة. وروى أن نوحا عليه السّلام آذاه نتن الزبل والعذرة ، فأوحى اللّه إليه : أن امسح على ذنب الفيل ، ففعل فخرج من أنفه خنزير وخنزيرة ، فكفياه أمر ذلك الأذى. وروى أن الفأر آذى الناس ، فأوحى اللّه إليه : أن امسح على جبهة الأسد ففعل ، فعطس فخرج منه هرّ وهرّة. فكفياه أمر الفار «١». انظر ابن عطية.

وَاحمل أيضا أَهْلَكَ أي : امرأتك وبنيك ونساءهم ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ أنه من المغرقين يريد : ابنه كنعان وأمه واعلة ، فإنهما كانا كافرين. وَاحمل مَنْ آمَنَ بك. قال تعالى : وَما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ، قيل : كانوا تسعة وسبعين : زوجته المسلمة ، وبنوه الثلاثة : حام وسام ويافث ، ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم. وفى بعض الآثار : أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «سام أبو العرب ، ويافث أبو الروم ، وحام أبو الحبش» «٢».

قاله ابن عطية. وسيأتى خلافه فى سورة الصافات. وهو الراجح. وقال البيضاوي : روى أن نوحا عليه السّلام اتخذ السفينة فى سنتين ، وكان طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ، وسمكها ثلاثين. وجعل لها ثلاثة بطون. فحمل فى أسفلها الدواب والوحش ، وفى وسطها الإنس ، وفى أعلاها الطير. هـ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حتى إذا جاء أمرنا بكمال الطهارة من العيوب ، وفار تنور القلب بعلم الغيوب ، وجرت سفينة الفكرة فى بحار التوحيد ، وأسرار التفريد ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين علم الشريعة والحقيقة ، وعلم الحكمة والقدرة ، وعلم الحس والمعنى ، وعلم الأشباح والأرواح ، وعلم الملك والملكوت. وتحمل من تمسك بها من أهل المحبة والوداد ، إلا من سبق عليه القول بالمكث فى مقام البعاد ، وتحمل من آمن بخصوصيتها من العباد ، فتقربه من مسلك التوفيق والتسديد ، حين يمن الحق تعالى عليها بالقرب من أهل المحبة والوداد. وباللّه التوفيق.

ثم أمرهم بالركوب فى السفينة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٤١ الى ٤٣]

وَقالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (٤٢) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)

---

(١) هذه الأخبار ذكرها الطبري وغيره ، وهى من الإسرائيليات التي ينبغى تنقية كتب التفسير منها.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٩/ ٥ والترمذي وحسنه فى (المناقب ، باب فضل العرب) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبي ، عن سمرة بن جندب – رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٠

قلت : (مجريها ومرساها) : مشتقان من الجري والإرسال ، أي : الثبوت ، وهما إما ظرفان زمانيان ، أو مكانيان ، وإما مصدران ، والعامل فيهما : ما فى (بسم اللّه) من معنى الفعل. وإعراب «بسم اللّه» : إما حال مقدرة من الضمير فى «اركبوا» ، أي : اركبوا متبركين بسم اللّه ، أو قائلين : بسم اللّه ، وقت إجرائها وإرسائها. أو (مجراها ومرساها) :

مبتدأ ، و(بسم اللّه) : خبر. فيوقف على (فيها) أي : إجراؤها وإرساؤها حاصل بسم اللّه.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ نوح لمن كان معه : ارْكَبُوا فى السفينة وسيروا فيها. روى أنهم ركبوا أول يوم من رجب ، وقيل : يوم العاشر منه ، واستوت على الجودي يوم عاشوراء ، بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها أي : متبركين بسم اللّه وقت إجرائها ، أو قائلين بسم اللّه وقت إجرائها وإرسائها ، روى : أنه عليه السّلام كان إذا أراد أن يجرى السفينة قال : بسم اللّه ، فتجرى ، وإن أراد أن يوقفها قال : بسم اللّه ، فتوقف. إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، فلو لا مغفرته لما فرط منكم ، ورحمته إياكم ، لما أنجاكم. فركبوا مسلمين وساروا.

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ ، والموج : ما يرتفع من الماء عند اضطرابه ، أي : كل موجة من الطوفان كالجبال فى تراكمها وارتفاعها ، وما قيل من أن الماء أطبق ما بين السماء والأرض ، وكانت السفينة تجرى فى جوفه ، لم يثبت. وكيف يكون الموج كالجبال؟ والمشهور أنه علا شوامخ الجبال ، خمسة عشر ذراعا ، وإن صح ذلك فلعل ارتفاع الموج كالجبال كان قبل التطبيق.

وَنادى نُوحٌ ابْنَهُ ، كان كنعان. وقيل : كان لغير رشدة ، وهو خطأ لأن الأنبياء عصمت من أن تزنى

أزواجهم. والمراد بالخيانة فى قوله : فَخانَتاهُما «١». فى الدين. وَكانَ فِي مَعْزِلٍ فى ناحية ، عزل نفسه فيها عن أبيه ، أو عن دينه ، فقال له أبوه : يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا فى السفينة ، وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ فى الدين ، أو فى الاعتزال عنا ، وكان يظنه مؤمنا ، لإخفاء كفره. قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي يمنعنى مِنَ الْماءِ ، فلا أغرق ، قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ أي : إلا الراحم ، وهو اللّه ، فلا عاصم إلا أرحم الراحمين. أو : لا عاصِمَ لا ذو عصمة إلا من رحم اللّه ، فلا معصوم إلا من رحمه اللّه.

فالاستثناء حينئذ متصل. أو : لا عاصم اليوم من أمر اللّه لكن من رحمه اللّه فهو المعصوم. أو : لا ذو عصمة لكن الراحم يعصم من شاء ، والاستثناء منقطع.

وَحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ بين نوح وابنه ، فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ فصار من المهلكين بالماء. روى أنه صنع بيتا من زجاج ، وحمل معه طعامه وشرابه ، وصعد على وجه الماء فسلط اللّه عليه البول حتى غرق فى بوله «٢».

واللّه تعالى أعلم بشأنه.

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة التحريم.

(٢) الآية صريحة فى أن الولد أراد أن يأوى إلى جبل يعصمه من الماء .. فماذا ينفع الزجاج هنا. وما ذكره الشيخ المفسر لا دليل عليه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣١

الإشارة : إذا دخل العارف فى بحر الفناء ، وغاب عن حسه ورسمه ، واتصل معناه ببحر معانى الأسرار ، جرت سفينة فكرته فى بحر الذات وأنوار الصفات ، فقال لأصحابه : اركبوا فيها ، بسم اللّه مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم ، حيث غطى وصفكم بوصفه ، ونعتكم بنعته. فوصلكم بما منه إليه ، لا بما منكم إليه. فصارت سفن الأفكار تجرى بهم فى موج كالجبال ، وهى تيار بحر الذات. فالخمرة الأزلية الخفية الصافية بحر لا ساحل له ، وما ظهر من أنوار الصفات أمواجه. فأنوار الآثار هى أمواج البحار ، وما عظم من أمواجه يسمى التيار ، ولذلك قيل : العارفون يغرقون فى بحر الذات ، وتيار الصفات ، فتراهم إذا غرقوا فى بحر الأسرار وتيار الأنوار ، وساروا فيها بمدد أسرارهم ، تلاطمت عليهم أمواجه. وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، فلا عاصم اليوم من أمر اللّه إلا من رحم ، فآواه إلى جبل السنة المحمدية. فكان من الناجين.

وآخرون حال بينهم الموج ، فكانوا من المغرقين ، فالتبس الأمر عليهم ، فقالوا بالحلول والاتحاد ، أو

نفى الحكمة والأحكام. وهذا فى حق من ركب بلا رئيس ماهر ، وإلا رده إلى سفينة النجاة ، وهى : التمسك بالشريعة المحمدية فى الظاهر ، والتحقق بالحقيقة الأصلية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر انتهاء الطوفان ، فقال :

[سورة هود (١١) : آية ٤٤]

وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)

قلت : (بعدا) : منصوب على المصدر ، أي : أبعدوا بعدا.

يقول الحق جل جلاله : وَقِيلَ أي : قال اللّه : يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ الذي خرج منك ، فانفتحت أفواها ، فرجع إليها ما خرج منها ، وَيا سَماءُ أَقْلِعِي : أمسكى عن الأمطار. روى أنها أمطرت من كل موضع ، فبقى ما نزل منها بحارا على وجه الأرض.

قال البيضاوي : نوديا بما ينادى به أولو العلم ، وأمرا بما يؤمرون به ، تمثيلا لكمال قدرته ، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما ، بالأمر المطاع ، الذي يأمر المنقاد لحكمه ، المبادر إلى امتثال أمره ، مهابه من عظمته ، وخشية من أليم عقابه. والبلع : النشف ، والإقلاع : الإمساك. هـ.

وَغِيضَ الْماءُ نقص ولم ينشف ما خرج منها ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ : وأنجز ما وعد من إهلاك الكافرين ، وإنجاء المؤمنين ، وَاسْتَوَتْ : استقرت السفينة عَلَى الْجُودِيِّ جبل بالموصل. وقيل : بالشام. وتقدم أنه

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٢

نزل يوم عاشوراء ، فصامه شكرا. وبقي ستة أشهر على الماء. وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ هلاكا لهم. يقال :

بعد ، إذا بعد بعدا بعيدا ، بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك. وخص بدعاء السوء.

والآية – كما ترى – فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال. وإيراد الأخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل ، وأنه متعين فى نفسه ، مستغن عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم به ، فإن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار. قاله البيضاوي.

فإن قلت : قد عم الغرق الدنيا كلها ، مع أن دعوة نوح عليه السّلام لم تكن عامة ، وقد قال تعالى : وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا «١»؟ فالجواب : أن الكفر قد كان عم الموجودين فى ذلك الزمان ، مع تمكنهم من النظر والاستدلال على الصانع وتوحيده ، ومع قدرتهم على الإتيان إلى نوح فى أمر

الشرائع ، فقصروا فى الجهتين.

وأيضا : لم تكن الأرض كلها معمورة بالناس ، فكل من كان موجودا سمع بدعوة نوح فجحدها. واللّه تعالى أعلم.

وانظر ابن عطية عند قوله : وَاصْنَعِ الْفُلْكَ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا توالت على القلب الواردات الإلهية السماوية ، والأحوال النفسانية المزعجة ، خيف على العقل الاختطاف والاصطلام ، فقيل يا أرض النفس ابلعي ماءك واسكني ، ويا سماء الواردات أقلعى ، وغيض الماء ، أي :

نقص هيجان الحال ، وقضى الأمر بالاعتدال ، واستوت سفينة الفكرة على جبل العقل ، فحاز الشرف والكمال لكونه برزخا بين بحرين ، يعطى الحقيقة حقها والشريعة حقها ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه.

وقيل : بعدا لمن تخلف عن هذا المقام ، وظلم نفسه بإلقائها فى سجن الهوى وغيهب الظلام. واللّه تعالى أعلم.

ولمّا غرق كنعان مع من غرق ، استفهم نوح عليه السّلام ربه عن الوعد الذي وعده بإنجاء أهله ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (٤٥) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (٤٦) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (٤٧)

---

(١) من الآية : ١٥ من سورة الاسراء.

قلت : (و إنّ وعدك) : عطف على (إن ابني). و(أنت أحكم) : حال من الكاف. و(إنى أعظك) : مفعول من أجله ، أي : كراهية أن تكون من الجاهلين.

يقول الحق جل جلاله : وَنادى نُوحٌ رَبَّهُ بعد تعميم الغرق ، أي : أراد النداء بدليل عطف قوله : فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، فإنه هو النداء ، أو تكون فصيحة جوابا عن مقدر ، كأن قائلا قال : ماذا قال

فى ندائه؟

فقال : إن ابني من أهلى وقد وعدتني أن تنجينى وأهلى ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ لا يتطرقه الخلف ، فما باله غرق؟

وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ لأنك أعلمهم وأعدلهم ، فلم أعرف وجه حكمك عليه بالغرق. أو لأنك أكثر حكمة من ذوى الحكم ، فلم أفهم حكمة غرقه.

قالَ تعالى : يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ لأنه خالفك فى الدين ، ولا ولاية بين الكافر والمؤمن ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ أي : ذو عمل فاسد. جعل ذاته نفس العمل مبالغة. وقرأ الكسائي ويعقوب : (عمل) بلفظ الماضي. أي : عمل عملا فاسدا ، استحق به البعد عنك. أو : إنه – أي سؤالك – عمل غير صالح. ويقوى هذا قراءة ابن مسعود : «إنه عمل غير صالح أن تسألنى ما ليس لك به علم». وقراءة الجماعة : فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ أصواب هو أم لا ، حتى تقف على كنهه. وإنما سمى نداءه سؤالا لتضمنه معنى السؤال ، بذكر الوعد واستنجازه واستفسار المانع.

ثم وعظه بقوله : إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ أي : إنى أعظك كراهة أن تكون من الجاهلين ، الذين يسألون ما لا يوافق القدر. وقد استثنيته بقولي : إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ. وليس فيه وصفه بالجهل ، بل وعظه لئلا يقع فيه ، والحامل له على السؤال ، مع أنه استثنى له غلبة الشفقة على الولد ، مع كونه لم يتحقق أنه ممن سبق عليه القول.

قالَ نوح : يا رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ فى المستقبل ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ما لا علم لى بصحته. وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ما فرط منى من السؤال ، وَتَرْحَمْنِي بالتوبة تفضلا وإحسانا ، وبالتوفيق والعصمة فى المستقبل ، أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ بسوء أدبى معك.

الإشارة : قال الورتجبي : أدب نبيه نوحا عليه السّلام بأن لا يسأل إلا ما وافق القدر. وكل دعاء لم يوافق مراده تعالى فى سابق علمه لم يؤثر فى مراد الداعي. وقوله : (إنه عمل غير صالح) أي : ليس عمله على موافقة السنة ، ثم وعظه ، وقال : (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) ، الجاهل : من جهل قدر اللّه ، أي : أنزهك عن سوء الأدب فى السؤال ، على غير قاعدة مرادك. هـ. وقال فى الحكم : «ليس الشأن وجوب الطلب ، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب».

(٥٣٣/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٤

ثم أمره بالنزول إلى الأرض من السفينة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)

قلت : «تلك» : مبتدأ. و«من أنباء» : خبر. و«نوحيها» : خبر ثان ، و«ما كنت تعلمها» : خبر ثالث ، أو حال من الهاء ، أي : حال كونها مجهولة عندك وعند قومك.

يقول الحق جل جلاله : قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ من السفينة إلى عمارة الأرض بِسَلامٍ مِنَّا ، أي : متلبسا بسلامة من المكاره ، من جهة حفظنا ورعايتنا. أو مسلما عليك. وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ وزيادات فى نسلك حتى تصير آدما ثانيا. فالبركة هى : الخير النامي. أو : مباركا عليك ، وَعَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ أي : هم الذين معك ، أو ناشئة ممن معك ، فقد تشعبت الأمم ممن معه من ذريته. والمراد : المؤمنون ، بدليل قوله : وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ فى الدنيا ، ونوسع عليهم فيها ، ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة ، وهم الكفار ممن نشأ من ذريته. وقيل :

هم قوم هود وصالح ولوط وشعيب ، والعذاب : ما نزل بهم فى الدنيا.

تِلْكَ القصة ، أو خبر نوح عليه السّلام ، هى مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ أي : بعض أخبار الغيب نُوحِيها إِلَيْكَ لا طريق إلى معرفتها إلا الوحى ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا الوقت لو لا إيحاؤنا إليك بها ، فهى من دلائل نبوتك لأنك لم تغب عنهم ، ولم تخالط غيرهم ، فتعين أنه من عند اللّه. فإن كذبوك فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ وأنت أعظمهم. فالعاقبة لك فى الدنيا بالنصر والعز ، وفى الآخرة بالرفيق الأعلى. أو فاصبر على مشاق التبليغ مع إيذاية قومك ، كما صبر نوح عليه السّلام. إن العاقبة للمتقين بالنصر فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة.

الإشارة : يقال للمريد إذا تمكن من الفناء ، وارتفعت فكرته عن عالم الأكوان : اهبط إلى مقام البقاء لتقوم بآداب العبودية بعد مشاهدة عظمة الربوبية ، انزل إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين ، لا بقصد متابعة الشهوة والمتعة. اهبط بسلام منا أي : بسلامة من الرجوع أو الشقاء ، وبركات عليك وعلى من تبعك. ولذلك قيل : من رجع إلى البقاء أمن من الشقاء. وأمم قد ضلوا عن متابعتك ، سنمتعهم فى الدنيا بمتابعة الهوى ، ثم يمسهم منا عذاب الحجاب وسوء الحساب. تلك الواردات الإلهية نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أيها العارف من قبل هذا ، أنت ولا من تبعك ، فاصبر فإن الجمال مقرون بالجلال ، والعاقبة للمتقين. واللّه تعالى أعلم.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٥

ثم ذكر قصة هود عليه السّلام ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٠ الى ٥٢]

وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

قلت : «أخاهم» : عطف على نوح فى قوله : (و لقد أرسلنا نوحا) ، و(هودا) : بدل.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى قبيلة عادٍ أَخاهُمْ هُوداً ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وحده ، ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ يستحق أن يعبد ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ على اللّه ، باتخاذ الأوثان آلهة.

يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ : على التبليغ أَجْراً حتى يثقل عليكم ، أو تتهمونى لأجله ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي خلقنى. بهذا خاطب كل رسول قومه إزاحة للتهمة ، وتمحيصا للنصيحة ، فإنها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع. أَفَلا تَعْقِلُونَ : أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل ، والصواب من الخطأ.

وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ من الشرك ، ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، ثم ارجعوا إليه بطاعته فيما أمر ونهى. أو : ثم توبوا من المعاصي لأن التوبة من الذنوب لا تصح إلا بعد الإيمان ، والتطهير من الشرك ، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً أي : كثير الدر ، أي النزول ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ : يضاعف قوتكم ، ويزدكم فيها. وإنما دعاهم إلى اللّه ، ووعدهم بكثرة المطر وزيادة القوة لأنهم كانوا أصحاب زروع وعمارات. وقيل : حبس اللّه عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم ثلاثين سنة فوعدهم هود عليه السّلام على الإيمان والتوبة بالأمطار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

وقال ابن جزي : وفى الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب لنزول المطر. روى : أن عادا كان المطر قد حبس عنهم ثلاث سنين ، فأمرهم بالتوبة والاستغفار ، ووعدهم على ذلك بالمطر. هـ. وَلا تَتَوَلَّوْا : ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه ، مُجْرِمِينَ مصرين على إجرامكم.

الإشارة : فى تكرير القصص والأخبار وعظ وتذكير لأهل الاعتبار ، وزيادة إيقان لأهل الاستبصار ، وتهديد وتخويف لأهل الإصرار ، وحث على المبادرة إلى التوبة والاستغفار. قوله تعالى : (و يا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) ، أي : استغفروا ربكم من الشرك الخفي ، ثم توبوا إليه من النظر إلى وجودكم ، ورؤية أعمالكم ، يرسل سحاب

الواردات الإلهية والعلوم الإلهامية على قلوبكم وأسراركم ، مدرارا ، ويزدكم قوة فى شهود الذات إلى قوتكم فى شهود الصفات ، ولا تتولوا عن شهوده بشهود أثره ، مجرمين معدودين فى زمرة المجرمين المصرين على الكبائر ، وهم لا يشعرون.

وقال الورتجبي : استغفروا من النظر إلى غيرى ، وتوبوا إلىّ من نفوسكم ، ورؤية طاعتكم وأعواضها ، يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها ، ويزدكم ، أي : يزد قوة أرواحكم فى طيرانها. انظر تمامه.

ثم ذكر ما أجابه به قومه ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٣ الى ٥٧]

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

قلت : (إن نقول إلا اعتراك) : الاستثناء مفرغ ، و«اعتراك» : مقول لقول محذوف ، أي : ما نقول إلا قولنا اعتراك ، و(ما من دابة) : «ما» نافية ، و«من» صلة و«دابة» ، مبتدأ مجرور بمن الزائدة ، وجملة (إلا هو آخذ) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ بمعجزة واضحة تدل على صدق دعواك ، وهذا كذب منهم وجحود لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من المعجزات. وفى الحديث : «ما من نبىّ إلّا أوتى من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنّما كان الذي أوتيته وحيا أوحى إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» «١». كما فى الصحيح. ويحتمل أن يريدوا : ما جئتنا بآية تضطر إلى الإيمان بك ، وإن كان قد أتاهم بآية نظرية. ولم يذكر فى القرآن معجزة معينة لهود عليه السّلام ، مع الاعتقاد أنه لم يخل من معجزة لما فى الحديث.

ثم قالوا : وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا بتاركي عبادتهم عَنْ قَوْلِكَ أي : بسبب قولك ، أو صادرين عن قولك ، وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ أبدا ، وهو إقناط له عن الإجابة والتصديق. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ أصابك بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ بجنون لما سببتها ، ونهيت عن عبادتها ، ولذلك صرت تهذو وتتكلم بالخرافات.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الاعتصام ، باب قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعثت بجوامع الكلم) ومسلم فى (الإيمان ، باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٧

قالَ هود عليه السّلام : إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ على براءتي من شرككم ، وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي أي : اقصدوا كيدى وهلاكى ، جَمِيعاً ، أنتم وشركاؤكم ، ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ لا تؤخرون ساعة. وهذا من جملة معجزاته ، فإن مواجهة الواحد الجم الغفير من الجبابرة ، والفتاك العطاش إلى إراقة دمه ، بهذا الكلام ، ليس إلا لتيقنه باللّه ، ومنعهم من إضراره ليس إلا لعصمته إياه. ولذلك عقبه بقوله : إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، فهو تقرير له. والمعنى : أنكم وإن بذلتم غاية وسعكم لم تضرونى فإنى متوكل على اللّه ، واثق بكلاءته ، وهو مالكى ومالككم ، لا يحيق بي ما لم يرده ، ولا تقدرون على ما لم يقدره.

ثم برهن عليه بقوله : ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها : إلا وهو مالك لها ، قادر عليها ، يصرفها على ما يريد بها. والأخذ بالنواصي تمثيل لذلك. قاله البيضاوي. وقال ابن جزى : أي : هى فى قبضته وتحت قهره ، وهذه الجملة تعليل لقوة توكله على اللّه ، وعدم مبالاته بالخلق. هـ. إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : إنه على الحق والعدل ، ولا يضيع عنده معتصم ولا يفوته ظالم. وقال فى القوت : أخبر عن عدله فى محله ، وقيام حكمته ، وأنه وإن كان آخذا بنواصي العباد فى الخير والشر ، والنفع والضر لاقتداره ، فإن ذلك مستقيم فى عدله ، وصواب من حكمه. هـ.

فَإِنْ تَوَلَّوْا أي : فإن تتولوا وتعرضوا عما جئتكم به ، فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ. أي : فقد أديت ما علىّ من الإبلاغ ، فلا تفريط منى ، ولا عذر لكم فقد جاءكم النذير ، وقامت الحجة عليكم ، وما بقي إلا هلاككم. وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ يسكنون دياركم ، ويعمرون بلادكم ، فإن عتوا وطغوا سلك بهم مسلككم ، وَلا تَضُرُّونَهُ بتوليكم عن الإيمان به ، شَيْئاً من الضرر. أو لا تضرونه شيئا إذا أهلككم واستخلف غيركم ، إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ رقيب ، فلا يخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مجازاتكم.

أو حافظ مستول عليه ، فلا يمكن أن يضره شيء. قاله البيضاوي.

الإشارة : ما يقال للأولياء إلا ما قيل للرسل ، فإذا توجه العبد إلى مولاه ، وسقط على من هو أهل للتربية ، وترك ما كان عليه قبل من الانتساب إلى غيره ، وخرق عوائد نفسه ، أو أصابه شيء من المكاره ، قال الناس : ما اعتراه إلا بعض الصالحين بسوء ، فيقول لهم : إنى أشهد اللّه ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه. فإن أجمعوا على إضراره أو قتله قال لهم : فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها ، وأنتم دواب مقهورون تحت قبضة الحق ، إِنَّ رَبِّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ لا ينتقم إلا من أهل الانتقام ، «من عاد لى وليا فقد آذنته بالحرب»

، فإن ذكرهم باللّه ودلهم على الطريق ، فكذبوه وأعرضوا عنه ، قال : عسى أن يذهب بكم ، ويستخلف قوما غيركم ، يكونون متوجهين إليه أكثر منكم ، ولا تضرونه شيئا. وباللّه التوفيق.

(٥٣٧/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٨

ثم ذكر نزول العذاب الذي وعدهم به ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)

قلت : إنما قال هذا وفى قصة شعيب : (و لما) ، بالواو ، وفى قصة صالح ولوط : (فلما) ، بالفاء لأن قصة صالح ولوط ذكرهما بعد الوعيد ، فى بالفاء التي تقتضى التسبب ، كما تقول : وعدته فلما جاء الوعيد كان .. إلخ ، بخلاف قصة هود وشعيب لم يتقدم ذلك فيهما ، فعطف بالواو. قاله الزمخشري.

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا : عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، وكانوا أربعة آلاف ، وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ ، وهو ريح السموم ، وكانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطع أمعاءهم. والتكرير لبيان ما نجاهم منه ، وإعلاما بأنه عذاب غليظ ، وتعديدا للنعمة فى نجاتهم. ويحتمل أن يريد بالنجاة الأولى : من عذاب الدنيا ، وهو الريح الذي نزل بقومهم ، وبالنجاة الثانية : عذاب الآخرة ، وهو العذاب الغليظ ، ولذلك عطفه على النجاة الأولى التي أراد بها النجاة من الريح.

وَتِلْكَ عادٌ الإشارة إلى القبيلة ، أو إلى قبورهم وآثارهم تهويلا وتهديدا ، جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ كفروا بها ، وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، والجمع إما لأنّ من عصى رسولا فكأنما عصى الكل لأنهم متفقون فى الدعوة ، مع أنهم أمروا بطاعة كل رسول. وإمّا على إرادة الجنس ، كقولك : فلان يركب الخيل ، وإن لم يركب إلا فرسا واحدا. وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ يعنى : كبراءهم الطاغين ، والعنيد : الطاغي ، والمعنى : عصوا من دعاهم إلى الإيمان وما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وما يرديهم ، وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ أي : جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين فى الدنيا أهلكتهم ، وفى الآخرة أحرقتهم.

أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ جحدوه ، أو كفروا نعمه. وفيه تشنيع لكفرهم وتهويل لأمرهم ، بالإتيان بحرف التنبيه ، وتكرار اسم عاد أَلا بُعْداً لِعادٍ أي : هلاكا لهم ، دعا عليهم بالهلاك بعد أن هلكوا للدلالة على أنهم كانوا مستحقين له ، مستوجبين لما نزل بهم بسبب ما حكى عنهم. وإنما كرر «ألا» ، وأعاد

ذكرهم تفظيعا لأمرهم ، وحثّا على الاعتبار بحالهم. ثم بيّنهم بقوله : قَوْمِ هُودٍ. فهو عطف بيان لعاد ، وفائدته : تمييزهم عن عاد الثانية ، التي هى عاد إرم ، والإيماء إلى [استحقاقهم للبعد] «١» بما جرى بينهم وبينه. قاله البيضاوي.

---

(١) فى الأصول : [استحقارهم له]. والمثبت هو الذي فى تفسير البيضاوي.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٣٩

الإشارة : من أراد سلامة الدارين والظفر بقرة العين ، فليتمسك بالإيمان باللّه ، وبكل رسول أتى من عند اللّه ، وليتبع من يدعو إلى اللّه. وهم أهل المحبة والوداد ، السالكون مناهج الرشاد والسداد.

وليتجنب كل جبار عنيد ، وهو :

كل من يحول بينك وبين اللّه ، ويغفلك عن ذكر اللّه. وقوله تعالى : (ألا بعدا لعاد) وأخواتها ، فيها تخويف لأهل القرب والوصال.

قال فى الإحياء : ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ، ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض ، فأولها : خوف الإعراض ، وأشد منه : خوف الحجاب ، وأشد منه : خوف الإبعاد ، وهذا المعنى من سورة هود هو الذي شيب سيد المحبين ، أنه سمع : (ألا بعدا لعاد) ، (ألا بعدا لمدين) ، وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه ، وتنعّم به. ثم قال : ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدّمنا : أن درجات القرب لا نهاية لها. هـ.

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٦١ الى ٦٣]

وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)

قلت : قال الشطيبى : صالح : هو ابن عبيد بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح. وثمود هم أولاد ثمود بن عوص بن عاد بن إرم بن سام بن نوح. هـ. وفيه نظر فقد ذكر البيضاوي فى سورة الأعراف أن بين صالح ونوح تسعة أجداد ، فانظره.

يقول الحق جل جلاله : وَأرسلنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً ، قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ كونكم من الأرض لأنه خلق آدم منها ، والنطف التي هى مواد نسله أصلها منها ، وَاسْتَعْمَرَكُمْ عمركم فِيها وجعلكم تعمرونها بعد من مضى قبلكم ، ثم تتركونها لغيركم. أو استبقاكم فيها مدة أعماركم ، ثم ترحلون عنها. فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ من كل شيء ، مُجِيبٌ لمن دعاه.

(٥٣٩/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٠

قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا أي : كنا نرجو أن ننتفع بك لما نرى فيك من مخايل الرشد والسداد ، فتكون لنا سيدا ، أو مستشارا فى الأمور ، وأن توافقنا على ديننا ، فلما سمعنا هذا القول منك انقطع رجاؤنا منك أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا قبلنا لتصرفنا عن ديننا ، وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ من التوحيد ، والتبري من الأوثان ، مُرِيبٍ : موقع فى الريبة مبالغة فى الشك ، قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ طريقة واضحة مِنْ رَبِّي وبصيرة نافذة منه ، وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً : نبوة ، فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ من يمنعنى من عذابه إِنْ عَصَيْتُهُ وأطعتكم فى ترك التبليغ ، وموافقتكم فى الدين الفاسد ، فَما تَزِيدُونَنِي باستتباعكم غَيْرَ تَخْسِيرٍ بترك ما منحنى اللّه به ، والتعرض لغضبه ، أو فما تزيدوننى بما تقولون لى غير تخسير لكم لأنه يجركم إلى الخسران. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من وجهه الحق تعالى يدعو إلى اللّه فإنما يدعو إلى خصلتين : إفراد الحق بنعوت الألوهية ، والقيام بوظائف العبودية شكرا لنعمة الإيجاد ، وتوالى الإمداد. فقول صالح عليه السّلام : (اعبدوا اللّه مالكم من إله غيره) ، هذا إفراد الحق بالربوبية ، وقوله : (هو أنشأكم من الأرض) ، هذه نعمة الإيجاد. وقوله : (و استعمركم فيها) هى : نعمة الإمداد ، وقوله : (فاستغفروه ثم توبوا إليه) ، هو القيام بوظائف العبودية شكرا لتلك النعمتين. وفى قوله : (إن ربى قريب مجيب) : ترهيب وترغيب.

وقوله تعالى : (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) : يؤخذ من الآية : أن شعاع الخصوصية ، وآثارها ، تظهر على العبد قبل شروق أنوارها ، وهو جار فى خصوص النبوة والولاية ، فلا تظهر على العبد فى الغالب حتى يتقدمها آثار وأنوار ، من مجاهدة أو أنس ، أو اضطرار أو انكسار ، أو عرق طيب. واللّه تعالى أعلم. وكل من واجهه منهم تكذيب أو إنكار يقول : (أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ...) الآية. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر معجزة الناقة ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٤ الى ٦٨]

وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ

(٦٤) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (٦٨)

(٥٤٠/٢)

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤١

قلت : «آية» : نصبت على الحال ، والعامل فيها : معنى الإشارة. و(لكم) : حال منها ، تقدمت عليها لتنكيرها.

و(من خزى يومئذ) – حذف المعطوف ، أي : ونجيناهم من خزى يومئذ ، ومن قرأ بكسر الميم أعربه ، ومن قرأ بالفتح بناه لاكتساب المضاف البناء من المضاف إليه. قاله البيضاوي. وقال فى الألفية :

وابن ، أو أعرب ما كإذ قد أجريا واختر بنا متلو فعل بنيا

وقبل فعل معرب أو مبتدا أعرب ، ومن بنى فلن يفندا

وثمود : اسم قبيلة ، يصح فيه الصرف باعتبار الحي أو الأب الأكبر ، وعدمه باعتبار القبيلة. وقد جاء بالوجهين فى هذه الآية.

يقول الحق جل جلاله : قال صالح لقومه بعد ظهور آية الناقة ، وقد تقدم فى الأعراف قصتها : هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً تدل على صدقى ، فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ أي : ترعى نباتها وتشرب ماءها ، وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ : عاجل ، لا يتأخر عن مسكم لها بالسوء إلا ثلاثة أيام.

فَعَقَرُوها وقسموا لحمها فَقالَ لهم : تَمَتَّعُوا : عيشوا فِي دارِكُمْ منازلكم ثَلاثَةَ أَيَّامٍ الأربعاء والخميس والجمعة. وقيل : عقروها يوم الأربعاء ، وتأخروا الخميس والجمعة والسبت ، وهلكوا يوم الأحد.

ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فيه ، بل هو حق.

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا : عذابنا ، أو أمرنا بهلاكهم ، نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، قيل : كانوا ألفين وثمانمائة رجل وامرأة. وقيل : أربعة آلاف ، وقال كعب : كان قوم صالح أربعة عشر ألفا ، سوى النساء والذرية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. انظر القرطبي. قلت : وقول كعب : كان قوم صالح ... إلخ ، لعله يعنى الجميع : من آمن ومن لم يؤمن ، فآمن ألفان وثمانمائة ، وهلك الباقي. وكذا هود ، أسلم أربعة آلاف ، وهلك الباقي.

قال تعالى : فنجينا صالِحاً ومن معه بِرَحْمَةٍ مِنَّا ، ونجيناهم مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ وهو : هلاكهم بالصيحة ، أو من هوان يوم القيامة ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ القادر على كل شيء ، الغالب عليه ، وَأَخَذَ الَّذِينَ

ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ باركين على ركبهم ، ميتين ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا : يعيشوا ، أو يقيموا فِيها ساعة ، أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ جحدوه ، أَلا بُعْداً لِثَمُودَ هلاكا وسحقا لهم.

الإشارة : ما رأينا أحدا ربح من ولى وهو يطلب منه إظهار الكرامة ، بل إذا أراد اللّه أن يوصل عبدا إليه كشف له عن سر خصوصيته ، بلا توقف على كرامة. وقد يظهرها اللّه له بلا طلب تأييدا له ، وزيادة فى إيقانه ، فإن طلب الكرامة ، وظهرت له ، ثم أعرض عنه ، فلا أحد أبعد منه. قال تعالى ، فى حق من رأى المعجزة ثم أعرض :

(ألا بعدا لثمود). وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة لوط ، مع ما تقدمها من بشارة إبراهيم عليه السّلام ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٦٩ الى ٧٣]

وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قالَتْ يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

قلت : «سلاما» : منصوب على المصدر ، أي : سلمنا سلاما. ويجوز نصبه بقالوا لتضمنه معنى ذكروا. (قال سلام) : إما خبر ، أي : أمرنا سلام ، أو جواب سلام ، وإما مبتدأ ، أي : عليكم سلام. وكسر السين : لغة. وإنما رفع جوابه ليدل على ثبوت سلامه فيكون قد حياهم بأحسن مما حيوه به. (فما لبث أن جاء). «ما» : نافية و«أن جاء» :

فاعل «لبث». ونكر وأنكر بمعنى واحد. والإيجاس : الإدراك أو الإضمار. و(من وراء إسحاق يعقوب) : من قرأ بالنصب فبفعل دل عليه الكلام ، أي : ووهبنا لها يعقوب. ومن رفعه فمبتدأ ، أي : ويعقوب مولود من بعده. و(شيخا) :

حال ، والعامل فيه : الإشارة ، أي : أشير إليه شيخا. و(أهل البيت) : نصب على المدح والاختصاص ، أو على النداء.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ ، وهم الملائكة ، قيل : ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل. وقيل : تسعة ، جاءوه بِالْبُشْرى بالولد. فلما دخلوا عليه قالُوا سَلاماً أي : سلمنا عليك سلاما

، أو ذكروا سلاما ، قالَ سَلامٌ أي : عليكم سلام ، فَما لَبِثَ أي : أبطأ ، أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ مشوى بالرضف ، أي : بالحجر المحمى. وقيل : حنيذ بمعنى يقطر ودكه «١». كقوله : بِعِجْلٍ سَمِينٍ «٢» ، فامتنعوا من أكله ، فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ لا يمدون إليه أيديهم ، نَكِرَهُمْ أي : أنكر ذلك منهم ، وَأَوْجَسَ : أدرك ، أو أضمر مِنْهُمْ خِيفَةً أي : خوفا ، خاف أن يريدوا به مكروها لامتناعهم من طعامه ، وكان من عادتهم إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه ، وإلا خافوه.

والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة ونكرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره اللّه عليه فأمنوه ، وقالوا :

لا تَخَفْ إِنَّا ملائكة أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ

لنعذبهم ، وإنما لم نأكل طعامك لأنا لا نأكل الطعام. وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ من وراء ستر تسمع محاورتهم ، أو على رؤوسهم للخدمة ، فَضَحِكَتْ سرورا بزوال الخيفة ، أو بهلاك

---

(١) الودك : دسم اللحم.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة الذاريات.

أهل الفساد ، أو بإصابة رأيها ، فإنها كانت تقول لإبراهيم : اضمم إليك لوطا ، فإني لأعلم أن العذاب نازل بهؤلاء القوم. وقيل : معنى ضحكت : حاضت. يقال : ضحكت الشجرة : إذا سال صمغها. وقيل : ضحكت سرورا بالولد الذي بشرت به. فيكون فى الكلام تقديم وتأخير ، أي : فبشرناها فضحكت ، وهو ضعيف.

قال تعالى : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ ولد ولدها. وتوجيه البشارة إليها لأنه من نسلها ، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد ، قالَتْ يا وَيْلَتى يا عجبا ، وأصله فى الشر ، فأطلق على كل أمر فظيع. وقرىء بالياء على الأصل ، أي : يا ويلتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ابنة تسعين ، أو تسع وتسعين وَهذا بَعْلِي : زوجى ، وأصله : القائم بالأمر ، شَيْخاً ابن مائة أو مائة وعشرين سنة ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ يتعجب منه لكونه نشأ الولد من هرمين.

وهو استغراب من حيث العادة ، لا من حيث القدرة ، ولذلك قالوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ منكرين عليها ، فإن خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ، ومهبط الوحى ومظهر المعجزات. وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات ليس ببدع ، ولذلك قالوا : رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ أي : بيت إبراهيم ،

فلا تستغرب ما يظهر منهم من خوارق العادات ، لا سيما من نشأت وشابت فى ملاحظة الآيات ، إِنَّهُ تعالى حَمِيدٌ فاعل ما يستوجب به الحمد ، أو محمود على كل حال ، مَجِيدٌ كثير الخير والإحسان. أو ممجّد بمعنى العلو والشرف التام. قال ابن عطية هنا : إن فى الآية دليلا على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق. وفيه نظر «١». وسيأتى فى سورة الصافات ما هو الحق ، إن شاء اللّه تعالى.

الإشارة : من شأن أهل الكرم والامتنان : المبادرة إلى من أتاهم بالبر والإحسان إما بقوت الأرواح ، أو بقوت الأشباح. من أتاهم لقوت الأرواح بادروه بإمداد الروح من اليقين والمعرفة ، ومن أتاهم لقوت الأشباح بادروه بالطعام والشراب ، كلا ما يليق به ، ومن شأن الضيف اللبيب المبادرة إلى أكل ما قدم إليه ، من غير اختيار ، إلا لمانع شرعى أو عادى. ومن شأن أهل التحقيق والتصديق ألا يتعجبوا مما يظهر من القدرة من الخوارق إذ القدرة صالحة لكل شىء ، حاكمة على كل شىء ، هى تحكم على العادة ، لا العادة تحكم عليها. وهذا شأن الصديقين لا يتعجبون من شىء ولا يستغربون شيئا ، ولذلك توجه الإنكار إلى سارة من الملائكة ، ولم يتوجه إلى مريم حيث سألت استفهاما ، ولم تتعجب ، ووصفت بالصديقية دون سارة. واللّه تعالى أعلم.

ولما تحقق إبراهيم عليه السّلام بهلاك قوم لوط أسف عليهم ، كما قال تعالى :

[سورة هود (١١) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

---

(١) راجع ، مع تقريرنا بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السّلام.

البحر المديد ، ج ٢ ، ص : ٥٤٤

قلت : «لما» : حرف وجود لوجود ، تفتقر للشرط والجواب. فشرطها : «ذهب» ، وجوابها : محذوف ، أي : جعل يجادلنا. والتأوه : التفجع والتأسف ، ومنه قول الشاعر.

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوّه آهة الرجل الحزين «١»

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ ، وهو ما أوجس فى نفسه من الخيفة ، وَجاءَتْهُ الْبُشْرى بدل الروع ، جعل يُجادِلُنا أي : يخاصم رسلنا فِي شأن قَوْمِ لُوطٍ ، ويدافع عنهم ، قال : إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها «٢» ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ ، غير عجول من الانتقام إلى من أساء إليه ، أَوَّاهٌ كثير التأوه والتأسف على الناس ، مُنِيبٌ راجع إلى اللّه. والمقصود من ذلك :

بيان الحامل له على المجادلة ، وهى : رقة قلبه وفرط ترحمه. قال تعالى على لسان الملائكة : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ، الجدال إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بهلاكهم ، ونفذ قضاؤه الأزلى فيهم ، ولا مرد لما قضى ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ غير مصروف بجدال ولا دعاء ، ولا غير ذلك.

الإشارة : قال الورتجبي : قوله تعالى : (إن إبراهيم لحليم أواه) حليم بأنه كان لا يدعو على قومه ، بل قال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣». وتأوه زفرة قلبه من الشوق إلى جمال ربه ، هكذا وصف العاشقين. ثم قال : ومجادلته كمال الانبساط ، ولم يكن جهلا ، ولكن كان مشفقا ، بارا كريما ، رأى مكانة نفسه فى محل الخلة والاصطفائية القديمة ، وهو تعالى يحب غضب العارفين ، وتغير المحبين ، ومجادلة الصديقين ، وانبساط العاشقين حتى يحثهم على ذلك.

وفى الحديث المروي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لما أسرى بي رأيت رجلا فى الحضرة يتذمر ، فقلت لجبريل : من هذا؟ فقال : أخوك موسى يتذمّر على ربّه – أي : يجترىء عليه انبساطا – فقلت : وهل يليق له ذلك؟ فقال : يعرفه فيتحمل عنه». ثم قال : ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم. هـ. قال فى الصحاح : يتذمّر على فلان : إذا تنكّر له وأوعده. قاله المحشى.

والحاصل أن ابراهيم عليه السّلام حملته الشفقة والرحمة ، حتى صدر ، منه ما صدر مع خلته واصطفائيته ، فالشفقة والرحمة من شأن الصالحين والعارفين المقربين ، غير أن العارفين باللّه مع مراد مولاهم ، يشفقون على عباد اللّه ، مالم يتعين مراد اللّه ، فاللّه أرحم بعباده من غيره. ولذلك قال لخليله ، لما تعين قضاؤه : يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا.

---

(١) عزاه القرطبي فى تفسيره إلى المثقّب العبدى.

(٢) من الآية : ٣٢ من سورة العنكبوت.

(٣) من الآية : ٣٦ من سورة ابراهيم.

فالشفقة التي تؤدى إلى معارضة القدر لا تليق بأهل الأقدار ، وفى الحكم «ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره اللّه». ولهذا قالوا : الشفقة لا تليق بالأولياء.

قال جعفر الصادق – رحمه اللّه – : ست خصال لا تحسن بستة رجال : لا يحسن الطمع فى العلماء ، ولا العجلة فى الأمراء ، ولا الشح فى الأغنياء ، ولا الكبر فى الفقراء ، ولا الشفقة فى المشايخ ، ولا

اللؤم فى ذوى الأحساب. وقولنا :

الشفقة لا تليق بالأولياء ، يعنى إذا تعين مراد اللّه ، أو إذا ظهرت المصلحة فى عدمها ، كأمر الشيخ المريد بما تموت به نفسه ، فإذا كان الشيخ يحن على الفقراء فى هذا المعنى لا تكمل تربيته. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هلاك لوط ، فقال :

[سورة هود (١١) : الآيات ٧٧ الى ٨٣]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (٧٩) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

قلت : «سى ء» : مبنى للمفعول ، صله : سوىء ، نقلت حركة الواو إلى السين بعد ذهاب حركتها ، ثم قلبت الواو ياء. و(ذرعا) : تمييز محول عن الفاعل ، أي : ضاق ذرعه ، وهو كناية عن شدة الانقباض عن مدافعة الأمر المكروه ، وعجزه عن مقاومته. و(لو أن لى بكم قوة) : إما للتمنى فلا جواب له ، أو محذوف ، أي : لدفعت.